

"مواراة الموت في معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني"

"The Concealment of Death in the Architecture of Palestinian Public Space"

رسالة الماجستير هذه مقدمة من

ياسمين باسم قعدان

لجنة النقاش:

المشرف: د. أباهر السقا

د. ليزا تراكي

د. عبد الرحيم الشيخ

"قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في علم الاجتماع- برنامج العلوم الاجتماعية والسلوكية من كلية الآداب في جامعة بيرزيت، فلسطين".

30 تموز 2015

الإهداء

إلى أمي التي تمنت لو أنها درست علم الاجتماع لتساعدني في بحثي.

إلى أبي الذي غابت ابتسامة عينيه عن عالمي.

الشكر

لا تكتمل قوة المعرفة إلا بإقرار صادق بمدى أهمية المساعدة التي قدمت للباحثة لانجاز هذه الرسالة، وأخص الشكر تحديداً لجميع المبحوثين وللوقت الذي قدموه لانجاز المقابلات، وشجاعة القلب عند بعض المبحوثين بعد ترددهم الأولي لإجراء المقابلة.

والشكر الخاص لأستاذي المشرف أباهر السقا على جهده الذي رافق الإشراف وحتى جهده الذي رافق معرفته بي في المساقات الأخرى، وكذلك أستاذتي ليزا تراكي، وأستاذي عبد الرحيم الشيخ، وأساتذتي جميعاً طوال فترة دراستي في جامعة بيرزيت

الفهرس

ملخص الرسالة:

تنطلق هذه الرسالة كمحاولة بحثية من داخل الواقع الفلسطيني المستعمَر، وتأخذ منه الجزء الذي يقرأ المشهد البصري للفضاء الاجتماعي الفلسطيني وتحديداً معماريته؛ ومنها ثلاث مناطق حضرية تتمثل بالمخيم والمقاطعات والبلدات القديمة. تقوم محاولة القراءة هذه على تتبع التغيرات التي حدثت على عمارة النماذج السابقة خاصةً بعد فترات الاجتياحات والقصف التي حدثت في الانتفاضة الثانية؛ بحيث كانت نتيجة هذه الاجتياحات استهداف قتل معماريتها، وهادفاً لقتل من يحتمي بها وما تمثله في بعض المناطق من هوية للمكان والناس. ولكن، في الفضاء الاجتماعي المعاصر لم يتبقَ أثر لدمار العمار ومعركة المقاومة فيه، بحيث تشير حالات إعادة الاعمار إلى مواراةٍ معقلنةٍ للموت الذي حدث على هذه الجزئية، وتبعت هذه المواراة لمجموعة من خطابات اجتماعية تنبع من هيمنة المنظومة الكولونيالية من التمويل وصولاً لعمارة كولونيالية بتصميم نموذج أمني للمراقبة في المقاطعات. وكذلك نموذج لخطابات تبعت تحولات سياسية في التاريخ الفلسطيني كالخطاب الأوسلوي، والخطاب التكنوقراطي المهني، ومحاولات إقصاء المقاومة وتفريغ أي تجسدات عسكرية لها في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني نحو سلمية الفضاء في واقع استعماري. ومما سبق حدث تغيير على الطبيعة المعمارية التي يمتاز بها مخيم جنين مثلاً، والذي كانت معماريته سلطةً بيد المقاومين الفلسطينيين فترة اجتياح المخيم في بدايات الانتفاضة الثانية، واختلفت بعد إعادة اعماره من حيث توسيع الشوارع وتخطيط زوايا وحارات ومحيط المخيم. كما لا تكتفي الدراسة بالإشارة إلى تغير مشهد المعمارية بعد إعادة الاعمار وإنما إلى أثر ذلك على ذاكرة الحدث عند الفلسطينيين، والية استعادته، ودور المؤسسة في خلق "أماكن الذاكرة" التي ظهرت شواهدها في البلدة القديمة في نابلس بشكل واضح في عدد أضرحة الشهداء، والتي تعمل بقطع الذاكرة عن التاريخ، وتجعل علاقة الأمة مع شواهد حسية للحظة زمانية وتاريخية معينة، وتجعل الذاكرة مأطرة مؤسساتياً من حيث شلها عن الفعل الذاكراتي العفوي لجعلها ذاكرة مصطنعة.

تم استخدام تقنيات البحث الكيفي وبالذات المقابلات، وتحليل الخطاب لمجموعة من الصور التي التقطتها الباحثة، ومجموعة من الصور التي التقطها مصورين فلسطينيين بداية الانتفاضة الثانية، وكذلك مجموعة من المعاينات لصورة العمار في النماذج المختارة للبحث.

المفاهيم المفتاحية في البحث:

موارة الموت: أي إقصاء الحرب من الذكرى والذاكرة في المعمار الفلسطيني والوعي الفلسطيني، وتسجيل الحدث من خلال ثقافة بصرية في الرموز المؤرخة له.

معمارية الفضاء الاجتماعي: معاينة الظاهرة تكمن في فحص شقين لمفهوم معمارية الفضاء الاجتماعي؛ الأول بمعاينة بصرية العمارة فيزيائياً، وشكل العمار الهندسي، وانتظامه كمادة إسمنتية لها امتدادات التأثير والتدليل على العمارة مفاهيمياً وسوسيولوجياً.

Abstract:

This thesis is based on the colonial status that has been imposed on Palestine and the legitimacy of the liberation project; and keeping distance from the rhetoric of national schemes, the thesis is divided into two parts: The first is an attempt to understand and break down the structure of visible and invisible symbols within the architecture of the Palestinian social space, which is concealing “Death”. Following the second intifada, Palestinian social architecture has been dominated by peaceful" non-violent" discourse whose purpose seems to be to bury the architectural parts that have been attacked by the colonizer, and to shift towards creating a new image in which bullet holes which caused death disappear under the

cement of the new buildings in this architecture, and the memory of the event is vanished. In the second part, memory no longer possesses any spontaneous form of communal connection within the Palestinian social space, which through institutional discourse has created **“places of memory- Les lieux de mémoire ”** in which normal events are removed and archived as historical rhetoric.

Methodology: The study uses qualitative research techniques, in which interviews are the main technique used; and they can be divided into two types:

- Semi-structured depth interviews, which were conducted with a group of experts and who are directly related to the social engineering institutions that examined.

- Non-structured interviews that asked the interviewees about the effect of death while they are receiving visual images within the Palestinian social architectural space.

The second technique used is the analysis of the discourse of architectural images of counties, refugee camps, and old towns. These types of images are divided into two:

- Images of destroyed buildings before their re-construction which have been collected from architectural archives by Palestinian photographers such as Abbas Momeni, Abdul Rahman Qusini and Jamal Arouri.

- Images collected by the author after the re-construction.

Keywords:

- Concealing death: the exclusion of war from memory and consciousness through the architecture of Palestinian social space and recording events through visual cultural symbols which have been dated.

- Architecture of social space: the visual inspection of the building physically, in its structural form, and understanding its sociological implications through its structural form to build a social awareness that expresses the occupied identity in place and in time, in reality and in memory.

القسم الأول

1.1 المقدمة:

يأخذ العمار جزءاً أساسياً من بنية الذات والهوية في المجتمع؛ فأصبح تموضع العمار يشكل وعي المكان، ويهندس لوعي الهوية والثقافة عند الأفراد. ومن تصاعد التصادم في الانتفاضة الثانية مع المستعمر الإسرائيلي، لم تعد حياة الجسد فقط هي المستباحة؛ بل أصبح عنوان السياسة الاستعمارية يكمن أيضاً في استباحة العمار داخل المكان/الفضاء الفلسطيني، ففي تكامل الجسد والعمار تشكيلٌ للهوية الفلسطينية، التي غدت مرتبطة بتصميمات معمارية تعيد الهيمنة الاستعمارية من خلال إخفاء قصة الحرب مع المستعمِر في إعادة الاعمار، لتصاب الذاكرة الفلسطينية بثغرة اسمنتية أكبر تخفي فيها معالم مطلبية المشروع التحرري عن المستعمر الإسرائيلي.

وما هذه المحاولة البحثية إلا أداة معرفية تحاول نبش الاسمنت واستنطاقه، نحو معرفة القصة من الواقع، وفي معركة السياسات والخطاب الاستعماري وما يواليه، والذي يقدم مشهد بصري معماري جديد يوضع في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، تبعاً لدراسة ثلاث مناطق حضرية تختلف في البنية وتتشابه في الخطاب اللاعنفي الذي اجترت فيه؛ وهي "المقاطعات، والبلدات القديمة، ومخيم جنين". وتكمن عينة المناطق الحضرية من كونها اشتركت في معركة الموت في الانتفاضة الثانية، ومن ثم اشتركت في لعبة مواراة الموت بعد إعادة اعمارها جميعاً.

إن ما يظهر في هذه المحاولة لدراسة المشهد البصري لمعمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، ومن خلال حفر الاسمنت الجديد هو؛ عملية تفريغ للفضاء من قوة الفعل على التشكيل المعماري بفعل تداخل عوامل الهيمنة التي أعادت إنتاج عمارة كولونيالية ظهرت عند إعادة اعمار المقاطعات، التي تعكس تمثلات الفلسطيني لمؤسسات رسمية تُعلي خطاب دولاتي داخل واقع ما زال مستعمراً. بحيث تمثلت الهيمنة في رسم خطاب الضبط والمراقبة في أبراج وأسوار المقاطعات

المنقولة بصرياً للفلسطينيين، وفي ذات الوقت لم يتخلل أي من المقاطعات الجديدة المعاد اعمارها أي من آثار القصف الذي حدث في فترة الانتفاضة الثانية، وذلك ضمن خطاب مهيمن آخر نحو إيجاد قواعد "لا عنيفة" ولا تشير إلى عنف الممارسات الاستعمارية التي استهدفت هذه المقاطعات ومن كان داخلها، وتصبغها بمسمى "المؤسسات الأمنية" تحت معايير ومواصفات عسكرية مسلحة لا تملك الحيلة أمام صورايخ الطائرات العسكرية الاستعمارية. وترسخ معها أمناً وسلطةً وهميةً تخفي ملفات الذاكرة لمراحل تاريخية فلسطينية معينة، وتنتج خطاباً دولاتياً عالي الإيقاع لمتلقي الشكل الجديد للمقاطعات. وإضافة للعاملين السابقين لا يُخفى عن هذه الصورة دور التمويل الخارجي مع أجندته المتمثلة بالتدخل في لعبة الصراع بين الأطراف الفلسطينية السياسية، والتدخل كذلك في رسم صورة "المؤسسات الأمنية" لصالح السلطة الفلسطينية بعد 2007.

أما ما يظهر في مخيم جنين أو البلدات القديمة الفلسطينية فهو؛ انسحاب العمارة المقاومة التي كانت جزءاً أساسياً في المقاومة في الانتفاضة الثانية، وتفريغها من محتواها السياسي بعد إخفاء حالات التدمير الحضري الذي مارسه الاستعمار فترة الاجتياحات، وإلصاقها بعمارة "اللاعنف" وخطاب سلمي يخلق إحدى حالات تشوه الواقع الاستعماري. وامتازت البلدة القديمة في نابلس في محاولة تتبع ظواهر تُرسم على منافذ مفهوم "أماكن الذاكرة" التي تجسدت بعشرات من أضرحة الشهداء، وما تتسم به هذه الأضرحة هو خلق نوع مختلف من الذاكرة "غير الحقيقة" أو المختارة ليس لحدث المعركة وإنما لتاريخ الاستشهاد، قاصراً فعل الذاكرة على لحظة زمنية معينة. وان كان المفهوم السابق بحاجة لدراسات أخرى عن حالات مشابهة أو مختلفة داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني.

1.2 الإشكالية :

يأتي الطرحُ من الحالة الاستعمارية المفروضة على فلسطين وما يقابلها من عدالة المشروع التحرري؛ وبعيداً عن الخطب في المشاريع الوطنية يكمن جديدُ الطرحِ في جزأين:

الأول في محاولةٍ تفكيكيةٍ لفهم بنيةٍ من الرموزِ الدلالية والإيحائية الموجودة، والمختفية داخل معماريةِ الفضاء الاجتماعي الفلسطيني الراهن، والتي تواري "الموت". حيث يطغى على هندسة الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني المتكون بعد الانتفاضة الثانية رمزية سلمية متبوعة بسلطةِ خطابٍ "لا عنفي" داخلي وخارجي، يعمل على انسحابِ التاريخ و"الحقيقة" و"الصمت عن الاستعمار"، يظهر ذلك في مواراة الأجزاء المعمارية التي وُصمَت بآثار الحرب في لباس معماري جديد يبتعد عن الحرب وأثرها، لتصبح هذه الأجزاء المعمارية المتنكرة تابوتاً لتاريخ معاناة الحرب، أو الحروب التي مرت على المجتمع الفلسطيني، وأداةً في مواراة الموت.

ينقلنا هذا الفضاء المعماري الاجتماعي نحو الصورة الجديدة؛ التي تختفي فيها ثغرة رصاصة الموت تحت اسمنت جديد في جدران العمارة الفلسطينية من قرى ومدن وخيمات والمنزل، ليصبح الشكل المعماري بذلك جزءاً من عدم التورط بلُعبة الموت، والانسحاب من "الذكرى"، ويتكون أثر جديد حي في الصورة يدفن الأثر والمضمون المنتصر والمنهزم في الحرب مع الاستعمار.

أما الجزء الثاني للطرح فيكمن في أنه لم يعد للذكرى أي تأريخ رمزي أو مباشر داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، ليصطدم في خلق رؤية ارجاعية تاريخية مستمرة في الحياة اليومية للفلسطينيين، وتبقى الألسنة تكرر مقولة" على هذه الأرض ما يستحق الحياة" دون وجود مقولة "لئلا ننسى"؛ يَفترضُ تمَلكُ الأولى اجتماعياً انتصار الحياة على الموت ومواراة الموت، ويفترض غيابُ الثانية غيابَ مواجهة الموت كجزء من الحياة المعاشة الفلسطينية وتأريخ ذكراه داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، فما الموت إلا جزءٌ منَ الحياة، يختلف حال الموت هنا لكونه ليس مطلباً، وليس من المطلوب أن

يكون كذلك؛ إلا أن الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني المتبلور بهندسةٍ جديدة وارت عن الموت وأخفت فيه "الذكرى"؛ ذكرى تعيدُ إحياءَ وعيٍ لتاريخٍ استعماريٍ حربي، وواقع ومستقبل يتصادمُ مع الاستعمار داخل الفضاء المعماري، ليس بلحظاتِ التصادم القاتلةِ فقط، وإنما في الحياةِ اليومية التي أصبحت تقضي على وُجود ذكرى لحظةِ التصادم السابقة.

1.3 مفاهيم مفتاحية في الدراسة:

مواراة الموت: أي إقصاء الحرب من الذكرى والذاكرة في المعمار الفلسطيني والوعي الفلسطيني، وتسجيل الحدث من خلال ثقافة بصرية في الرموز المؤرخة له. تتمثل رمزية الموت في الطرح ببعدين؛ البعد الحسي في الاختفاء والفناء سواء كان للجسد أو العمار الذي تعرض للرصاص الإسرائيلي داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، والبعد المجازي في الحالة الاستعمارية لكونه مفروضاً، ومعنوناً لسياسات هذا الاستعمار بمشاريع الهندسة المعمارية الكلونيالية الجديدة، الممتدة لخلق هندسة وعي جديد للفضاء/ المكان للفلسطينيين. يكمن تقصي الموت والبحث في حالات ظهوره واختفائه بفعل استمرار مسببه؛ المتمثل بالسياسات والعنف الاستعماريين القائمين حتى اليوم، بينما الأثر هو ما أصبح يتوارى عن بصرية المستعمَرين، بالتالي الموت يوارى بقبور اسمنتية جديدة دون نبشه، ومما سبق يقوم فعل الموارة برسم رؤية جديدة عن الفضاء الاجتماعي الفلسطيني المعاصر، وعن المشروع الفلسطيني التحرري.

معمارية الفضاء الاجتماعي: معاينة الظاهرة تكمن في فحص شقين لمفهوم معمارية الفضاء الاجتماعي؛ الأول بمعاينة بصرية العمارة فيزيائياً، وشكل العمار الهندسي، وانتظامه كمادة إسمنتية لها امتدادات التأثير والتدليل على العمارة مفاهيمياً وسوسيولوجياً. وكذلك من حيث أن الهندسة المعمارية هي هندسة في بنية الوعي الرمزي الاجتماعي داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني المعبر عن الذات والهوية المستعمَرة، مكاناً وزماناً في الواقع والذاكرة. يكمن اختيار دراسة العمارة

كونها أحد تشكلات الهوية المجتمعية وتعكس العديد من المحددات السوسيولوجية في بنية مجتمع ما، وجزءاً من مشهد بصري للفضاء المعاش الذي يتم إنتاجه من خلال بنية هذه المحددات.

1.4 سبب اختيار الموضوع"ذاتية الباحثة في الموضوع":

بداية التساؤل عن الموضوع كانت مع ثلاث نخلات؛ وضعت أمام المقاطعة"الجديدة" في رام الله، وأزيلت بعد فترة قصيرة، ليتم استبدالها بشجرات زيتون– والتي استبدلت هي الأخرى بعد موتها في مشهد غير مألوف لبلد تستثمر في زراعة الزيتون–، عملية الاستبدال أضاءت تساؤلات أخرى على الاستبدال الكامل للمقاطعة "التالفة وظيفياً" بفعل عمليات القصف الحربي الإسرائيلي– فترة الحصار في بدايات الانتفاضة الثانية. امتدت عملية الاستبدال في طرح التساؤلات وصولاً إلى طولكرم، وبالأخص إلى جدار مخيم طولكرم؛ الجدار ا"الجديد" الذي رسم عليه زهرة وطفل وكتاب، واختفت فتحات الرصاص التي كانت في اسمنته تحتها، لتأخذ التساؤلات بعرض شريط صوري ضبابي للألم والموت الذي حدث في السنوات الأولى للانتفاضة، وتبدأ محاولات الفهم لمدى تبلور الذكرى في الذاكرة الفلسطينية داخل الفضاء/المكان الفلسطيني، لرسم قصة الحرب مع الاستعمار الإسرائيلي، وما هي السياسات والممارسات، والتصميمات المعمارية، وأي سلطة، ومعرفة تحدد تسجيل أو عدم تسجيل قصة الحرب في إعادة اعمار العمار الفلسطيني ومعه هندسة "وعي" جديد لفلسطين والفلسطينيين.

1.5 هدف البحث:

يهدف البحث إلى فهم التحولات التي طرأت، وتطرأ على الذاكرة الفلسطينية في حدث الحرب مع الاستعمار "الإسرائيلي"، والذي يبتعد عن التسجيل في السياسات والممارسات داخل الفضاء/المكان الفلسطيني، ويكمن ذلك في الأثر والمضمون الذي تقدمه معمارية هذا الفضاء، وبالتالي في الإشارة إلى الوعي البصري داخل المعمار الفلسطيني، خاصةً ذاك المعمار الذي تعرض اسمنته للقصف والرصاص الإسرائيلي في الانتفاضة الثانية، والذي أعيد اعماره ضمن سياسات

السلطة/الهيمنة التي أدعي أنها أقصت الموت من الذاكرة والهوية الفلسطينية، وأخفت الرمز المؤرخ له، والذي أسس للمحاججة لفحص هذه التساؤلات.

1.6 منهجية البحث:

يستخدم البحث مجموعة من التقنيات البحثية الخاصة بالبحث الكيفي، والتي طبقت على عينة من ثلاث تجمعات حضرية وهي:

*المقاطعات التي أعيد اعمارها في الضفة الغربية "النموذج الأمني لمقاطعات (طولكرم، نابلس، جنين، رام الله)

*البلدات القديمة في نابلس وفي رام الله

*مخيم جنين

تقوم منهجية البحث بشكل أساسي على المقابلات باعتبارها الأداة الأكثر جمعاً للبيانات لهدف هذا البحث. وذلك لأن المقابلات في الدراسات الميدانية تتميز بحصول عملية الاتصال، والتفاعل الإنساني ما بين الباحث والحقل الاجتماعي الذي يبحث فيه، والتي تتيح للباحث من خلالها، الاطلاع على واقع المبحوث والاطلاع على مجموعة العوامل والقوى التي تؤثر به[1]، مع وجود الوعي لتجنب حصول أي علاقة انعكاسية[2] بين الباحث وبين المبحوث، لكي لا تتأثر البيانات التي تم جمعها للبحث. وفي هذا البحث تم استخدام نوعين من أنواع المقابلة:

---

[1]- عماد، عبد الغني، منهجية البحث في علم الاجتماع، الاشكاليات، التقنيات، المقاربات، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2007، ص 72-73.

[2]- راجع عن مفهوم الانعكاسية: بورديو، بيير، بؤس العالم، دار كنعان، دمشق، 2001، الجزء3، ص 363-392. حيث يقول بورديو:" وحدها الانعاكسية وهي مرادف للمنهج، لكنها " انعكاسية رد الفعل"، مبنية على "مهنة"، أو "عين" اجتماعية، وحدها تسمح بالملاحظة الفورية وبالتحكم بتأثيرات البنية الاجتماعية التي تجري ضمنها، وذلك من خلال مسار المقابلة. كيف يدّعي المرء بأنه يقوم بالتعرف على المسلّمات دون أن يعمل على التعرف على مسلماته الخاصة؟ وخاصةً دون أن يبذل جهداً كي يستخدم مكتسبات علم الاجتماع بشكل انعكاسي من أجل التحكم بتأثيرات الاستقصاء ذاته ولينهمك في المقابلة متحكماً بتأثيرات الاستجواب التي لا يمكن تجنبها. ان الحلم الايجابي ببراءة معرفية تامة يخفي بالفعل أنّ الفارق ليس بين العلم الذي يبني وذلك الذي لا يبني، بل بين ذلك الذي يفعل ذلك دون أن يدري وذلك الذي يدري".

النوع الأول وهو، المقابلات المعمقة شبه المنمطة؛ والتي تهدف لاستقصاء معلوماتي مشبع لأهداف البحث، وتساؤلاته. وتم إجراؤها مع عينة قصدية على مجموعة مبحوثين من ذوي الاختصاص، والعلاقة المباشرة بالمؤسسات المراد دراستها، وسيتم تحديد ارتباط تخصصهم بأهداف البحث كالتالي:

* ذوي الاختصاص بالعمارة، من المهندسين المعماريين الذين يعملون في مكاتب هندسية فلسطينية، أو في مؤسسات أكاديمية كجامعة بيرزيت.

* بعض مسؤولي المؤسسات الرسمية التي يتم البحث عنها، كالمقاطعات، ورؤساء البلديات، ومديرية الأشغال"السلطة الفلسطينية".

*ذوي الاختصاص بعملية الترميم للأماكن التاريخية، التي تحاول الحفاظ على ذاكرة المكان، وأثره فلسطينياً كمؤسسة رواق لترميم العمار.

* الجهات المسؤولة عن الإشراف على إعادة الاعمار كمؤسسة "بكدار"، ومكاتب التصميم المعماري كمكتب "نينو للاستشارات الهندسية".

تكمن أهمية المقابلة وفقاً لأهداف البحث، في كونها محاولة لفهم السياسات المتبعة في تحديد المخططات الهندسة المعمارية، عند تقرير البدء بعملية إعادة الاعمار للعمار الفلسطيني الذي تعرض للقصف في الحرب الإسرائيلية أثناء الانتفاضة الثانية وحتى الوقت الراهن.كما تحاول فهم دلالات المكان الفلسطيني بتغيراته بعد إعادة الاعمار عند الفلسطينيين. وبالتالي ستفحص المقابلة المعمقة جزأين؛ الأول دور المؤسسات المنتجة والتي ترسم هندسة الفضاء العام البصري من خلال تشكيل العمار الجديد. ومنها المؤسسات الرسمية التي تعرضت لإعادة الاعمار، ودور المؤسسات التي قامت بالتمويل في خضم سياسات اقتصادية ليبرالية جديدة. وذلك من خلال إجراء المقابلات مع رؤساء البلديات في نابلس ورام الله، والمهندسين المعماريين المصممين والمشرفين، لنموذج إعادة اعمار المقاطعات في الضفة الغربية تحديداً في المدن (طولكرم،

نابلس، رام الله، جنين)، وإعادة اعمار البلدات القديمة (كنابلس، ورام الله). وستكون هناك مقابلات مع المؤسسات غير الرسمية، وخاصةً مع بعض مسئولي وكالة الغوث للاجئين، والمهندسين التابعين لهم، لتوضيح ما كان لها من دور في الهندسة المعمارية داخل مخيم جنين في الانتفاضة الثانية. ومؤسسات المجتمع المدني الأخرى لفحص خطاب اللاعنف الذي يتم إسقاطه على العمار.

أما الجزء الثاني هو الذي سيوضحه النوع الثاني من المقابلات، وهو عبارة عن مقابلات غير معمقة تسأل عن أثر ومضمون الموت الذي رسم على العمار لفهم عملية استقبال الفاعلين الاجتماعيين للصور البصرية داخل معمارية الفضاء العام الفلسطيني ويقع هذا فيما يسمى بسوسيولوجيا التلقي.

التقنية الثانية في هذا البحث، هي تحليل الخطاب المنقول في صور لمعماريات (المقاطعات، و المخيمات، والبلدات القديمة)، تكمن الفكرة الأساسية في تحليل الخطاب هذا كون هدفه استنطاق الماقبل في مستوى وجوده، وفي مستوى الوظيفة المنطوقية الممارسة عليه، والتشكيلة الخطابية التي ينتسب إليها، ولا يأتي الخطاب هنا باقتصاره على أن يكون حاملاً لبنية أو دلالة أو مضمون؛ وإنما كحدث مادي له وظائف معينة في حقبة تاريخية معينة[3]. فالصور المستخدمة صنفت المكان تبعاً نوعين: النوع الأول، هو الصور التي تم تجميعها من مصادر وثقت، وأرشفت حدث ألم العمار المهدم قبل إعادة اعماره، وجمعت من قبل مصورين فلسطينيين وثقوا لحظات الهدم والحرب أثناء الانتفاضة الثانية وهم "عباس موميني، عبد الرحمن قوصيني، جمال العاروري". أما النوع الثاني فهو الصور التي قامت الباحثة بالتقاطها للمقاطعات والمخيمات والبلدات القديمة، بعد إعادة الاعمار على مدى عام ونصف من 2013-2015. وبالتالي سيتم إجراء تحليل الخطاب بصورة تحليلية مقارنة لما ظهر في صور النوع الأول، والنوع الثاني، ودلالات ما تنقل الصورة القديمة من عملية الموت الموجه ضد الفلسطيني من خلال العمار، والصورة الجديدة التي تواري الموت بهندسة جديدة للفضاءات العامة

[3]- الزواوي بغورة، منهج في تحليل الخطاب، ص 108.

الفلسطينية من خلال العمار المعاد اعماره. ومن خلال كل ذلك تم تفكيك مفاهيم وممارسات استعمارية تدخل ضمن إنتاج العمارة فلسطينياً، ضمن تتبع دلالات الموت ومواراته فيه سوسيولوجياً وسيميائياً.

وعليه تأتي المقابلات، وتحليل الخطاب، لتأطير التقنية الثالثة وهي "المعاينات والمشاهدات" للهندسة المعمارية للعمار المعاد اعماره بعد الانتفاضة الثانية، والذي هدم بفعل الحرب الإسرائيلية داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، والتي تبعت لمواراة الموت داخل العمار الجديد واقعاً ووعياً بدلالات وإيحاءات المعاني التي يتم توليدها فلسطينياً. كذلك تعد الملاحظة والمشاهدة من الأدوات المهمة في البحث العلمي، فالمشاهدة هي الوقوف عن كثب على الشيء المراد رؤيته لأنها مقتصرة على العين في مشاهدة الأشكال والأفعال، وتمكن الباحث من الوصف لما يشاهده. والملاحظة هي الربط بين المشاهد والمسموع[4]. ويصاحب هذه المصادر المجمعة للمعلومات، عملية من الاستقصاء المعرفي للدراسات والنظريات المحللة، والمقارنة لتفكيك المقابلات، والمعاينات.

1.7 الإطار الزماني والمكاني للدراسة:

يقوم هذا البحث بتتبع الظاهرة زمنياً على مدى أكثر من عقد ونصف في التاريخ الفلسطيني المعاصر، من بداية الانتفاضة الثانية التي اندلعت في عام 2000م، وحتى اليوم الحاضر من عام 2015م. فهذه الفترة الزمنية، هي الفترة التي تؤمن للبحث تتبع المعركة التي وُجهت نحو الفلسطينيين ومكان عيشهم وبما فيه من تشكلات كالمشهد المعماري. ومن ثم تتبع بدايات إعادة الاعمار، ومواراة الموت عن أثر المعركة السابقة وعن المكان/الزمان الفلسطيني، انطلاقاً من إعادة اعمار مخيم جنين في عام 2004، إلى مشروع إعادة اعمار المقاطعات الذي بدأ العمل فيه من عام 2007 وما زال مستمراً حتى اليوم من عام 2015.

[4]- عماد، عبد الغني، مرجع سابق، ص 67.

أما مكانياً فالظاهرة تدرس ما حدث داخل حدود الضفة الغربية على كل من البلدات القديمة، ومخيمات اللاجئين، والمقاطعات التابعة للسلطة الفلسطينية. وأخذت عينة من المخيمات مخيم واحد وهو(مخيم جنين)، أما المقاطعات فأخذت مقاطعات (جنين، وطولكرم، ونابلس، ورام الله)، مع التنويه إلى أن جميع المقاطعات لها نفس التصميم الهندسي ما عدا مقاطعة رام الله والتي تعد "مقراً للرئاسة". أما البلدات القديمة فأخذت بلدة نابلس القديمة، وبلدة رام الله القديمة المعروفة ب"رام الله التحتا".

1.8 أسئلة البحث:

هل أخذت الهندسة المعمارية للعمار الفلسطيني الجديد ثقافة جديدة تواري الموت في الذاكرة الفلسطينية، وتعيد إنتاج الهيمنة الاستعمارية بالشكل الهندسي الجديد داخل الفضاء المستعمَر؟

هل أصبحت عمليات إعادة اعمار معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني جزءاً من عدم التسجيل التاريخي القصدي لقصة الحرب مع الاستعمار في "الوعي الفلسطيني"؟

هل تمثلت عمليات إعادة اعمار العمار المهدم في الانتفاضة استمراراً لممارسات المؤسسة الرسمية الفلسطينية وخطابها الدولاتي بعد أوسلو والتي أخفت الممارسات الاستعمارية في "الوعي" و"اللاوعي" الفلسطيني؟

هل كانت عملية إعادة الاعمار تنطوي في تمويلاتها على دعم مالي مصحوب بأجندة الممولين التي ساهمت في إعادة إنتاج الهيمنة الاستعمارية داخل الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني واليات استبطانها؟

هل يتم تأريخ حرب المعمار الفلسطيني مع الاستعمار الإسرائيلي في الهندسة المعمارية الجديدة؟

هل يطغى الخطاب "اللاعنفي السلمي" على معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، كجزء من سلطة خطاب اللاعنف السياسي الذي تعيد إنتاجه مؤسسات "المجتمع المدني" في فلسطين في طمس العمار المهدم تحت رمادية الاسمنت الجديد المواري للموت؟

1.9 فرضيات البحث:

تشكلت في المعمارية الفلسطينية ثقافة جديدة تقصي الموت وتواريه عنه في الذاكرة الفلسطينية، وتعيد إنتاج الهيمنة الاستعمارية على الذات المستعمَرة.

تمثل إعادة اعمار معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني جزءاً من عدم التسجيل التاريخي لقصة الحرب مع المستعمر الإسرائيلي في الوعي الفلسطيني.

تتبع عمليات إعادة اعمار العمار المهدم في الانتفاضة استمراراً لممارسات المؤسسة الرسمية وخطابها الدولاتي بعد أوسلو والتي أخفت الممارسات الاستعمارية في الوعي واللاوعي الفلسطيني.

تنطوي عملية إعادة الاعمار في تمويلاتها على دعم مالي مصحوب بأجندة الممولين في إعادة إنتاج الهيمنة الاستعمارية.

تختفي النصب التذكارية والرموز والصور التي تؤرخ حرب المعمار الفلسطيني مع الاستعمار في الهندسة المعمارية الجديدة، وتبقى مقتصرة على شخوص الأفراد ذات الطابع الحزبي أو جداريات ورموز سلمية.

يطغى الخطاب اللاعنفي السلمي على معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني كجزء من سلطة خطاب اللاعنف السياسي الذي تعيد إنتاجه مؤسسات المجتمع المدني في فلسطين في طمس العمار المهدم تحت رمادية الاسمنت الجديد المواري للموت.

1.10عينة البحث

تمثل مجموع المقابلات في البحث ب خمس وثلاثين مقابلة. إحدى عشر مقابلة من العينة هي لذوي العلاقة والاختصاص بإنتاج العمارة بمختلف المؤسسات المتداخلة في الموضوع، وكانت عينة قصدية تخدم أهداف البحث.

أما باقي المقابلات فكانت لمستقبلي العمارة الجديدة بعد إعادة الاعمار، وكانت عينة عشوائية بسيطة، خلال مرور الباحثة في إطار معاينة الأماكن الحضرية التي تم البحث عنها.

1.11 الصعوبات:

بدأت الصعوبات تظهر في هذا البحث من اللحظة الأولى التي قررت بها الباحثة أن تجري مقابلات استطلاعية أولية للبحث، فكانت الإشكالية تكمن بأن قسماً كبيراً من الرسالة يتحرى جمع البيانات من مؤسسات رسمية، تستدعي وقتاً زمنياً طويلاً ضمن المنظومة البيروقراطية التي تحاول مؤسسات "الدولة" الفلسطينية الجديدة تبنيها ضمن هيكلة تُرسخ الخطاب الدولاتي. بالتالي أخذ جمع البيانات من الميدان وقتاً طويلاً. وعلى الرغم من عملية مماشاة هذه البيروقراطية، ومدة الانتظار الطويلة، إلا أن أغلب المحاولات في تحديد موعد للمقابلة كان يتعرض للمماطلة ثم الرفض بإجرائها في النهاية، بالطبع لم يكن الرفض بصورة واضحة ومباشرة، وإنما كان يتم بأسلوب يعكس انشغال تلك المؤسسات بالقضايا العامة التي تعتبر أهم من باحثة اجتماعية، تحاول جمع بياناتٍ لبحثها، أو بحجة "السؤال" عني لأني أطلب الدخول لتصوير مؤسسة أمنية.

قد يكون ما سبق عبارة عن صعوبات عامة يواجهها أي باحث اجتماعي، ولكن ما كان يسهل أحياناً الدخول إلي مؤسسة ما، وإجراء أي مقابلة، هو منظومة العلاقات الاجتماعية الخاصة بالباحثة، أما عائلية أو عن طريق الأصدقاء. ولكن لم ينفع ذلك لأخذ "تنسيق" لدخول مقاطعة رام الله الجديدة، ولا يعني ذلك بالطبع بأن دخول المقاطعات الأخرى

"جنين، وطولكرم، ونابلس" حدث بسهولة. ولكن المقاطعات الأخرى حصل على "تنسيق" دخولها من وزارة الداخلية الفلسطينية بعد ست شهور من طلبها. أما مقاطعة رام الله فيستوجب دخول أي شخص لها، "تنسيقاً" من حرس الرئاسة، بحيث تكون المقاطعة في رام الله، بكونها "مقراً للرئاسة" مفصولة بالتخصص الوظائفي والمهني، عن وزارة الداخلية الفلسطينية. ومع استحالة دخول المقاطعة في رام الله للحصول على صور إعادة الاعمار، لجأت الباحثة، إلى مواقع الانترنت لعل احد المصورين التقط صورةً لمقاطعة رام الله، بعد عملية إعادة اعمارها، ولكن ما قد يفاجىء البعض، أن ولا صورة واحدة لمقاطعة رام الله الجديدة من الداخل قد تم تحميلها على الانترنت، طبعاً هذا كله يتماشى مع الممارسات الدولاتية التي تأسس لها السلطة داخل مؤسساتها الجديدة في خطاب تحقيق"الدولة الفلسطينية"، وجزء من نظام المراقبة والضبط الذي يعكس أسوارها العالية، والتي لا تسمح للفرد الفلسطيني برؤية ما بداخلها.

أضيف لذلك صعوبات أخرى تتمثل في أن تحديد المقابلات حتى في المكاتب الهندسية، أو البلديات، أو حتى بعض المصورين، أخذت صورة المماطلة ذاتها والتي تقتل النفس الباحثة، فيأخذ البعض بالتملص، لكون المقابلة تعطيلاً لأعمالهم، أو أنهم ملوا من كم الباحثين الساعين للحصول على إجابات. قد يشير ذلك إلى عدم تكوين وعي كافي عن أهمية المساعدة في تكوين المعرفة العلمية عند الطلاب، و"الطلاب" تحديداً، لأن الباحثين الاجتماعيين المنتمين إلى مؤسسات بحثية، أو مراكز تهتم بجمع المعلومات ذوي الألقاب الوظيفية، قد تأمن لهم سهولة اكبر في جمع معلوماتهم، من رأس مالهم الاجتماعي والمعرفي المتراكم.

بالإضافة لما سبق ظهرت صعوبات أخرى عند مقابلة المبحوثين المتلقين للصورة البصرية، وأقصد بذلك الفاعلين الفلسطينيين الذين يتقاطعون مع بصري المعمار في فضائهم، والذين كانوا يشعرون بالقلق لحظة سؤالهم عن المقاطعات، فالبعض امتنع عن ذكر اسمه، والبعض رفض أن يتم تسجيل صوته حتى مع عدم ذكر اسمه، والبعض الآخر كان يسأل عما إذا كانت الباحثة قد أخذت "التنسيق" من السلطة لإجراء البحث. يأتي ذلك من مقدار الملاحقات الأمنية التي يتعرض

أو يسمع عنها الفلسطينيين عند الحديث عن المؤسسات الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية. ومن ذلك أن وزارة الداخلية طلبت نسخة من هذا البحث بعد إتمامه، للتأكد من المعلومات التي ستعرض عن المقاطعات.

ومن الصعوبات التي واجهتها الباحثة الاجتماعية، أو قد لا تكون صعوبة بمقدار ما هي إحدى المعضلات الاجتماعية التي تتعرض لها النساء بشكل عام من محاولات الاستمالة لكونها امرأة لحدود قد تصل للتحرش، وهي إحدى الصعوبات التي يتم إغفالها لعدم التخويف من مهنة الباحثة الاجتماعية في مجتمع ذي ثقافة وهيمنة ذكورية. مع عدم الإنكار بأن كونها امرأة كان أحد بدايات تسهيل الحصول على المقابلات عند بعض المبحوثين في بعض الحالات. ويجب التنويه إلى أن الباحثة هنا تتحدث عن بعض المقابلات وليس جميعها، وأن الحديث عن ذلك هو جزء من موضوعية كتابة الصعوبات، كون الوعي لا ينفصل خلال التجربة، بالرغم من الصعوبات المنتظرة بعد البوح عن ذلك. وذكر ذلك لا يفترض بأن الباحثة توليه أهمية عظمى أو تعيد رسم صورة المرأة "الضحية"، وإنما هذا يمثل جزء كبير من المشاعر التي لاحقت عملية جمع البيانات، كبقية الصعوبات الأخرى.

في نهاية الأمر يبقى البحث الميداني مليء بالتجارب والقصص التي يتم رفض نشرها، والتي كان من الممكن أن تكون إضافة أكبر لهدف البحث، ولكن المواقع الوظيفية لبعض المبحوثين أوجبت أن يطلبوا ذلك من الباحثة، وبالتأكيد فان الجزء المتعلق بمصداقية الباحثة والأمانة الأكاديمية للبحث، تستوجب بحفظ مطلب المبحوث، ومجاراة كل أمر لا يضر بأحد مبحوثي هذا البحث.

1.12 تنافذ نظري على الظاهرة

مقاطعة نابلس القديمة التي تم قصفها في 2003[5]



مقاطعة نابلس الجديدة بعد إعادة الاعمار 2014[6]



[5]- تصوير المصور عبد الرحمن عمر القوصيني، مصور فلسطيني يسكن مدينة نابلس، وأخذت الصور من تلفزيزن معاً، حقوق الطبع محفوظة للمصور.

[6]- تصوير الباحثة، في شهر نيسان من عام 2014

***الذاكرة والتذكير بالذكرى فلسطينياً:**

قبل طرح الفلسفات التأملية والاجتماعية حول الذاكرة، علينا أن نعود لأصولها اللغوية عربياً، والتي تقدم لنا المعاني الأولى، وتصف المراحل الأولى للتأويلات. فالذاكرة هنا تُشكل نواة البحث ويدور حولها الشكل المعماري في محيط الفضاء العام وتمثلاته الاجتماعية، التي تنقلنا نحو التشكيل الهوياتي المعاصر للقضايا الراهنة في المجتمع الفلسطيني. وهذا يعني أن التدرج في طرح المعاني لغوياً واجتماعياً سيصل بنا إلى تحقيق غاية أساسية؛ وهي توضيح ارتباط عنوانين البحث، والإجابة عن أسئلته المختلفة.

معنى ذكر في لسان العرب الذِّكْرُ الحِفْظُ للشيء تَذْكُرُه والذِّكْرُ أَيضاً الشيء يجري على اللسان والذِّكْرُ جَرْيُ الشيء على لسانك وقد تقدم أَن الذِّكْرَ لغة في الذكر ذَكَرَهُ يَذْكُرُه ذِكْراً وذُكْراً، حكى أَبو عبيد عن أَبي زيد فقال أَرْتَمْتُ إِذا ربطتَ في إِصبعه خيطاً يَسْتَذْكِرُ به حاجتَه وأَذْكَرَه إِياه ذَكَّرَهُ والاسم الذِّكْرَى الفراء يكون الذِّكْرَى بمعنى الذِّكْرِ ويكون بمعنى التَّذَكُّرِ، والذِّكْرُ والذِّكْرى بالكسر نقيض النسيان. ما جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة؛ قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب، والمعلومات السابقة في الذِّهن واستعادتها "لديه ذاكرة حادّة– بقي في ذاكِرة الناس" إن لم تخُنِّي الذَّاكرةُ: إذا لم أنسَ– خلل في الذَّاكرة/ قُصور في الذَّاكرة: ضعف ونقص فيها– ذاكِرة بصريّة: قوّة عقليَّة، يحفظ بها الإنسانُ في ذهنه كلّ ما يُبصِر– ذاكِرة حافِظة: قدرة على استبقاء الأشياء في الذِّهن– مطبوعٌ في الذَّاكرة: لا يمكن نسيانُه. معنى ذَكَرَ في <u>المعجم الوسيط</u> الشيءَ ُ ذِكْراً، وذُكْراً، وذِكْرَى، وتَذكاراً: حَفِظَه. و . استحضره. و . جَرَى على لسانه بعد نسيانه [7].

يتضح هنا أن جميع الدلالات اللغوية للكلمة وأصلها تشير إلى حدث زمني تتم إعادة استحضاره، وتكراره. ولكنه يرتبط في أغلب الأحيان في محفزات تذكيرية تقوم بإعادة إنتاج الحدث، أو الشيء، أو حتى الإنسان الاجتماعي؛ الذي غاب في اللحظة الزمنية والمكانية الواقعة. بالتالي فان الذكرى تتشكل عند الوعي بأنها فعلاً موجودة. وتحدث عند التفاعل بالمحيط

[7] -عن معجم لسان العرب من موقع: http://www.maajim.com/dictionary ، تمت زيارة الموقع بتاريخ 20-9-2014.

الاجتماعي. فهي ليست تمثيلاً للغياب، وإنما هي تمثيل لمعنى الحاضر في الاستحضار. وهنا تزيل عنها صفة الانفصال الفرداني عن المحيط الاجتماعي. فهي حتى وان كانت فردانية دون مشاركتها مع الآخرين، فهي محَفزة من قبل الفعل الاجتماعي بالمستوى الكبير.

في المجال المعرفي تمت فلسفة الذاكرة بصور مختلفة من أفلاطون، وأرسطو في محاولات الفصل والتمييز بين الذاكرة والتذكر، وصولاً إلى معاصري الفلسفة وعلم الاجتماع، ومع هذا الاختلاف من فردانية الذاكرة إلى جمعيتها، فان ما يتقاطع مع البحث هو؛ التفسير الذي يرى أن للذاكرة مضمون اجتماعي وإطار اجتماعي؛ وفي السياق الاجتماعي أو السياسي- الاجتماعي تتفرد الذاكرة الفردية[8]. فان استناد الأفراد في تحديدهم للماضي يعود إلى الإطارات المرجعية الاجتماعية، بحيث يجعل ذكرياتهم ذات طابع مرجعي- جمعي. بالتالي لم تعد الذكريات الفردية إذن متمركزة ومنحصرة في داخل الفرد، بل أضحت تملك مكاناً ضمن المنظومة الاجتماعية كنتيجة لتفاعل هذا الفرد مع محيطه الاجتماعي. وعن طريق الحوار مع الآخرين، يتسنى للمرء أن يتذكر محطات وتجارب هامة في حياته.

يطرح موريس هالبواكس(**MauriceHalbwachs**) بأن الهوية المافوق فردية تتشكل عند الاستدعاء المشترك لماضي المجموعة الاجتماعية[9]، وهي اللحظة الموضوعانية للذاكرة[10].أما بشارة فيرى أن الذاكرة الاجتماعية لا تقتصر على مجرد التدليل لسياق اجتماعي للذاكرة، وإنما تدل على ذاكرة الجماعة[11]. والأبرز بين هذه الذكريات هو الذكريات المتعلقة بأماكن الزيارات المشتركة. ويوضحها هالبواكس بأنها الأماكن التي تتيح لنا الفرصة الممتازة لأن نضع أنفسنا ذهنياً ضمن

---

[8] - بشارة، عزمي، في الذاكرة والتاريخ، الكرمل، عدد50، 1997، ص 45.
[9] - سوكاح،زهير، مفهوم الذاكرة الجمعية عند موريس هالبواكس،الحوار المتمدن، عدد 1755،2006.
http://www.ahewar.org/، تمت زيارة الموقع بتاريخ 5-4-2013.
[10]-ريكور، بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع، 2009، ص23.
[11]- بشارة، عزمي، مرجع سابق، ص 45.

مجموعة معينة أو مجموعة أخرى. ثم نمر تدريجياً من دور شهادة الآخرين في استذكار الذكرى إلى شهادة الذكريات التي نملكها بوصفنا أعضاء مجموعة ما[12].

وهنا تتجلى بوضوح وظيفة الذاكرة الجمعية كما يراها هالبواكس، ألا وهي تأسيس "هوية" المجتمع وضمان سيرورتها[13]. فالذاكرة تنشأ عند الإنسان مع بداية عملية انخراطه في المجتمع وتموضعه فيه. صحيح أن الجماعات في حد ذاتها ليست لها ذاكرة، إلا أنها تحدد ذاكرة الأفراد التي يعيشون فيها. فالذكريات تنشأ عن طريق الاتصال والتفاعل في إطار المجموعات الاجتماعية. نحن نعايش الأشياء بالنظر إلى الآخرين قبل كل شيء وبالتقابل معهم، نعايشها في سياق أطر اجتماعية أخرى معطاة و موجودة سلفاً تحدد لنا أهمية الأشياء ومغزاها؛ لأنه وبحسب هالبواكس– لا توجد ذكرى بدون إدراك حسي[14]. ينتقل لنا الإدراك الحسي في الوعي عبر الشكل الاجتماعي ليخلق منظومة من استحضارات قضية كبرى من صور المحيط الاجتماعي البصري. ويشكل الهوية الفردية ضمن الاحتواء الاجتماعي، الذي يخلق خاصية جمعية تحافظ على التفرد والتميز داخل الوعي الجمعي. والأشكال المادية تؤثر على الاستعدادات لدى الناس. ولكن إلى أي مدى يمكنهم تغيير هذه الأشكال ذاتها؟ فالجماعات تتحرك في الزمان، ولا وجود لها إلا أنها ومع ذلك تدوم وتستمر. وتؤدي آليات داخلية إلى تغيير أبعادها، أو تبقيها كما هي. وأما القوانين التي تحكم تجديد الأجيال، فإنها تقوم بتأثير حاسم على حياتهم ومستقبلهم[15].

أما ايان اسمن(**Ausmin-**) فيذهب باحثاً بين المدلولات والعلاقات للزمان والمكان الاجتماعي الذي يخلق معنى الذاكرة. ويميز بذلك بين "ثقافة التذكر"، و"فن الذاكرة"، داخل بناء الحضارة. وهذا الخط المرسوم بين كل من المكان والزمان، وبين الاتصال الجماعي والاجتماعي الذي يؤدي إلى خلق المفهومين السابقين. ما يمثله المكان بالنسبة "لفن الذاكرة" يمثله

---

[12]- ريكور، بول، مرجع سابق، ص 191.

[13]- سوكاح، زهير، مرجع سابق.

[14]- اسمن، ايان، الذاكرة الحضارية، الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الاولى، تر عبد الحليم رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص 63.

[15]- هالبواك، موريس، المورفولوجيا الاجتماعية، تر. حسين حيدر، منشورات عويدات، باريس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص15.

الزمان بالنسبة" لثقافة التذكر" بل ربما يجوز لنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول أن "فن الذاكرة" تبع مجال التعليم (بمعنى أن هناك شيئاً يمكن تعلمه بمساعدة هذا الفن)، فان "ثقافة التذكر" تختص بمجال التخطيط و"بعث الأمل" بمعنى أنها موجهة إلى المستقبل وتخطيطه انطلاقاً من تذكر الماضي. "فثقافة التذكر" تختص ببناء آفاق المعاني وآفاق الزمن الاجتماعية، أي بالنسبة للجماعة، وتعتمد "ثقافة التذكر" إلى درجة كبيرة– وان كان ليس اعتماداً كلياً– على صور الاتصال بالماضي. غير أن الماضي ليس موجوداً بذاته، وإنما ينشأ أساساً في اللحظة التي ينسب الإنسان نفسه فيها إليه، ويتصل فيها معه. ومثل هذه الجملة قد تثير بدايةً الاستغراب. فما من شيء في الوجود قد يبدو أكثر طبيعة مثل نشأة الماضي: فالماضي ينشأ ببساطة عن طريق أن الوقت يمضي؛ ولهذا يحدث مثلاً أن اليوم يصير في الغد ماضياً، يصبح جزءاً من الماضي؛ فاليوم يصبح عندئذ "أمس"، وهكذا ينشأ الماضي على نحو ما يبدو لنا. بيد أن المجتمعات تتصرف حيال هذا الأمر الطبيعي بطريقة مختلفة تماماً. فهناك مجتمعات تعيش ليومها فقط، وتترك اليوم بعد ذلك يقع في براثن الماضي بلا أي أسف[16]. في هذا البحث سيتم دراسة كلا المفهومين"فن التذكر" و"ثقافة التذكر"؛ من خلال التدخل الممأسس للماضي في الصورة المنتقلة للعمار داخل الفضاء الاجتماعي للفلسطينيين، ودراسة ما إذا كان الماضي قد ترك لبراثن الماضي داخل هذا الفضاء، أم يشكل وعي الهوية للجمعي الوطني.

يبدو أن ما يتكون لدينا في مختلف التفسيرات السابقة للذاكرة بأنها منظومة من المفاهيم والمعاني المتكونة بترابط خيوط الزمان والمكان. وتموضع الجسد الاجتماعي في المشهد الكامل، الذي يتخلص من ماضيته في الاستحضار الاجتماعي، من خلال إعادة إنتاج الصورة وربطها في واقع التغير الجديد. ومما سبق يجب الإشارة إلى أن ما يعنينا في هذا البحث؛ هو أهمية الذاكرة الجمعية وتشكيلات الوعي الخاصة بها داخل الجماعة الفلسطينية والإطار الاجتماعي الفلسطيني، الذي يخضع لتهديد الحدث بإطاره الزمكاني والتاريخي، المشكل لهوية المشروع التحرري" لا نملك مورداً آخر فيما يخص الإحالة

---

[16]- اسمن، يان، مرجع سابق، ص 55.

إلى الماضي سوى الذاكرة عينها"[17]. لتصبح الإضاءة على العمار وإعادة الاعمار هي أداة تمثيلية للماضي الفلسطيني في معركته ضد الاستعمار داخل الفضاء العام.

إن جعل الذاكرة مرتبطة بالسياق الاجتماعي يقوم على أنها تَتأثر وتُأثر؛ فالارتباط هنا تبادلي. ويكمن بالتحديد في آلية إنتاج وإعادة إنتاج الحدث ذاكراتياً، وتحريك الواقع من خلاله. فالذاكرة ليست بالجمود الصارخ الذي حظي به التاريخ، وإنما هي تتحرك نحو خلق صورة وشعور عند المواجهة في الفضاء العام. في جدلية الزمن لباشلار يقوم بالتأكيد على أن الزمان المعقول يكون زماناً معاشاً في حالة النشوء، أو بكلام آخر نؤكد أن الفكر يكون على الدوام ومن بعض الجوانب، محاولة أو مشروع حياة جديدة،محاولة للعيش في شكل آخر، للعيش الإضافي. أو حتى كما أراد صموئيل، إرادة تخطي الحياة، إن التفكير في الزمان معناه تأطير الحياة، وهذا لا يعني استخلاص مظهر خاص من الحياة ندركه بوضوح أكبر إذا عشناه عيشة أعمق. وهذا يحتم تقريباً القول باقتراح العيش بشكل آخر، وبتصحيح الحياة أولاً، وإغنائها ثانياً. عندئذ يكون النقد معرفة ويكون النقد واقعاً[18].

يصف حسين البرغوثي في هذا السياق الزمن وارتباطه بالذاكرة فلسطينياً في روايته الضوء الأزرق بأن "الدقة ليست هي الحقيقة، وأنا أقول: لا تطلبوا مني لا "الدقة، ولا تذكر "الزمن" هنا، فالزمن لكل من يمتلك "معرفة مرتبة"، متى حدث هذا الحدث أو ذاك؟، لا أدري، أعني عندما أتأمل ذاكرتي بأن الأشياء تحدث بعد بعضها، في تسلسل زمني ما؛ ولكن هذا التسلسل "ملفٌ" محفوظ في الذاكرة، لكن القلب له ترتيب آخر، ما حدث قبل عشرين سنة أحياناً يبدو وكأنه حدث بالأمس، وما حدث قبل سنتين يبدو وكأنه حدث قبل عشرين سنة، وهكذا وهكذا، فالقلب يرتب أثاثه حسب مدى أهمية أي حدث بالنسبة إليه، ضارباً بعرض الحائط كل نظام "الزمن السائد" أو الذي يجب أن يسود"[19]. إن ما يطرحه البرغوثي هنا يختلف عندما يشير إلى أن الزمن هو علاقة الفرد مع الحدث المأثر وليس مع الترتيب الزمني المأرخ، ولكنه لا

---

[17]- ريكور، بول، مرجع سابق، ص 55.
[18]-باشلار، غاستون، جدلية الزمن، تر خليل خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2010، ص 98.
[19]- البرغوثي، حسين، الضوء الأزرق، الرعاة للدراسات والنشر، رام الله، 2007، ص 175.

يشبع الفلسطيني بتفسيرات هذا الترتيب الزمني، أو التداخل الذي يحدث على الفرد لتوضيح آلية هذا الترتيب. ولكن تكمن أهمية البحث في توضيح رسم ملفات الذاكرة وأهميتها عند الفلسطيني داخل سياسات الزمن السائد في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، أو بكيفية صنع ترتيب معين للزمن وتذكره بعيداً عن قوة الفعل عند الفلسطينيين.

وبعد استقدام الذاكرة وسياقها النظري والاجتماعي فلسفةً وتأويلاً، سيطرح الجزء القادم، ارتباط الذاكرة الفلسطينية في العمارة داخل تلازم الزمان/المكان وتشكلات العمارة فيهما داخل التغيرات التي تحصل على المعنى في الفضاء العام.

***العمارة الزمكانية: تمثلات الذاكرة الجمعية في العمارة الفلسطينية:**

الذاكرة تحتاج الأماكن، وتميل إلى الارتباطات المكانية إلى "أمكنة المعلومات" وتموضعها في المكان[20]. الفعل الماضي يشير إلى الزمن، في حين يدل ظرف المكان هناك على الفضاء. ألهُنا والهُناك للفضاء المعاش وكلمة سابقاً بالزمان المعاش للذاكرة؛ كلها تجد نفسها مترابطة و متداخلة في نسق من الأماكن والتواريخ ولم يتبقَ هنا والآن في التجربة الحية المطلقة[21]. في الواقع من أجل أن نعطي زمن التاريخ مقابلاً فضائياً جديراً بعلم إنساني، علينا أن نعقلن الموضع، وننطلق من الفضاء الذي تشيده الهندسة المعمارية لبلوغ الأرض المأهولة الخاصة بالجغرافيا. ونجد أن خطاب الفضاء قد رسم هو كذلك مساراً أصبح معه الفضاء المعاش وقد ألغاه الفضاء الهندسي ثم أعاد بناءه من جديد على المستوى الهندسي الضخم الخاص بالأرض المسكونة. ويتقابل الفضاء المعاش والفضاء الهندسي، والفضاء المأهول مع الزمان المعاش، والزمان الكوني، والزمان التاريخي. تقابل اللحظة النقدية لتحديد المكان في نظام الفضاء لحظة تعيين التاريخ في نظام الزمان[22]. فتبعاً للمورفولوجيا الاجتماعية يكمن تواجد الجماعات بمنطق بأنها تتحرك في المكان، ولها كيان معين، وأفراد، وجملة من العناصر التي تعتبر هي ذاتها أجساماً مترابطة[23] مكونة لمنظومة كاملة غير منقطعة. إن المجتمع ينحصر في العالم المادي، ويوجد في فكر

---

[20]- اسمن، ايان، مرجع سابق، ص68.
[21]- ريكور، بول، مرجع سابق، ص 225.
[22]- ريكور، بول، مرجع سابق، ص 228- 234.
[23]- هالبواك، موريس، مرجع سابق، ص 33.

الجماعة في الصور التي تأتيه من هذه الظروف المكانية، وهذا هو مبدأ الانتظام والاستقرار، تماماً كما يحتاج الفكر الفردي لإدراك الكيان والحيز من أجل الحفاظ على توازنه[24]. من رؤية المادي بصرياً في الفضاء، يدرس الناشف آلية توليد المعنى في التشكيلات الفلسطينية في "أن ما يحدد منطق عمل المعنى هو طبيعة ماديته الأولى، أي تلك المادة الذهنية من حيث هي لا- مادية بالمستوى الميتافيزيقي المباشر. فالذهن بما هو تشكيل اجتماعي تاريخي يعمل كوعاء/كحلبة/ كبوتقة تصهر وتعيد إنتاج توليد ما يصلها من الواقع الحسي، ولكن بصهره هذا لا يفتأ الذهن العيني ذاته يتشكل من جديد. هذا التشكيل الذهني بدوره يشير إلى ما هو خارجه، وبإشارته هذه يبني ذهنيته التي تقف هي أساس منطق عمل المعنى بما هو آلية ذهنية محددة"[25]، فمن أجل اكتمال حالة إنتاج عينية ما، تتزامن لحظة المادة المتشكلة مع لحظة المعنى في بوتقة واحدة قابلة للتداول الاجتماعي العيني[26].

هذا البحث يتجه نحو عنصر محدد من التشكيلات المادية في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، وهو تشكيل العمارة بصرياً داخل المكان، وهنا يكمن الخلاف دائماً في دراسات العمارة الكلاسيكية؛ بأن العمار يختزل من خلال الوظائفية التي يقدمها، دون الإشارة للدلالات والمعاني التي تشكل الأثر في الوعي داخل الفضاء الاجتماعي العام. يعرف ستين راسموسين العمارة بأنها فن وظيفي من نوع خاص فهي تشكل الفراغ لتسمح لنا بالإقامة فيه، وهي ترسم الأطر التي تحيط بنا أيضاً. فإن الفرق إذن بين النحت والعمارة ليس هو اضطلاع الأول بأشكال أكثر عضوية بينما الثانية أكثر تجريداً. فحتى أكثر القطع المنحوتة تجريداً والتي تقتصر على أشكال هندسية بحتة لا تكون عمارة، فهي تفتقر إلى العامل الحاسم: النفعية[27].

---

[24]- هالبواك، موريس، مرجع سابق،ص 34.

[25]- الناشف، اسماعيل، معمارية الفقدان، سؤال الثقافة الفلسطينية المعاصرة، الفارابي، بيروت، 2012، ص 19-20.

[26] الناشف، مرجع سابق، ص 21.

[27]- راسموسين، ستين، الاحساس بالعمارة، تر عماد الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993، ص 15.

"ترجع "الوظيفية" عند عامة الناس إلى فكرة تعبير الشكل عن الوظيفة العملية. وسوف نتذكر هنا المثل السائد" الشكل يتبع الوظيفة" التي صاغها سوليفان(**Sullivan**)، صانع الأسلوب الحديث، وحكمة لوكوربوزييه(**Corbusier**) التي ليست أقل شهرة" بيت= آلة للسكن". المشكلة التي لا حل لها خارج إطار الأفلاطونية الجديدة- هي في معرفة الوظيفة الكافية للسكن، ما الذي سيكونه المدلول الوظيفي الثاني للعمارة؟ أضح أننا لا نستطيع اختيار حاجات الحياة الخاصة فقط كما تقضي الاعتبارات السابقة- وإهمال الوظائف الجماعية، سوف نقترح بدون أي ادعاء بأننا نستنفذ المسألة، مدلولاًوظيفياً بمظهرين، الأول خارجي، والثاني باطني، وسرعان ما سيبدو أن هذه المفاهيم الحيادية يمكن بسهولة أن تجتاحها إسقاطات أيدلوجية عديدة"[28]. يناقش ذلك ايكو في كتابه البنية الغائبة "سيميائية العمارة"، ولكن الإشكالية تكمن في المسلمة السابقة بأن الموضوع المعماري وظيفي بصورة جوهرية. فبحسب ايكو؛ يعد معمارياً "كل مشروع يغير الواقع، على مستوى ثلاثي الأبعاد، يهدف إلى إتاحة انجاز وظائف ملحقة بالحياة الجماعية"[29].

ولكن تشكلت دراسات تخرج عن هذا الإطار، وتعتبر العمارة أحد رموز الفضاء البصري والتي تدرس سيميائياً بالدال والمدلول، كمجموعة مو التي طرحت العمارة بدلالاتها مرئية، في تكوينها لجو شعوري[30] عند المتلقي في الفضاء العام. فالمحيط المعمر لا تبلغ وظيفته البنائية في ظل تأمين ملجأ فحسب، بل تبلغ مدلولات كالمشاعر أو"الأجواء" تماماً كالموسيقى والرسم التجريدي[31].

[28]- مجموعة مو، بحث في العلامة المرئية، تر سمر سعد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012، ص 558.
[29]- مجموعة مو، مرجع سابق، ص 549.
[30]- راجع مجموعة مو، مرجع سابق، ص 567.
* للمزيد راجع مجموعة مو: جو شعوري: الشكل عمل فني صدى في ذات المتلقي الذي يدخل عالمه. ولكن هذا الصدى لا يمكن أن يوجد الا من خلال ادراك العلاقات الداخلية في هذا العمل. وهذا ما يسمى ب" المقروئية" التي تحققها الأسلبة حين تتيح للمتلقي ان يفهم تركيب الشكل وتكوينه، كزج الالوان وتوزيعها في اللوحةن وانسياب الخطوط أو انكسارها في الرسن، وتعبيرية الخطوط المحيطية للكتلة في النحت، ووظيفة الأشكال الهندسية، كالمربع والدائرة، وتداخلاتها في العمارة... الخ. ذلك ان مدلول التشكيلات المحصلة نتيجة الأسلبة يعتمد الى حد كبير على مشكاركة المشاهد في تأويل العلاقة. مما يعني أن لكل اجراء فني أو تقني في العمل العمل الفني أثر في المشاهد.
[31]- مجموعة مو، مرجع سابق، ص 550.

يرى ريكور(**Ricœur**) أن الفضاء الجسدي يرتبط مباشرةً بفضاء البيئة/المكان، ومصير المكان بمصير الزمان، وبالتالي يتشكل مكان الذاكرة[32]، فالذاكرة غالباً ما تأخذ في نشأتها شكلاً مكانياً يحتوى على كل من الفرد والمجتمع[33]، إلا أن الشكل المعماري بهندسته الجديدة داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني قدم حرماناً من الذكرى، وبقي عقبة تحول دون نبش صمت الأموات بعكس ما يطرح أندرسون[34]، وبالتالي أصبح الفاعل الفلسطيني غير قادر على تملك الذكرى وإحضار غائبيه، امتداداً إلى عدم قدرته على تملك الذات[35]. وتبدو هنا أهمية الرمز والصورة البصرية المتلقاة المسجلة للحدث، فكما يطرح بيرين على أن ترسيخ الحدث وخاصة الحرب يكمن في تحقيق المعنى من خلال الرموز المستخدمة في إعادة إنتاج الماضي، وقراءة قصة الحرب من خلال الرموز والنصب التي تجسد هوية الحدث[36].

وهذا ينسحب على الجماعات الفلسطينية والياتها في التعامل مع الحدث التاريخي الأول إذ " أن الجماعة الفلسطينية تبدل موقفها من النكبة، ذلك الفقدان الأول. فتشير الإحداث التشكيلية الثقافية المختلفة إلى أن شكل عمل الجماعة الفلسطينية هو الذي يحدد الموقف من الفقدان، وأن الفقدان في ذاته لم يعد ذلك المقدس الجمعي، بمعنى اللحظة المطلقة لنشوء هذه الجماعة على مسرح التاريخ الحديث. تكرار الفقدان بأشكال تحويرية أدى إلى بهتان حدة وكثافة "الفقدان الأول"، وذلك عبر تراكم طبقات متعددة من أحداث فقدان أخرى. تدرجت هذه العمليات من التراكم إلى أن بلغت ذروتها في تشكيل القدرة على فقد "الفقدان الأول" بسبب من "عدم" صلاحيته كآلية عمل تعبيرية في شكل الجماعة الجديدة"[37].

---

[32]- ريكور، بول، مرجع سابق، ص 225.

[33]- Svendsen .S, Living Memorials: Understanding the Social Meanings of Community-Based Memorials to September 11, 2001, SAGE Publications,2010.

[34]- أندرسون، بندكت، الجماعات المتخيلة"تأملات في أصل القومية وانتشارها"، تر ثائر ديب، شركة قدمس للتوزيع والنشر، بيروت، 2009، ص 182.

[35] -ايكور، بول، مرجع سابق، ص 33.

[36] -Perrin, Stephen, The performance of remembering Semiology of war memorials,2006

[37]- الناشف، اسماعيل، مرجع سابق، ص 381.

ومما يطرحه إسماعيل الناشف هنا عن فقدان الفقدان المتشكل عند الفلسطيني، يأتي الجزء القادم ليتتبع أحد أنواع هذا الفقدان في مواراة الموت داخل الفضاء المعماري الاجتماعي فلسطينياً.

***تغييب الموت في الصورة داخل تشكيلات الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني:**

تقوم تتبعات البحث هذا في آلية طرح الصورة داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، وخاصةً صورة العمار المنتقلة للفاعلين الفلسطينيين، ومدى التغيير المعماري في رمزية التواجد الصوري. ثقافة الصورة التي أصبحت أداة نحت للثقافة الفلسطينية المعاصرة، وصناعتها لأساسات الذكرى والذاكرة فيه.

إن استقدام الصورة من الفضاء يقوم على توضيح الأثر الذي يتم خلقه من خلال ميكانيزمات التموضع أو العزل، الذي تتعرض له خلال التحولات المجتمعية من والى الفضاء الاجتماعي، والذي يخلق للصورة ثقافةً بصريةً دلاليةً تنضح بالتفسيرات السوسيولوجية والسيميائية لمجتمع ما، وتخصيصاً للمجتمع الفلسطيني. إن ما يقصد بالثقافة البصرية هو امتلاك الميكانزمات التي تشتغل وفقها الصورة من الناحية السيميائية، ولا يتم هذا طبعا إلا بالاشتغال الدائم على البحث في كيفيات تدليل الصورة وايحائيتها التي لا تنتهي. إن الصورة ليست معطى جاهزاً بريئاً، لكنها تحمل أوجه عديدة للمعنى، بإمكانها أن تقول في لحظة ما تعجز الآلاف الألفاظ عن البوح به. تصبح الاستعادة في حياة الصورة كنوع من الاستعاضة عن اللغة. فالثقافة المرئية تصبح أداة لتوليد المعنى[38].

يرى دوبري(**Debray**) "أن ننظر ليس معناه التلقي؛ وإنما هي عملية ترتيب المرئي وتنظيم التجربة، فالصورة تمنح معناها من النظرة كما يمنح المكتوب معناه من القراءة، وهذا المعنى ليس تأملياً وإنما هو معنى عملي، فنحن نتكلم في عالم ونبصر في عالم آخر. فالصورة رمزية غير أنها لا تملك الخصائص الدلالية للغة، إنها طفولة العلاقة. ولا يخفى أن هذه الأصالة

---

[38]- العابد، عبد المجيد، السيميائيات البصرية، قضايا العلامة والرسالة البصرية، النايا للنشر والتوزيع، دمشق، 2013، ص74-75.

تمنحها قدرة على الإيصال لا مثيل لها. فالصورة ذات أفضل دلالة لأنها أداة ربط. لكن بدون مجموعة بشرية متماسكة، تنتفي الحيوية الرمزية. إن خصوصية النظرة الحديثة تقف وراء فقر الدم الذي أصيب به عالم الصورة"[39].

من العلاقات التي يرتكز البحث على دراستها في معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني المعاصر؛ هي علاقة نقل الصورة للموت من خلال الشكل المادي المعماري، والية النقل للفاعل من خلال مأسسة صور الفضاء العام في إعادة اعمار الاسمنت المرمز بالموت بعد الانتفاضة الثانية. ومن هنا سيتم تتبع المعرفة النظرية لرمزية الموت في المجتمعات، وصوره المخلدة عند الجماعة الأولى، وخلق الجماعات الجديدة، ووحدتها.

الموت عند باشلار(**Bachelard**) هو أولاً وقبل كل شيء صورة، وسيظل صورة[40]. يمده عوناً دوبري بربط ولادة الصورة بالموت. لكن إذا كانت الصورة العتيقة تنبثق من القبور، فذلك رفضاً منها لك، كلما انحنى الموت من الحياة الاجتماعية كلما غدت الصورة أقل حيوية وكلما غدت معها حاجتنا للصورة اقل مصيرية[41].

ويكمل دوبري مستذكراً أن "مجتمعاتنا، إلى يومنا هذا كانت واقعيا مكونة من الأموات أكثر من الأحياء. فخلال آلاف السنين ظل الماضي والغور في الزمن طافحاً ومهدداً الحقل البصري، وظل المختفي يمنح للظاهر قيمته. فقد كان القريب والمرئي في نظر أسلافنا أرخبيلاً من بحر اللامرئي الذي له كاشفوه وتكهناته التي تصلح لتمثيله؛ ذلك أن اللامرئي أو ما بعد الطبيعة كان مجالا للخارق (فهو المكان الذي تأتي منه الأشياء واليه تعود). لذا كان من مصلحة الإنسان التصالح مع اللامرئي بجعله مرئياً. والتفاوض معه وتمثيله وتشخيصه، أما الصورة فإنها تشكل هنا لا الرهان، وإنما عماد التبادل والمقايضة

[39]- دوبري، ريجيس، حياة الصورة وموتها، تر فريد الزاهي، افريقيا للشرق، الدار البيضاء، 2013، ص 33-35.
[40]- دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص 20.
[41] دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص 15.

في هذا التعامل الدائم بين الرائي واللامرئي"[42]. يصبح الموت في أوجهه المرئية صورةً لسلام التصالح مع الحياة، فموت الموت سيخصص للمخيلة العذبة الضربة القاضية[43].

يقوم الإنسان المعاصر بإخفاء الاحتضار في المستشفى والرماد في مستودع رماد الموتى، ويواري الفظائع تحت الضوء الاصطناعي ومساحيق الجنازة الشخصية، فانه بذلك يضعف حاسته السادسة اتجاه اللامرئي ومعها الحواس الخمس الأخرى؛ ذلك أنه حين لا يعود يرى اللامحتمل فانه يضعف الجاذبية الغامضة للظل ومعها ضده، أي قيمة شعاع نور. ويبدأ بترويض الواقع من خلال نمذجته النظرية والتقنية، ومن غير إضرار بعصبيات شبكية العين، يجعل من استعمالها أقل ملحاحية و ضرورة. فإذا ما نحن تجردنا من "الأشياء في ذاتها" فإننا لن ننتظر سوى تخدير حواسنا. نهاية البعث واختزال الموت في الحادثة، ذبول ما نراه من مرح، ذلك هو ما سيكون غداً تتابع المخاطر. ومما سبق يقدم دوبري التساؤل والإجابة؛ ماذا سيتبقى للنظرة التي تتمتع بحماية مبالغ فيها، حين يغيب الهيكل العظمي، والعفن والمقزز والظليل من الأنف الصحي اليومي؟[44] طارحاً إجابته بأنها ستحدث "الكآبة المجعدة للمرئي".

تنطلق تساؤلات البحث على المعمار الفلسطيني اليوم من تساؤلات دوبري على المرئي واللامرئي للموت، من صورة موت الإنسان في جدار المقاطعات، والمخيمات، إلى مراكز المدن الرئيسية في بلداتها القديمة كنابلس. وعليه هل يبقى الخلود الوطني الفلسطيني ضمن حدود المرئي الذي يطرحه دوبري، أم أنه يحاول التجاوز خالقاً اللاحدود بين المرئي واللامرئي للموت؟.

نأخذ على ما سبق وصف البرغوثي لثقافة الموت فلسطينياً:"شرد ذهني إلى ثقافة الموتى عندنا في فلسطين. قلت له: "كثيرون في فلسطين ماتوا شنقاً أو ذبحاً أو سماً أو بقصفٍ أو بطرق أخرى، ومن ظل منا حياً؛ تزوره الأجسام الذهنية لموتاه، وتشاركه في عشائه، وتقعد له في المقلاة. أنا يزورني شبح أبي، وأخي، وصديق استحم قبل سنين وتعطر ومشط

[42] دوبري، ريجيس،مرجع سابق، ص 25.
[43] دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص 27.
[44]- دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص 27-28

شعره ليلاً، وفي الصباح ذهب إلى مظاهرة ضد الاحتلال الإسرائيلي وقتل. ارتعبت؛ ليس من موته، بل من كونه كان يحضر نفسه للموت. تزورني أرواحهم، وقد صارت عظامهم مكاحل، في بلد يسيطر فيه الموتى على الأحياء، والماضي على المستقبل. هذه هي سلطة الذاكرة"[45]. من فردانية وصف البرغوثي إلى جمعية الذاكرة الفلسطينية عن الموت، يستنير البرغوثي في نهايتها إلي التحول السياساتي الذي يحصل على ذكرى الموتى جمعاً، وما هو مشهد الموت الجديد في العين الفلسطينية في عصر السياسات المشهدية التي يصبح نضال الفلسطينيين فيها هو العثور على النطاق الضيق الفاصل بين الانكشاف في وجه مكائد الصهيونية وبين ممارسة نضالهم أمام جمهور ومتعاطف ومستعد ليرى ويميز[46]، وهو ما سيتم تناوله في الأجزاء التالية.

فبعد إبعاد الصورة القاتمة للموت يتم التأسيس لخطاب المواراة في صنع متاهات للذاكرة داخل الزمان والمكان، بفعل خطاب المؤسسة الرسمية، وهو ما طرحه بيير نورا بمفهوم "مكان الذاكرة"، والذي سيتم تفصيله نظرياً في الجزء التالي.

***المؤسسة تستعيض عن الموت بمكان للذاكرة فلسطينياً:**

ما حدث في فلسطين بعد الانتفاضة الثانية، من هدم واختراق للعمار من قبل المستعمر الصهيوني في المدن والمخيمات؛ جعل من الفضاء المعماري العام مادةً مليئة بأصوات ذكرى الحرب، وأصوات موت الجسد المطالب للحرية. بالتالي مجموع الهدم الذي كان على مرأى من الفاعلين الاجتماعيين الفلسطينيين، كان هو الصورة بكامل دلالتها ومدلولاتها، والتي تشير للواقع الاستعماري المعاش يومياً. إن آليات التلقي في هذا الفضاء، كانت تعيد إنتاج الحرب صورياً بشكل مباشر، في مرحلة التصادم مع بقايا الهدم. ولكن؛ تكمن الإشكالية في البحث وكما ذكرنا قبلاً، في خلق أدوات تلقٍ جديدة دون الحاجة للتصادم المباشر داخل الفضاء العام. وهو ما تدعي الباحثة أنه حدث في فلسطين بعد عمليات إعادة الاعمار للمقاطعات والمخيمات، والمدن. وبالتالي نصل لتشكيل المنظر الفرنسي بيير نورا (**Nora**) لمفهوم "أماكن الذاكرة، **Les**

---

[45]- البرغوثي، حسين، مرجع سابق، ص 55.

[46]- الخالدي، محمد، تجليات الهوية، الواقع المعاش للاجئين الفلسطينيين في لبنان، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2010،ص 160.

lieux de mémoire"، وهو المفهوم الذي سيتم إسقاط تفسير الواقع المعماري في الفضاء العام الفلسطيني عليه، لأنه يمثل مختلف السياسات التي تم استخدامها في إعادة الاعمار، وخلق الذكرى فلسطينياً.

قبل الوصول إلى مفهوم بييرنورا ،تشرح لنا سوزان سليموفتش(في كتابها **the object meaning**)كيف يمكن إعادة بناء مكان تم هدمه، والاستيلاء عليه من قبل آخرين بالكلمات. فهي تهتم بالأماكن الخاصة والرمزية التي تستقر فيها الذاكرة، فتمزج في نصوص الكتاب التجارب المعمارية للبيوت الحجرية الفلسطينية مع الروايات الشفوية التي تروي ذكريات من عاشوا في هذه البيوت، والتي تشكل جزءاً من الذاكرة الجماعية الفلسطينية لتجربة الاقتلاع والتهجير[47]. ومن ذلك يرى دوركهايم بأن كل مجتمع يحتاج إلى أن يشعر باستمرارية الماضي، وبأن هذا الماضي هو الذي يمنح الأفراد والجماعات هويتهم. تسمح لنا الفكرة السابقة برؤية الذاكرة الجماعية كإحدى الإشكال المهمة للحياة الاجتماعية[48].إن هدم المكان وضياعه لابد أن يترك آثاراً هدامة على التاريخ وعلى الذاكرة والهوية بصيغتهما الفردية والجماعية[49].

يقارن بيير نورا بين التاريخ المصطنع كما يسميه والذاكرة الحقيقة ليجادل بأن الذاكرة بطبيعتها حية، بينما التاريخ لا يخضع فقط للبناء وإنما لإعادة البناء. وهو يرى وبصورة حادة أن هناك عملية قطع تنشأ بين الذكرى والتاريخ، بل يرى أن هناك فقدراناً لتاريخ الذكرى، وأن الذكرى الجديدة هي التي أصبحت تنتج التاريخ الحاضر[50]. وخلال دراسته للهوية الجماعية الفرنسية يقترح نورا مفهوم "أماكن الذاكرة"؛ والتي يشير بها إلى أي كينونة أو وجود مميز، بغض النظر إن كان مادياً أو رمزياً، والذي ساهم التدخل البشري أو مرور الزمن في تحويله إلى أحد الرموز التي تشكل الذاكرة التراثية لمجتمع ما[51] .

[47]- نقلاً عن عدوان لورا، صورة فلسطين في روايات اللاجئين الفلسطينيين، دراسة مقارنة بين مخيم قلنديا في فلسطين، ومخيم اليرموك في سوريا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، رام الله، 2009، 35.
[48]- عدوان، لورا، مرجع سابق، ص 36.
[49]- عدوان، لورا، مرجع سابق، ص 40.
[50]- ريكور، بول، مرجع سابق، ص 588.
[51]- عدوان، لورا، مرجع سابق، ص 37.

وتبعاً لبيير نورا فان المجتمع العصري يشهد انتقالية ذات وتيرة متسارعة، بدأت فيها معظم إن لم نقل كل أشكال الارتباط بالماضي والمؤسسة في آن واحد للهوية الجمعية في الاضمحلال التدريجي لتحل محلها أماكن الذاكرة، مما يجعل من "أماكن الذاكرة"هي البديل الحسي والاصطناعي لذاكرة جمعية فرنسية لم تعد موجودة الآن. يعزى نورا تكثف الذاكرة بشكل مستمر في أحاديثنا اليومية إلى غيابها المادي،عن حياتنا؛ بعد أن تم تذويب الذاكرة في السرديات الكبرى للتاريخ. وكما جاءت السرديات الرسمية للتاريخ لتحل محل التقاليد والأعراف والخبرة المعاشة للأحداث، جاءت أماكن الذاكرة لتكثف ذكريات أحداث مضت حول النصب التذكارية والأعمال الفنية والكتب التاريخية وأيام الذكرى السنوية فتحل محل العوالم الحقيقية التي عايش فيها الناس الأحداث الماضية. فتشعر بحد تعبير نورا، وكأن أماكن الذاكرة جاءت لتقول باستحالة وجود الذاكرة بشكلها الطبيعي العفوي[52].

ومن بعد أن تتحقق وتتحول الرابطة المعنوية الراغبة بتحقيق السيادة إلى مؤسسات تجسدها، متميزة ومغتربة عن الأفراد ورغباتهم، يأخذ محيط الذاكرة بالانحسار، وتأخذ الحاجة إلى أماكن الذاكرة بالتزايد: النصب التذكاري، مواقع المعارك من هزائم وانتصارات، المتحف كبيت للذاكرة، وتتم فيها محاولة استعادة العلاقة مع الأمة، كأنها علاقة مع أشياء محسوسة وملموسة ومعروضة، خاصةً بعد أن تجردت العلاقة وزالت الذاكرة كممارسة طقسية، وأصبحت تستعاد في ممارسة واعية للطقوس من ممارسة طقسية بطبيعتها إلى طقس ممارس[53]. فالذاكرة قائمة في ثبات المكان، أما التاريخ فيحاول أن يثبت شيئاً في تقلب الزمان. إن الذاكرة الحية تتمرد على التاريخ لأنها تشعر بأنه مؤامرة عليها[54]. تقوم المؤسسة هنا بممارسة "التطهير البصري عند دوبري؛ لتفسخ الأجسام شكلان: بالرطوبة والجفاف، وبالتمييع أو الإحراق. بيد أن أفظع شيء يمكن أن يراه الإنسان هو القذارة والأشياء الهلامية، أي تلك الكتلة المتعفنة المشوهة. إنها الدنس الذي لا يمكن إصلاحه. فالصورة المادية، باعتبارها النظير المضعف، تحميني من تلك الفظاعة ومن المشهدالصاعق للتعفن، يقوم الحجر بإخفاء

[52]- عدوان لورا، مرجع سابق، ص 37-38.
[53]- بشارة، عزمي، مرجع سابق، ص 46.
[54]- بشارة، عزمي، مرجع سابق، ص 47.

المتعفن بالصلابة، ويتسامى عن الحقارة بالرخام والحجر الزجاجي.أما النصب فانه يهذب الشر بحضوره المشهدي، إن هذا هوما يعنيه مفهوم التطهير البصري[55].

السؤال الآن هل تحمل معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني مفاهيم مواطن الذاكرة والتطهير البصري؟، تبدأ الإجابة في القسم التالي من تفكيك بنية الخطاب الاستعماري وتجلياته في العمارة، داخل مشهد الجدران لعملية إعادة الاعمار بعد الانتفاضة الثانية؟.

***إعادة إنتاج العلاقات السلطوية من خلال العمار، "خطاب العمارة الاستعمارية":**

تناولت العديد من الدراسات انتاجات العمارة والعمران وتداخلها الاجتماعي المتغير والمختلف، ودلالاتها وتمثلاتها تبعاً لمحددات المعرفة والتقنية والسلطة، ومنها أن تناولت دراسة الحلاق محددات تاريخية وخاصة كولونيالية معمارية، أثرت على الهوية المعمارية المحلية، ومنها الطرز الأوروبية التي حملها المصممين الأوروبيين، والنظريات التصميمية التي أبرزت العلاقة الثابتة بين المجتمع والعمارة، والاهتمام الخاص بتوجهات المصممين العرب الذين أنتجوا على حد تعبيرها طرازاً معرباً، لم يغب فيه هاجس الهوية، وارتباطها بجذرها الثقافي التراثي ليخلقوا تواصلاً بين المعاصرة والتاريخ، في تتبع معماري و عمراني للمشرق والمغرب العربي الذي كان يخضع للاستعمار الفرنسي[56]. وفي سياق فلسطيني تشير دراسة حلس إلى الأبعاد السياسية للعمارة الفلسطينية في ظل السياسات الإسرائيلية التي تعمد على تشويه وتزييف وشطب الذاكرة الفلسطينية، وإبراز أهمية الموروث المعماري في الدفاع عن ترسيخ بنية ذاكرة المكان، ومنع تطاير الهوية، حيث أن ما تعمد عليه السياسات الإسرائيلية يكمن في إعادة صياغة المكان الفلسطيني، وتفريغه من رموزه الحضارية، واستبدالها برموز توراتية تهدف مزاعم العمق التاريخي المشرعن للدولة الإسرائيلية[57].

[55]- دوبري، ريجيس، مرجع سابق،ص 23.
[56]- الحلاق ندى، الكلونيالي في الشخصية المحلية في العمارة والعمران، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، مجلد28، ع1، 2012.
[57]- حلس عاهد، الدور السياسي للعمارة في إطار الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، جامعة الأقصى، غزة، 2010.

ما يجري على الفضاء المعاش، والفضاء المعماري، والفضاء العام في فلسطين؛ هو محاولات الفرض لهندسة المكان سلطوياً، وإعادة إنتاج الهيمنة الاستعمارية بحيث تتخلل التفاصيل التصميمية، من أجل فرض الرقابة على الإنسان الفلسطيني سواء من قبل النظام الفلسطيني الأوسلوي، أو من قبل الاستعمار الصهيوني في الشوارع والحواجز والمستعمرات.

فحسب دراسة اليساندرو بيتي(**Petti**) ل"كاستيلز" لرؤيته بأن المدن يجري وضع بنيتها وتفكيكها، في وقت واحد، بواسطة نوعين متنافسين من المنطق: من جهة، منطق فضاء التدفقات (الذي يصل بين الأماكن الفردية ضمن شبكة تربط الناس والأنشطة في مواقع جغرافية متباعدة)، ومن جهة أخرى منطق فضاء المكان (التجارب والأنشطة ضمن مجال المنطقة القريبة). ويرى كاستيلز أن فضاءات المكان تعتبر شيئاً فائضاً وزائداً في تنظيم فضاء التدفقات والسلطة[58]. ويتم هذا البناء والتفكيك تبعاً لمبدأ الرقابة والتأديب الذي ينتج العلاقات السلطوية داخل العالم الاجتماعي الكامل. فالتأديب يمنح الفضاء شكلاً بنيوياً، ويعتبر التوزيع الهرمي والوظيفي للعناصر مشكلة جوهرية: وهنا يتبادر إلى ذهني كيفية توزع أبراج الحراسة والمعسكرات الإسرائيلية في تصميم مخطط سجن ما، فهي موزعة بحيث تسمح بالمراقبة، حتى لو لم يكن هناك من يراقب ويحرس في الأبراج، لأن كل ما هو مطلوب للتأثير في سلوك الأشخاص هو وجود الآلية[59]. "حين تتغلب الأسلحة والأدوات التقنية على الذعر تدريجياً وتغدو القدرات الإنسانية على التخفيف من الآلام، وتكييف مواد العالم والتمكن من عمليات تصويرها، قادرة على تجاوز الذعر أمام الكون وقوته، آنذاك نمر من الصنم الديني إلى الصورة الفنية، أي إلى نقطة التوازن في المحدودية الإنسانية"[60].

تحدث عمليات إعادة الاعمار للمقاطعات الفلسطينية بصورة تنقل نوع من الخطاب الدولاتي ممثلاً "للسيادة"، ولمفهوم السلطة، وذلك من خلال خصائص ضابطة للعمار ومنقولة للجسد المبصر في الفضاء الاجتماعي للفلسطينيين، بحيث يولد العمار خطاب تملك السيطرة والقوة لدى المستعمَرين، دون الوعي بأنها إعادة إنتاج لتصوراتنا للغالب، فيصبحوا

---

[58]- بيتي، أليساندرو واخرون، حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010، ص 53.

[59]-بيتي، أليساندرو واخرون، مرجع سابق، ص 74.

[60]- دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص 28.

مقلدين وحسب، يتبعون عصرنة وحضارة، نقلت العقول إلى العيون[61]، وتنقل معها فكرة "السلطة الوهمية" التي يناقشها ادوار سعيد في كتاب الثقافة والمقاومة؛ وهي تكمن بأن "هناك نوع من الخصيصة القابلة للتكرار في ذلك وهي خصيصة تأتي من تاريخ الاستعمار في القرن التاسع عشر. على غرار ما فعله الفرنسيون بالجزائر حيث كانوا يجدون مناطق يمكن وضع السكان المحليين الراغبين في المعرفة في قراهم تحت إمرة رؤسائهم المحليين. وقد فعل البريطانيون ذلك في غرب إفريقيا فيما يسمى" الحكم غير المباشر"، حيث كانوا يعثرون على بعض الأهالي المحليين ليقوموا بدورهم بحكم مواطنيهم الجامحين وصعبي المراس، بينما تظل أنت بوصفك قوة احتلال محتفظاً بالسلطة الحقيقية. وفي جنوب إفريقيا كانت الفكرة أن يوضع السود في مخيمات حيث يمكن لهم أن يحصلوا على خصائص السلطة، لكن دونما امتيازات سلطة حقيقية، فهم لم يكونوا يسيطرون على الأرض ولا على المياه، بينما يسيطر البيض على المداخل والمخارج، وهذا بالضبط هو النموذج الجاري تطبيقه هنا؛ فالمناطق الفلسطينية، والتي هي صغيرة ومقسمة إلى مراكز للسكان الفلسطينيين إنما تكافئ تلك المخيمات حيث يجري توليد انطباع لدى شخص ما مثل عرفات، أو أنه يخلق لنفسه الانطباع بأنه هو القائد، لكن الخيوط الحقيقية يتم تحريكها من خلفية المشهد بأصابع المحتل الاستعماري"[62]. ما أجراه ادوارد سعيد على فكرة خطوط السلطة الوهمية، هو ذاته أحد ركائز الصراع الفكري في البلاد المستعمرة عند مالك بن بني، الخطاب الاستعماري الذي يتغلغل في فكر المستعمَرين في وهم من يتحكم ومن يضبط، ويشبهه مالك بن نبي بالألعاب الاسبانية؛ يهجم فيها الثور المستعمَر على الرداء الأحمر دون وعي بأن الرداء الأحمر لن يتواجد دون المصارع الذي يحمله، هنا تنتقل المعركة مع الاستعمار في خلو عن الوعي بمجريات خلفية المسرحية، فالاستعمار يبتدع أشكالاً مختلفة لمحي معركة الأفكار، ويسلط الضوء على ركن معين من المسرح، أي على النقطة التي يريد لها أن تظهر، من أجل امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة حتى لا تتعلق بفكرة مجرّدة عن طريق تعبئتها لحساب فكرة متجسدة، يستطيع النيل منها سواء بالقوة أو الإغراء، وهو بنفس الوقت

---

[61]- شريعتي،علي، العودة الى الذات، تر ابراهيم الدسوقي، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، 1986، ص 142-143.
[62]- سعيد، ادوارد، الثقافة والمقاومة، حاوره دايفيد بارساميان، تر علاء أبو زينة، دار الاداب، بيروت، 2006، ص 49.

يعمل على حربه ضد الفكرة المجردة عبر متخصصين استعماريين على دراية تامة لخارطة البلاد النفسية، وحول هذه الأفكار المجردة وطرق الاستعمار في مواجهتها وحربها تدور كل فصول المسرحية[63].

ترسم المقاطعات مع أسوار عالية لا يستطيع المار أن يرى الداخل، ظاناً أنه غير مرئي، ولكن الخارج صورة يكون مكشوفاً للداخل، وتشرف على الفضاء الخارجي، لتتيح رقابة متكاملة ومفصلة، بحيث تبدأ بمراقبة الأفراد والسيطرة على سلوكهم، وتوصيل آثار السلطة إليهم، فالحجارة تستطيع أن تطوع وأن تعرف، حققت الهندسة المعمارية حرصاً لا متناهٍ على المراقبة، فيتأتى لنا منها وفيها إتاحة كاملة تسمح للجهاز الانضباطي بنظرة واحدة رؤية كل شيء باستمرار، كعين كاملة، لا يفوتها شيء ومركز نحوه تتجه الأنظار[64].

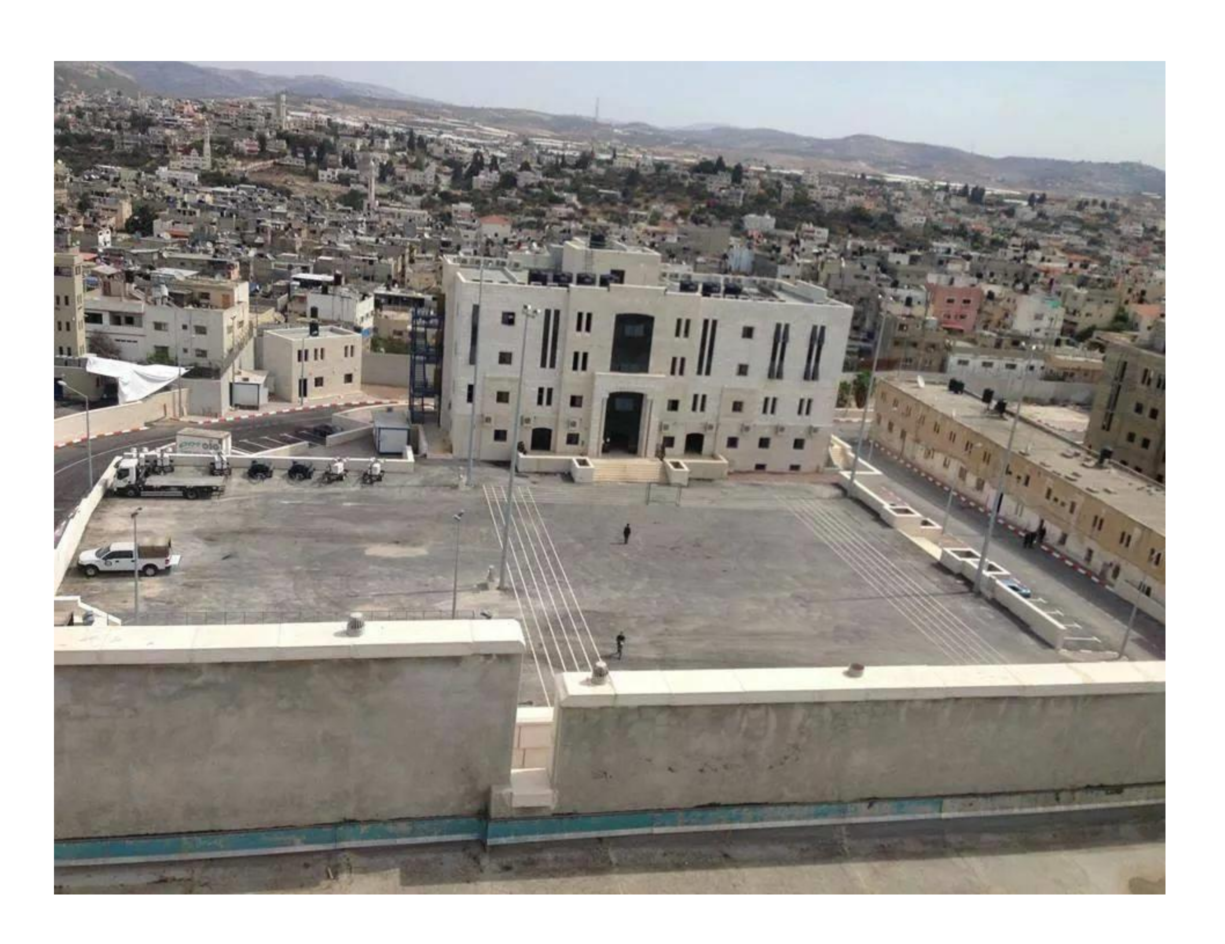
مما سبق، لا نستطيع التوقف عند تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة إنتاجه داخل العمار المعاد اعماره، دون نقاش البنية الاقتصادية التابعة لكل ذلك، والتي تشكلت من التمويل والمنظمات الدولية التي تقدم المساعدات لإعادة الاعمار تحت اسم التنمية، والنهوض بأحد المجتمعات النامية كفلسطين. بالتالي سيتم توضيح ما يحمله التمويل من سياسات وما يخفيه من سياسات أضحت ترسم معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، كل ذلك سيناقشه هذا التنافذ النظري في الجزء القادم.

---

[63]- بن نبي مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، 2009، ص 14-36.

[64]- فوكو، ميشيل، المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، تر علي مقلد، مركز الانماء القومي، بيروت، 1990، ص 187-189.

* مقاطعة طولكرم بعد إعادة الاعمار 2014[65]



[65]- صورة من احدى المهندسات المشاركات للعمل على اعادة اعمار مقاطعة طولكرم.

***العولمة تضم العمار فلسطينياً في تمويل عابر للحدود:**

بقيمة ناهزت ١٩ مليون شيقل

د. اشتية يوقع اتفاقيتين مع شركتي مقاولات محليتين لإعادة بناء مقر مقاطعة نابلس

رام الله- الحياة الاقتصادية - وقع د. محمد اشتية وزير الأشغال العامة والإسكان على اتفاقيتين لإنجاز المرحلة الثالثة من مشروع إنشاء مقر مقاطعة نابلس، بكلفة ١٩ مليون و ٢٧٣ الف شيقل وبتمويل من الاتحاد الأوروبي.

وتشمل المرحلة الثالثة من المشروع الذي من المتوقع أن ينتهي عام ٢٠١٢، تشييد مبنيين، وهما مبنى الشرطة ومبنى مراكز الإصلاح والتأهيل.

وشدد اشتية على أهمية بناء المقاطعات التي تعد مباني سيادية وقال: «يأتي هذا المشروع ضمن خطة الحكومة لإعادة بناء مقار بناء المقاطعات التي هدمها الاحتلال في محافظات الضفة، على اعتبار أنها رمز من رموز السيادة».

وأضاف د. اشتية: «نحن ننظر إلى هذا المشروع بكل الأهمية كونه يسهم في التحضير لإقامة الدولة المستقلة ومؤسساتها القادرة على حفظ النظام وفرض سلطة القانون، لما للأمن من أهمية في حياة المواطنين وتأثير على الانتعاش الاقتصادي».

وأكد أن تصميم المشروع يعكس أهميته ووظيفته وهي: النظام والقانون والسيادة والأمن وخدمة المواطنين، حيث تم تصميم المباني معماريا بشكل يتناسب مع طبيعة المشروع، حيث صممت المباني بشكل مقاوم للاحمال نظرا لأنها مبان أمنية.

كما تم وضع نظام ميكانيكي حديث يعتمد على إدخال التكنولوجيا الحديثة والطاقة الشمسية في البناء.

ويحتوي مبنى الشرطة على واجهات حجرية، وتبلغ مساحته الإجمالية ١٧٨١ م٢، ويتكون من طابق تسوية وثلاثة طوابق أخرى بمساحة طابقية تبلغ ٤٢٥ م٢.

أما مبنى مراكز الإصلاح والتأهيل فيتكون من طابق تسوية وثلاثة طوابق بمساحة إجمالية تبلغ ٦٥٠٠ م٢.

وتشمل المباني المنوي إنشاؤها ضمن مقاطعة نابلس: مبنى وزارة الداخلية ومقر المحافظة ومبنى الأمن الوطني ومبنى الأمن الوقائي والمخابرات العامة والشرطة ومركز الإصلاح والتأهيل وعددا من المباني العامة الأخرى.

وتبلغ مساحة الأرض المنوي إقامة المشروع عليها ٤٨,٩٦٦ م٢، بينما تبلغ المساحة الكلية للأبنية ٤١,٥٨٠ م٢.

وكانت الوزارة وقعت أوائل الشهر الماضي اتفاقية لتنفيذ المرحلة الثانية من المشروع والتي شملت تشييد مبنى وزارة الداخلية والمحافظة والأمن الوطني ومبان عامة في المقاطعة بتكلفة بلغت ٣٢ مليون و ٩٠٠ الف شيقل.

كما أن المرحلة الأولى من المشروع شملت أعمال الحفريات وإنشاء الأسوار الخارجية والجدران الاستنادية والبنى التحتية الأفقية في الموقع بتكلفة ١,١ مليون دولار.

وكانت وزارة الأشغال العامة والإسكان قد طرحت عطاء التصميم وإعداد وثائق العطاءات لعدة مقاطعات بالضفة دمرت خلال الاجتياح الإسرائيلي وهي مقاطعات جنين ونابلس وطولكرم وأريحا وبيت لحم والخليل.



هذا البحث يأخذ إضاءة متركزة من بين كل المقاربات النظرية التي تخص المجتمع المدني بمفهومه، وتنوعه، وعلاقته مع المجتمع والدولة، وتقسيماته، إلى الجزء الخاص المتعلق بالتمويل الذي يأتي من المنظمات العابرة للحدود، وتشبيكها مع منظمات غير حكومية فلسطينية، في إنتاجها لسلطة جديدة داخل زوايا الحالة الاستعمارية. وما يرسم على وعي الفلسطيني في الفضاء المعماري في أجندة تمويل إعادة الاعمار للمقاطعات أو المخيمات والتي كانت باسم منظمات غير حكومية عابرة للدول، وقامت بإعادة اعمار بعض النماذج البحثية في هذه الدراسة"المقاطعات، والمخيمات". بالتالي رسم

لدينا محورين؛ التمويل المتبوع بالاقتصاد العالمي وتأثيره في عملية الضم والانفصال العالمي، وهيمنة ثقافة استبطانية تتجلى من خلال المحور الأول السابق الذكر، على الفلسطيني في فضائه الاجتماعي.

بداية سنلجأ لقراءات عزمي بشارة عن غرامشي والمجتمع المدني، وبالتحديد قراءاته عن علاقة المجتمع المدني الأولى بالاقتصاد، ورسم شروط الهيمنة من خلال تنقل رأس المال في السياسات، وذلك من تتبع تساؤل غرامشي"كيف بالإمكان تحقيق هيمنة ثقافية لأفكار العدالة الاجتماعية الجديدة على المجتمع، من دون سيطرة اقتصادية أو سياسية عليه بواسطة رأس المال أو بواسطة الدولة؟"، هنا تبرز أهمية مفهوم المجتمع المدني عند غرامشي المرتبط ارتباطاً مباشراً بمفهوم الهيمنة مقابل السيطرة. هنالك حيز اجتماعي تطور في ظل الرأسمالية هو ساحة الهيمنة الثقافية على المجتمع. وهذا الحيز ليس حيز الاقتصاد. هو جزء من المبنى الفوقي، ولكنه ليس حيز الدولة[66]. وفي خضم المجتمع المدني تتم الصراعات السياسية، وتتخذ هناك شكلاً ثقافياً. "ليس المجتمع المدني هنا تلك القاعدة المادية للدولة التي تحددها، ولا هي حيز السوق الذي تجري فيه التعاقدات الاقتصادية المتبادلة بين المالكين. المجتمع المدني هنا هو، بالمفاهيم الماركسية، مبنى فوقي، وهو المبنى الفوقي الذي لا تتم فيه مجرد انعكاسات للصراع الاقتصادي، بل انه المجال الحاسم نحو تأجيج الصراع الاقتصادي وحسمه. وبمعنى ما، فانه بالنسبة إلى الوعي الإنساني، المبنى الفوقي الذي يشكل المجال الحقيقي والحاسم، واستغلال الناس الاقتصادي ليس ذا قيمة إذا لم يخترق وعي الناس وثقافتهم، وإذا لم يقتنع الناس بضرورة مقاومته، وإذا لم يحركهم البديل للنظام الاجتماعي الرأسمالي القائم"[67].

يوضح بشارة بأن ما يراه غرامشي في فكرة المجتمع المدني هو، كونه وسائل تتحول فيها الفلسفة إلى ثقافة، أي إلى سياسة، أي إلى ممارسة[68]. وكذلك اعتقد غرامشي أن الدولة (السيطرة) منفصلة عن المجتمع المدني (الهيمنة) منطلقاً من تحليلات كروتشي. وقد تستخدم الدولة هذا القدر أو ذاك من العنف الضروري دائماً من حيث الجوهر، والخاطئ دائماً من حيث

[66]- بشارة، عزمي، المجتمع المدني، دراسة نقدية،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط6، 2012، ص 232.

[67]- بشارة، عزمي، مرجع سابق، ص 233.

[68]- بشارة، عزمي، مرجع سابق، ص 234.

المظهر؛ والحكم على أخلاقية العنف هو التاريخ. ولكن قصر مهمة الدولة على استخدام العنف يعمي عن رؤية مهماتها الأخرى المستوردة باحتكار العنف، مثل الحفاظ على حقوق الأفراد وحرياتهم، ضد تجاوزات الآخرين، أو لتنظيم الحوار والتنافس السياسي والصراع بين الأحزاب والجماعات والفئات الاجتماعية المختلفة. لم يرَ غرامشي كل ذلك، أو رآه واعتبره مظهراً لسيطرة البرجوازية؛ فقد كانت الديموقراطية البرلمانية تعيش أعنف أزمة تعصف بها[69]. ربط غرامشي بين المجتمع المدني والاقتصاد، وفصل بين اقتصاده واقتصاد الدولة. كما ميز بين سلطة الدولة و هيمنة المجتمع المدني، واعتبر أن الجزء المادي في الثاني سيشكل ممارسة لتشكل الوعي ضد سلطة الدولة. واعتبر بشارة أن غرامشي قد خفي عليه "مهمات الدولة الأخرى خارج احتكارها للعنف"، وما يبدو أن من خفي عليه السياسة الحيوية هو بشارة في مهام الدولة ودهاء "الديموقراطية" الذي يتجلى في قواعد لعبتها التي تخرج عن محافظتها على حقوق وواجبات المواطنين داخلها والتنوع الحزبي بغض النظر عن تعليله بأن سبب ذلك هو الأزمة التي كانت تمر بها الديموقراطية البرلمانية في ذلك الوقت. لا يمكن تطبيق القانون الساري إلا من خلال استخدام عنف شرعن لأن الدولة هي حياته. سيحضر اغامبين هذه العلاقة بين العنف والقانون ليبرهن على أن السمة العنيفة لحالة الطبيعة لم تمحَ من بنية المجتمع المدني، لأن القانون نفسه تحديداً هو الذي يستخدم عنفاً خاضعاً لسيطرة السلطة السياسية[70]. لان هناك صورة ممكنة باقية للقانون عقب قطع الصلة بينه وبين العنف والسلطة؛ بيد أن الأمر يتعلق بقانون دون قوة أو تطبيق[71]. من ذلك يتضح لنا أن المجتمع المدني مع كل نظريات انفصاله عن أدوات السلطة إلا أنه وكجزء من القانون يمارس تحت خطابات العنف المبطنة سلطة سيادية على مجتمع فتح له بكونه مجتمع استثناء، ليحوله إلى القاعدة العامة.

فلسطينياً سيتم توضيح كيف ظهرت مجموعة من خطابات الهيمنة المتواطئة مع الاستعمار في ظل نظام معولم ذو قاعدة مادية اضطرارية داخل مؤسسات المجتمع المدني المنتشرة في جميع المناطق الفلسطينية. يبين أولريش بيك ما وضح انفاً في

---

[69]- بشارة، عزمي، مرجع سابق، ص 239.

[70]- اغامبين، جورجيو، حالة الاستثناء، الانسان الحرام، تر ناصر اسماعيل، مدارات، القاهرة، 2015، ص 18.

[71]- اغامبين، جورجيو، مرجع سابق، 149.

السلطة والسلطة المضادة أن "من وجهة نظر النظام الكوسموبوليتي، فهم هذه النقطة هو أساسي: الخسارة الشكلية للحكم الذاتي والربح الفعلي للسيادة بامكانهما السير متلازمين. تتضمن العولمة هذين المظهرين: زيادة السيادة لبعض الفاعلين التي تعود مثلاً كون هؤلاء يصبحون قادرين على التصرف في ما وراء المسافات ويستخرجون كذلك هوامش جديدة للمناورة، بينما مقابل ذلك فيما يختص بهذا التطور تخسر بلاد باكملها حكمها الذاتي. تنمو السيادة الفعلية للفاعلين (مشتركين أم فرادى) بمقدار ما ينقص استقلالهم الذاتي. بتعابير أخرى: تؤدي العولمة السياسية الى الانتقال من الاستقلال الذاتي المبني على الاقصاء القومي الى السيادة المبنية على التضمين العابر للدول. ليس الوجود البسيط لشبكة التداخلات المتعلقة بعدة دول هو المحدد ولا واقع كونه مكثفاً أكثر فأكثر، بل الطريقة التي يرى ويحكم عليه وينظم. يدرك التعاون وشبكات الدول، من وجهة النظر القومية كاضرار شاق، كلعبة بحامل متعادل بين المستوى القومي، والمستوى العالمي: هل نقوض كثيراً من الكفاءات؟ هل لهم الحق بفعل ذلك؟ هل لنا الحق بفعل ذلك؟ بقدر ما لهم لنا أقل. والعكس في المنظور الكوسموبوليتي، حيث تدرك التفاعلات كلعبة بحاصل ايجابي: لنا بقدر ما لهم"[72].

تبعاً لحنفي وطبر فالعولمة تتشابك تشابكاً عميقاً مع مرحلة جديدة من "الحداثة" الغربية، إذا لم تكن تجسدها. وبالمقارنة مع النظرة العامة التي تصف الليبرالية الجديدة في بعض الأوساط بأنها عقلانية سياسية جديدة للحكم تقابل تعظيم النظام الرأسمالي. وفي هذه المقولة يبدو أن الليبرالية الجديدة تمثل تجريداً للدولة من الحكومة، لكنها ليست بالضرورة "تجريداً للحكومة من الحكومة"، وثمة مجموعة من الأساليب المنتشرة ضمن نموذج الليبرالية الجديدة الذي ينتج كيانات، حكومية/ انضباطية ضمن الحقل الاجتماعي. وفي حين أن هذه الأساليب منفصلة ومتميزة عن الدولة، فإنها مقيدة بالدولة وتتم صياغتها من خلال النموذج الاقتصادي للعمل[73]. وبالتالي يمكن النظر إلى الليبرالية الجديدة على أنها طريقة حديثة لتنظيم

---

[72]- بيك، اولريش، السلطة والسلطة المضادة، في عصر العولمة، تر جورج كتورة واخرون، المكتبة الشرقية، بيروت، 2010، ص 241.

[73]- حنفي، ساري، طبر،ليندا، النخبة الفلسطينية الجديدة، مج مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد 17، ع67، 2006، 73، ص 84.

القوة التي تحكم بصياغة احتمالات العمل، ولا تعد بناءاً فوقياً يشكل الوعي بالمعنى الماركسي الذي حاول إيصاله غرامشي.

العولمة متبوعة دائماً بشروط السيطرة الاستعمارية، وبالتالي يركّب النظام الدولي فوق النظام الاستعماري. وكما يوضح براينن، ابتكرت جهود جديدة لبناء السلام لا تقتضي أنماطاً منتظمة قائمة لحفظ السلام بالطرق الدبلوماسية والعسكرية، وإنما أيضاً مجموعة من الأهداف الاجتماعية والاقتصادية والوسائل، مربوطة بالتزامات كبيرة لحظة تقديم الدعم المالي[74].ولعل من أشد ما يميز المأساة الفلسطينية كونها جزءاً مشتقاً، وان كان بشكل غير مباشر، من النظام الرأسمالي. هذا مما يحتم على هذه المأساة التشكل في كل مرة من جديد، جزئياً، بحسب التحولات في بنية النظام العامة. ومن العادة أن يتم الترابط بين المأساة الفلسطينية والنظام الاستعماري على أن كونها جزء منه، والذي بدوره يشكل امتداداً للنظام الاستعماري العالمي[75].

يربط خليل نخلة في كتابه "فلسطين وطن للبيع" تتبعاً لظهور وتنصيف بعض مؤسسات المجتمع المدني وبالذات، منظمات غير حكومية عابرة للحدود. وربط بين وجود المنظمات غير الحكومية الغربية العابرة للحدود في المناطق الفلسطينية المحتلة، والخطط السياسية الغربية الإسرائيلية المفروضة على الفلسطينيين بصورة مباشرة. فبعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد في العام 1978 بين مصر وإسرائيل، بواسطة أمريكية، قررت وزارة الخارجية الأمريكية تخصيص أموال أمريكية لإنفاقها في المناطق المحتلة تحت قناع "تحسين مستوى المعيشة" للفلسطينيين. هدفت آلية تنفيذ هذا القرار إلى توجيه أموال الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بواسطة خمس منظمات أمريكية طوعية خاصة. أنشأت هذه الوكالات الأمريكية مكاتب لها في الضفة الغربية وقطاع غزة وبدأت تنسيق تخصيص هذا التمويل مع سلطات الاحتلال الإسرائيلي. وفي أعقاب الهجوم الإسرائيلي على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان عام 1982، تصاعدت لهجة الدعم الغربية للفلسطينيين الرازحين تحت

[74]- حنفي، ساري، طبر، ليندا، مرجع سابق، ص 79.
[75]- الناشف، اسماعيل، مرجع سابق، ص 382.

الاحتلال. وذلك لأن وكلاء هذا الدعم هم الوكالات والجمعيات الغربية. فمثلاً الدعم من المصادر الرسمية الأوروبية جاء من خلال المفوضية الأوروبية التي هي الذراع التنفيذية للاتحاد الأوروبي، وعدد من المنظمات غير الحكومية الأوروبية[76].

ما يبدو اليوم أنه ثمة تحول واضح في نمط التمويل الغربي ودور التمويل الغربي ودور المنظمات غير الحكومية العابرةs(TNGO)وحتى في تحديد على ما يصرف هذا التمويل . فقبل بدء "عملية أوسلو"، كانت المنظمات غير الحكومية الأوروبية والأمريكية العابرة للحدود والمنظمات الطوعية الخاصة(PVOs)، هي التي تقوم إلى حد كبير، بتوجيه الأموال المخصصة من المصادر الرسمية الأمريكية والأوروبية بالنيابة عن حكوماتها وبالإشراف عليها. فقد كانت هذه المنظمات غير الحكومية الامتداد الطرفي لحكوماتها أو أحزابها أو شركاتها المركزية، الخ، في الميدان: أي مثلاً كالمناطق الفلسطينية المحتلة من دول العالم الثالث، وبغض النظر عما إذا كانت تلك الأجزاء محتلة مباشرة من قبل القوات الأجنبية أو مستعمرة عن بعد أو مضطهدة من قبل نخبها الاقتصادية والسياسية والحكومية.كانت هذه المنظمات العابرة للحدود ترفع التقارير مباشرة إلى حكوماتها– مصدر أموالها– في عواصمها. وتماماً كما فعل قادتها العسكريون في الماضي وكما فعلت بعثاتها الدبلوماسية ماضياً وحاضراً، رفعت هذه المنظمات العابرة للحدود والتقارير والتحليلات والملاحظات إلى عواصمها فهي عدت وما تزال تعد مصدراً قيماً للمعلومات الاستخباراتية المفيدة حول ما يحدث على أرض الواقع[77].

يعد نهج هذا التمويل عاملاً للضعف ومصدراً للصراع داخل المجتمع الفلسطيني في ذات الوقت. حيث أصبح بوسع بعض هذه المنظمات ان تطرح موضوعات ومفاهيم كانت غائبة أو غير قائمة على الأجندة الفلسطينية قبل نشوء السلطة الوطنية الفلسطينية، مثل موضوعة "الحكم الصالح". وكان طرح مثل هذه الموضوعة مصدر قوة وجذب لصالح هذه المنظمات، الا أنه كان في نفس الوقت مصدراً لنوع من الخلاف والصراع مع بعض القوى الوطنية السياسية الفلسطينية التي ترى في طرح مثل هذه المواضيع أمراً سابقاً لأوانه. وقد كان للتمويل والمنح الخارجية أن تعطي الفرصة للمنظمات المدنية

---

[76]- نخلة، خليل، فلسطين وطن للبيع، روزا لوكسمبورغ وخليل نخلة، 2011، ص 187.

[77]- نخلة، خليل، مرجع سابق، ص 189.

لكي تشق طريقها على الساحة الفلسطينية من ناحية، لكن الجهات المانحة وخططها وبغض النظر عن رؤية هذه المنظمات الحقيقية وأهدافها الخاصة، مع ملاحظة أن كثيراً من الجهات والدول المانحة تسعى بشكل أو باخر لتحقيق أهداف خاصة معينة، منها السياسي المباشر كما في حال المؤسسات الامريكية وبعض مؤسسات الاتحاد الاوروبي، وتقدم بعض الدول المنح وفق أجندة خاصة تتعلق بالسعي لتحقيق بعض الاهداف ذات الصبغة المدنية المباشرة والصبغة السياسية غير المباشرة مثل السويد، بينما تحاول دول الاتحاد الاوروبي مثلاً بط مساعداتها ومنحها مباشرةً بمزيج من الاهداف المدنية المتساوقة مع توجهات سياسية واضحة مثل الالتزام بمسيرة السلام وما يتبعها من توجهات سياسية تنسجم مع الرؤية الخاصة لمفاهيم سياسية محددة[78]. يشير حنفي وطبر أنه لا يمكن فصل هذه الملاحظات عن التحول الشامل للمنظمات غير الحكومية الذي بدا في أوائل التسعينات، بالترافق مع دخولها في ما أطلقوا عليه "صناعة المعونة". كما أن عملية أوسلو التي سمحت بإنشاء السلطة الوطنية الفلسطينية وبدء"بناء الدولة" مدعوماً بتدخل البلدان المانحة ومبادراتها لبناء السلام، عززت أيضاً المجال لنمو المنظمات غير الحكومية الفلسطينية والمؤسسات المدنية. غير أن من المحير أن تعزيز المجال لنمو المنظمات غير الحكومية والمؤسسات المدنية ترافق مع اقتلاع المنظمات المحلية من داخل المجتمع ومن قاعدتها في الحركات الشعبية بالإضافة إلى ذلك، فقد شاب هذا التعزيز المستمر تصدعات وانفصالات، إذ أعيد وضع تصور الأجندة "الوطنية" وخلطها "بالسياسي"، وبالتالي أعادت المنظمات غير الحكومية المحلية والدولية على السواء تحديدها باعتبارها مفرطة التسييس بالنسبة للمنظمات المدنية[79].

بعد أن تصب هذه المنظمات أعمدتها داخل الأطراف؛ يبدأ تشكل التحولات الجديدة على المجتمع المحلي، تبعاً لاتصالها مع الرأسمالية والتمويل المشروط، كما يفككها ديلوز وغاتاري بأن توسع الرأسمالية يتم من خلال حركة مزدوجة من حل رموز المؤسسات المحلية فضلاً عن الأنظمة الثقافية والقانونية وكل أنواع "الإقليميات المترسبة والاصطناعية والوهمية أو

[78]- علي، ناصر، دور منظمات المجتمع المدني في تعزيز المشاركة السياسية في فلسطين، المركز الفلسطيني للدراسات وحوار الحضارات، بيت ساحور، 2010، ص 82-83.

[79]- حنفي، ساري، طبر، ليندا، مرجع سابق، ص 78.

الرمزية" واجتثاثها من المكان عنها. وحدث ذلك مع بداية اختفاء بعض منظمات المجتمع الفلسطيني المدني، والتي تخرج عن قواعد اللعبة. وتشمل حركة اجتثاث تلك المنظمات إعادة إضفائها وهي التي نلاحظها في قطاع المنظمات غير الحكومية الفلسطينية. وفي هذا الخصوص من المهم أن نعرف، كما يقترح عالم الاجتماع الفرنسي الآن تورين أن إحدى مزايا الحداثة الرأسمالية المتأخرة هي "فك الارتباط" ويشير ذلك إلى حالة لا تكون فيها البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية متماسكة بل متصدعة بأشكال من الانقطاع، إذ أن أشكال الحياة القديمة تعطلت ولكن لابد من استبدال مؤسسات ومعايير اجتماعية جديدة بها. ولا يعرقل "فك الارتباط" التماسك الاجتماعي فحسب، وإنما يحث على الشرذمة[80]". في هذا السياق ثمة نزعة ملحوظة باتجاه "إضفاء طابع الثقافة المحلية" ولكن بالاسم فقط، على بعض المشاريع الجديدة الكبيرة(المشار إليها باسم"البرامج")، لاسيما في مجال التنمية المؤسسية والرعاية الصحية والقضاء، التي تمولها أساساً الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، والاتحاد الأوروبي، والبنك الدولي. أعطيت هذه المشاريع أسماء عامية محلية، مثل"تمكين"و "حنان" و"نظام"، و"سيادة". تم استخدام هذه الأسماء لإظهار واجهة من الاهتمام الفعلي لهذه الجهات المانحة الغربية بالخصوصيات الثقافية للسكان المحليين كما تعبر عنها اللغة لمحاولة اخفاف حركة الاجتثاثات التي وضحها دولوز وغاراتي في البداية. يحدث هذا محاولةً لإظهار مدى اهتمام المانحين الغربيين في ثقافة الناس. وهذه النزعة هي مجرد نهج آخر لإضفاء الطابع الخرافي وإعطاء معنى تضليلي لمصفوفة السيطرة بأكملها المفروضة من خلال توفير الدعم السياسي[81].

تدخل مشاريع إعادة الاعمار ضمن التدرج النظري على أنها أحد البرامج التي مُولت من منظمات دولية وبالذات التمويل العالي الذي حازت عليه مشاريع إعادة الاعمار في مقاطعات الضفة الغربية بالذات من منظمات دولية عابرة للحدود، وفي هذا البحث سيتم تتبع أثر التمويل على صناعة العمار الجديد بعد الانتفاضة الثانية، ومواراة الموت داخل الفضاء المعماري المقدم للفلسطيني اجتماعياً تبعاً ل"صناعة المعونة"كما طرحها حنفي وطبر.

---

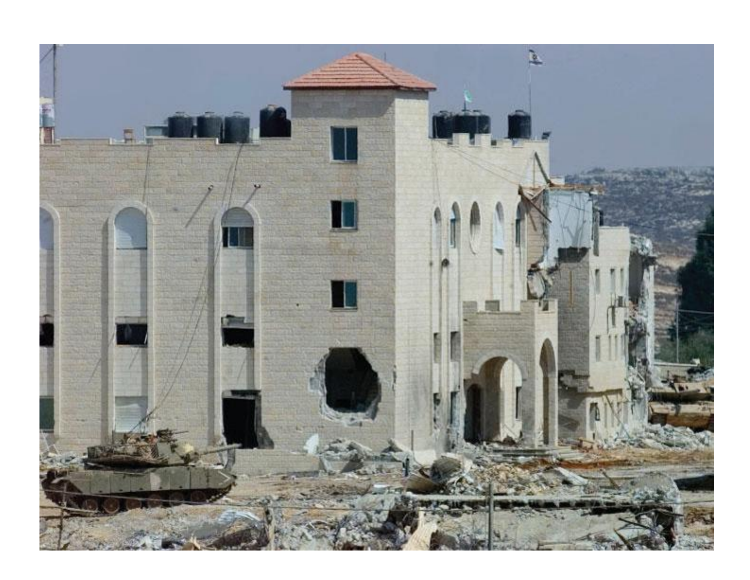
[80]- حنفي، ساري، طبر، ليندا، مرجع سابق، ص 85

[81]- نخلة، خليل، مرجع سابق، ص 192.

القسم الثاني

2.1موازاة الموت في موت العمارة ل"النموذج الأمني"

* مقاطعة رام الله أثناء اجتياح الضفة الغربية 2003[82]



*مقاطعة رام الله2002 [83]



[82]-أخذت الصورة من موقع http://www.dw.de/، حقوق الطبع محفوظة للموقع، وتمت زيارته بتاريخ 30-6-2013.
[83]-صورة للمصور جمال العاروري، 24\9\2002، من كتابه الذي يأرشف فيه فترة الخصار التي تعرض لها ياسر عرفات في مقاطعة رام الله، العاروري، جمال، حكاية حصار، جمال العاروري، 2008، ص 76، حقوق الطبع محفوظة للمصور.

***مقاطعة رام الله بعد إعادة الاعمار**



* مقاطعة نابلس أثناء اجتياح الضفة الغربية 2003[84]



[84]- صورة للمصور الفلسطيني عبد الرحمن القوصيني لحظة تعرض المقاطعة في نابلس للقصف الاسرائيلي 2003.

* مقاطعة نابلس بعد إعادة الاعمار[85]



* مقاطعة طولكرم أثناء اجتياح الضفة الغربية 2003[86]



[85]- أخذت صورة من موقع: http://www.tmfm.net، تمت زيارة الموقع 30-6-2014.
[86]- أخذت الصورة من موقع http://www.palestineremembered.com، تمت زيارة الموقع 30-6-2014.

* مقاطعة طولكرم بعد إعادة الاعمار 2014[87]



تعرض لنا مجموعة المقارنات البصرية السابقة؛ دلالات البصري للصورة الفاقدة لمحيط المعني، فالصورة المقدمة اولاً هي لصور تضامن المعمار مع حرب الجسد، والتي تنقل ما كان من أثر للحرب الإسرائيلية على الفلسطيني المنتهك لفضائه الاجتماعي بمعماريته. أما الصورة التي تتبعها فهي صورة تنسحب من دلالات كل ما سبق، وتنفصل من الأثر الذي رسم الألم فلسطينياً في لحظة تاريخية ما. "إن للصورة مداخلها ومخارجها؛ لها أنماط للوجود وأنماط للتدليل. إنها نص، وككل النصوص تتحدد باعتبارها تنظيماً خاصاً لوحدات دلالية متجلية من خلال أشياء أو سلوكيات أو كائنات في أوضاع متنوعة. إن التفاعل بين هذه العناصر وأشكال حضورها في الفضاء وفي الزمان يحدد العوالم الدلالية التي تحبل بها الصورة[88]". حيث تمثل العمارة صورةً من الصور البصرية في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، فهي جزء من الانتاجات الاجتماعية للفاعل، وجزء منعكس من هويته وتمثيله عن ذاته. "فعلم العمارة، كعلم الموسيقى، وعلم الرسم، يجب أولاً

[87]- أخذت الصورة من احد المهندسين المدنيين الذين عملوا بمشروع اعادة اعمار مقاطعة طولكرم، 2014.

[88]- بنكراد، سعيد، سيميائيات الصورة الاشهارية، الاشهار والتمثلات الثقافية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006، ص31-32.

إقامة موضوعاتها المتتالية بوصفها منظومات اتصال قبل أن تتوصل إلى دراسة مقبولة لهذه التنوعات من الائتلافات الدلالية أو التحويلات الثانوية التي تكونها تشكيلات البلاغة. إذا استطاعت بلاغة العمارة رجاء أن تستقي من البلاغة "صوراً" متقدمة عليها، فهي ستجبر تلك البلاغة بالمقابل على أن تعرف بطريقة أكمل "الرسائل المرئية"[89].

على سبيل المثال يرى ماجد عواد[90] *عن تصميم المقاطعة في رام الله:" هذه يسموها في العمارة فلسفة التصميم وأيضا لدينا فكرة التصميم، فلسفة التصميم هي الرسالة التي تريد توجيهها للعالم، أما الفكرة فهي بكيفية توصيل هذه الرسالة. البعض يقول أن المجتمع الفلسطيني اتسم بالقوة بعد الكارثة، وبالتالي أريد لهذا التصميم أن يعكس هذه القوة.*

فالرسالة التي نريد توصيلها للناس، كيف سنجردها ونقدمها لهم. الآن إذا أعطيت المقاطعة، ما هي الرسالة التي أريد إيصالها، أريد إيصال أني أعيش في مجتمع قوي؛ هذه تحتاج إلى تفكير عميق، يعني ما بدور "عالهيبة"، ولكن أريد شيئاً يعكس المستقبل، والأمل، صورة فيها اشراقة أكبر، يمكن أن لا أرى الدمار الذي حصل أبداً ، ولكن كل هذا يتبع لمقدار الحرية التي يحصل عليها المهندس" .

ما يحدث اليوم فلسطينياً كما تنقل لنا الصورة، وجود خطاب "سلمي" أي لا يرى في محيط معماره علاقة مع معركة الاستعمار، وذلك عكس ما حدث تماماً في بدايات الانتفاضة الثانية، وعملية الاجتياح الكاملة للضفة الغربية، والتي تظهرها الصور المستبقة لعمارة المقاطعات المهدمة، أما الصور التابعة هي مجموعة لأجزاء متشابهة من المقاطعات الجديدة والتي تنقل اللاأثر في عملية إعادة الاعمار التي حدثت على المقاطعات بعد 2007.

عند سؤالنا شكوكاني[91] عن آليات الإخفاء البصري التي لم تبق للحرب أي أثر أو أي رصاصة، أجاب" المبحوث: *"نرجع لعام 67 حدث دمار وحرب فمن غير المعقول أن نتركها، فقاموا بترميمها ولم يتركوا أي أثر وكنا نمشي على الطرق ونرى*

---

[89]- ، مجموعة مو، مرجع سابق، ص 533.

[90]- ماجد عواد، مهندس معماري يعمل في رام الله، وتمت مقابلته من أجل البحث، 2014.

[91]- هشام شكوكاني، يحمل شهادة الدكتوراة في الهندسة المعمارية، مؤسسة بيج دار، تمت مقابلته من أجل البحث 2014.

آثار الجنازير وفي النهاية يجب أن يرمم وأن يرجع جديداً ولكن ليست مهمتنا أن نوثق. يوجد مؤسسات خاصة توثق هذا الأثر وليس نحن" .

يمكننا تفسير أن ما يحدث فلسطينياً، هو بعكس ما يطرحه اوسمن عن تذكر الموت في بناء الحضارة،" إن ظاهرة تذكر الموتى تنقسم في واقع الأمر إلى نوعين من الذكرى: ذكرى موجهة إلى الماضي، وأخرى تتجه نحو المستقبل. فتذكر الموتى الموجه إلى الماضي هو الصورة الأكثر طبيعية، الأكثر أصالة، وهو النمط الأكثر عالمية في هذا النوع من التذكر. انه الصورة التي تعيش فينها مجموعة ما مع موتاها والتي تجعل بها هؤلاء الموتى حاضرين وموجودين دائماً في الزمن الحاضر والمتجدد باستمرار"[92]. لا نرى هنا أن المشروع الفلسطيني هو مشروع لبناء حضارة، وإنما محاولة لعدم ترك الفلسطيني لموتاه وأحيائه، منسحباً للمؤسساتية والخطاب الدولاتي الذي سيناقش في الجزء الثاني من هذا القسم.

وفي هذا السياق يرى دوبري بأن المجتمعات، إلى يومنا هذا كانت واقعيا مكونة من الأموات أكثر من الأحياء. فخلال آلاف السنين ظل الماضي والغور في الزمن طافحاً ومهدداً الحقل البصري، وظل المختفي يمنح للظاهر قيمته. فقد كان القريب والمرئي في نظر أسلافنا أرخبيلاً من بحر اللامرئي الذي له كاشفوه وتكهناته التي تصلح لتمثيله؛ ذلك أن اللامرئي أو ما بعد الطبيعة كان مجالا للخارق (فهو المكان الذي تأتي منه الأشياء واليه تعود). لذا كان من مصلحة الإنسان التصالح مع اللامرئي مما يجعله مرئياً. والتفاوض معه وتمثيله وتشخيصه، أما الصورة فإنها تشكل هنا لا الرهان، وإنما عماد التبادل والمقايضة في هذا التعامل الدائم بين الرائي واللامرئي[93]. ولكن؛ كما يقول الرائد صوالحة[94]:" *يجب أن نزيل أي أثر للهدم ليشعر الفلسطيني بأنه في دولة توفر له الأمان والسلام، فكيف يشعر بذلك إذا كان يرى الدمار من حوله، وفي مؤسسات دولته*". يحدث ذلك تبعاً لفوكو في كتابة "يجب الدفاع عن المجتمع" بأن الخطاب الفلسفي – القانوني الذي

[92]- اوسمن، ايان، مرجع سابق، ص 105.
[93]- دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص 25.
[94]- الرائد ياسر صوالحة، يعمل في أمن المقاطعات في مناطق شمال الضفة الغربية(جنين- نابلس- طولكرم)، تم اجراء المقابلة في شهر ايلول 2014.

ينتظم حول مسالة السيادة والقانون، يقوم بإخفاء الهزائم أو الانتصارات أو دم المعارك الذي جف داخل هذا القانون. وبالتالي يأتي الخطاب المقابل لذلك الذي يستخدم التأويل التاريخي، ليظهر الحقيقة والماضي المنسي، داخل المؤسسات والتشريعات، ليعلن دوام واستمرارية الحرب في المجتمع، وانتصار الحقيقة[95].

وتبعاً لما سبق يتضح أن الولع الفلسطيني بإنتاج الدولة ومؤسساتها جاء يعقلن مواراة الموت، وإخفاء القصة، تحت مسميات إعلاء هذا الخطاب الدولاتي أمام الفلسطينيين، ليروا أن "غير العادي" هو أن تبقي آثارا للموت أو الدمار داخل مباني المقاطعات، ويتم إرسال الإشارات للفلسطيني من داخل العمار بأن يعدوا أنفسهم لدولة بمؤسسات ضخمة بصرياً و"وغير مخترقة"، نحو وظيفتها المستقبلية. فبعد المواراة تبني السلطة الفلسطينية مهبطاً للطائرات، بعد أن تُسور محيطها وتوشمه بكاميرات المراقبة والأبراج "إن هذه الدلالات التي تختفي في ثوب "الوظيفي" و"العادي" و"المباشر" تعد في واقع الأمر مادة خصبة تستقي منها الإستراتيجية الاشهارية مجمل عناصرها في البناء وفي توجيه سلوكيات المستهلك[96]"، ومنطق الخطاب الدولاتي الذي يدعيه الخطاب الرسمي الفلسطيني.

---

[95]- بغورة، الزواوي، مدخل الى فلسفة ميشيل فوكو، دار الطليعة، بيروت، 2013، ص 51.
[96]- بنكراد، سعيد، مرجع سابق، ص58.





ما يمكن قراءته عن الصورة السابقة هو اختفاء التحفيزات الإيحائية ضد المستعمر الإسرائيلي داخل المقاطعات، حيث أصبحت مراكزاً تدعي هيئة مصطنعة للدولة وذلك بعكس ما يقدمه بنكراد عن الصورة؛ فكما لا وجود للحاجة المعزولة ولا وجود للرغبة المعزولة، كذلك لا وجود للفرد المعزول، أو الشيء المعزول. فكل فرد وكل شيء يجب أن يتنازل عن هويته الخاصة وعن تفرده ليتحول إلى مثير إيحائي يقود إلى معانقة النموذج المجرد والإحالة على ممكنات التدليل داخله. أما المنتوج فسيظل وحده متفرداً ومعزولاً وخاصاً؛ فهو يتمتع باسم وتاريخ واستعمال نفعي أو حضاري[97].

ويشابه هذا ما يطرحه بودريار في المصطنع والاصطناع، عن فوق– الواقع، إن فوق– الواقع هو المجتمع المشهدي الذي لا يعي ذاته كمجتمع مشهدي، هو عالم لا معنى فيه لعبارة "المشهد" وعبارة "الواقع". عالم نعيش فيه تبعاً لشيفرات مشهدية اندرجت في بنيتنا الإدراكية. فالرمز هو الواقع، ما يعني أن فوق – الواقع امتص كل شيء وصار مشبعاً، فالصورة أو المشهد المكتفي بذاته هو الذي يحدد بنية المجتمع، بإلغاء أي مسافة بين الدال والمدلول، إلغاء أي مرجعية، ومن هنا إلغاء كل قدرة نقدية. من قول أورويل الشهير" الحرب هي السلم"، وما في ذلك من تدمير لمبدأ التناقض، هذا المتطلب الضروري لأبسط منطق[98].

"فوق – الواقع عالم يجري العمل لإقناع الناس، مثلاً بأن الحرب هي السلم. والناس تعتقد بذلك، أو لا تفكر به أصلاً. هذا ما يبدو كأمر عادي: نشاهده على الشاشات. انه العمل لتخريب النظرة السوية إلى الواقع، بقوة الإعلام. فيكون الواقع في الميديا/الإعلام، لا الحدث. وعلى سبيل المثال، الغزو الأمريكي للعراق، والتلاعب الإعلامي بالوقائع والمعطيات وبراعة الإخراج باختلاق الروايات... تجعل المشاهد يرى كأن الحرب هي السلم. هنا تعمل الميديا/الإعلام على إلغاء واقعية الواقع: بحيث نرى مشاهد الجنود الأمريكيين يتصرفون في العراق وكأنهم في فيلم القيامة الآن، وتبدو الحرب كأنها لعبة

---

[97]- بنكراد، سعيد، مرجع سابق، ص 63.

[98]- بودريار، جان، المصطنع والاصطناع، تر جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ص30-31.

الكترونية، حيث يموت الناس كما يموتون في مشاهد لعبة لا أكثر"[99]. ويظهر بعض تصور المبحوثين المتلقين للبصري المعماري للمقاطعات، بأنها تحمل القوة والسيادة، ويستشعرون منها الأمل في الحصول على الحرية من خلال دولتهم الحديثة.

يشير المهندس يزيد الرفاعي[100] والمهندس ماجد عواد إلى أن المهندس المعماري يجب أن يمتلك الوعي الكافي لملىء الفراغ، برمزية معمارية منسجمة مع طبيعة المجتمع الذي يقدم له هذا الشكل المعماري، فالإنتاج الذي يقدمه يعيد تصور الفرد عن هويته وعن المكان الذي يعيش فيه، فهو قد يبعث أماكن متخيلة في بعض الأحيان، كأن يبعث في الفلسطيني المتلقي، مجموعة من آليات فرض السلطة من خلال مؤسسات أمنية كالمقاطعات، والتي يعتبرها يزيد الرفاعي بأنها متبوعة لرأس المال وشروطه التي يأتي بها.

"إن إنتاج الأفكار والتصورات والوعي مرتبط اولاً بصورة مباشرة وصميمية بنشاط البشر المادي وبصلاتهم المادية، انه لغة الحياة الواقعية.. وذلك الحال في ما يتعلق بالإنتاج الفكري كما يتبدى في لغة السياسة والقوانين والأخلاق والدين والميتافيزيقيا(...) إن الأخلاق والدين والميتافيزيقيا وسائر أشكال العقيدة، وكذلك أشكال الوعي التي تتجاوب معها، بل المسألة بالمعكوس، فالبشر بتطويرهم إنتاجهم المادي وعلاقاتهم المادية، هم الذين يحولون هذا الواقع الذي هو خاص بهم ويحولون فكرهم ومنتجات فكرهم(...) إن نقطة الانطلاق هي الأفراد الواقعيون والأحياء أنفسهم، ولا ينظر إلى الوعي إلا على أنه وعيهم هم(...) وانه حيث يتوقف التأمل النظري المجرد، يبدأ اذاً في الحياة الواقعية العلم الواقعي، الوضعي، أي

[99]-بودريار، جان، مرجع سابق، ص31.

[100]- يزيد الرفاعي، يحمل شهادة الدكتوراة في الهندسة المعمارية، ويعمل أستاذاً في دائرة الهندسة المعمارية في جامعة بيرزيت-فلسطين، أجريت المقابلة عام 2015.

تصور النشاط العلمي، صيرورة تطور البشر العملي. إن العبارات الجوفاء عن الوعي تتوقف، ويتوجب إحلال معرفة واقعية محلها"[101].

إن إحدى مظاهر الخطاب الدولاتي الذي يتم تبنيه فلسطينياً هو مجموعة من الأبنية التي تمثل رموزاً للدولة باعتبارها مؤسسات تمتلك الوظيفة والأداة لممارسة هذا الخطاب، وبالتالي تقوم على امتلاك مجموعة من الخصائص، ومجموعة من الدلائل السلطوية، وهو ما سيتم توضيحه في سياقه الفلسطيني من خلال تتبع التحليل في الجزء القادم.

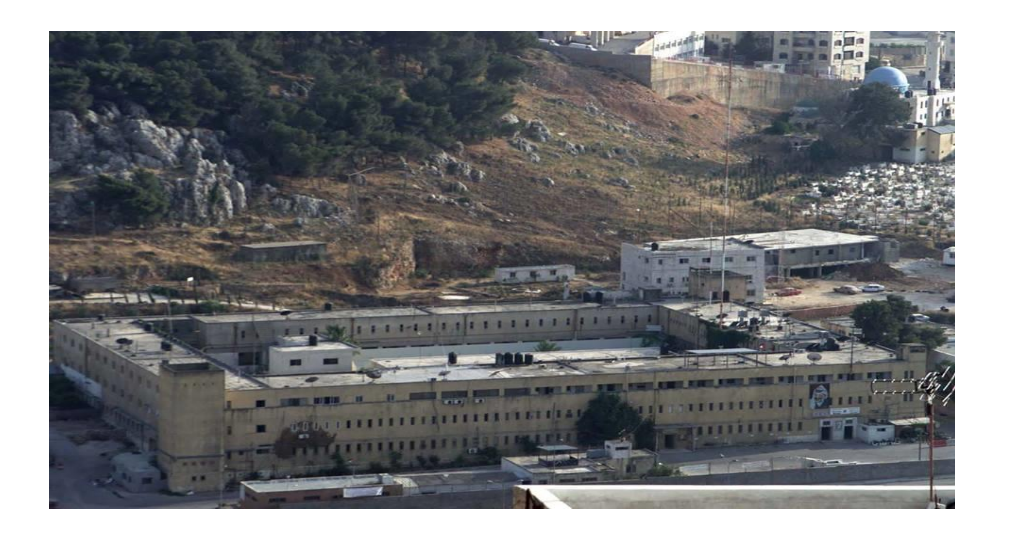
[101]- ماركس، كارل، انجلز، فريدريك، الأيدلوجيا الألمانية، تر جورج طرابيشي، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1965، ص19-21

2.2 تمثلات السلطة في عمارة "النموذج الأمني"

إعادة إنتاج العلاقة السلطوية من خلال العمارة الكلونيالية في عملية إعادة الاعمار "المقاطعات "كنموذج أمني"

إن ما يقدمه هذا الجزء هو تحليل لما يُحمَّل به العمار في الفضاء الاجتماعي من علاقات السلطة، وخطاب دولاتي، في "مشروع دولة" مستعمَرة كفلسطين، وفي محاولة جعل الفلسطيني"مواطن" عن طريق تعرضه للضبط والمراقبة من طرفين؛ الفلسطيني ذو السلطة الوهمية المنتجة استعمارياً، والإسرائيلي ذو السلطة الاستعمارية. وبالتالي سنقوم هنا بتحليل دلالات المعنى التي حملتها أبنية المقاطعات الجديدة، كمواراة مكان موت عمار المقاطعة السابق الذي هدم في بدايات الانتفاضة الثانية، ولكنه يحافظ على علاقة مع هذا المكان السلطوي الذي حمل سلطة استعمارية بريطانية من لحظة تأسيسه. ما تطرحه هندسة العمار الجديد للمقاطعات بصفتها الأمنية هو خاصية اجتماعية أولى على أنها جزء من مؤسسة الدولة. ويلي ذلك التصورات الأدائية للمراقبة والضبط الذي ينقل من خلال العمار لإعادة إنتاج سلطة وخطاب تلك المؤسسة. كل دلالات المعاني والتصورات الأدائي للمراقبة ستبرز في تحليل الخطاب الذي تبعثه صور الفضاء المعماري، والمقابلات الميدانية.

*صورة لمقاطعة نابلس القديمة [102]



[102]- مقاطعة نابلس القديمة: تصوير عبد الرحمن قوصيني

يتم مناقشة المقاطعات في هذا الفصل على أنها تقدم نفسها كمؤسسة دولاتية للفلسطينيين، والمحاولة هي بتفكيك أساس البنية المعمارية والخطابية التي جعلتها متموضعة في الفضاء العام الفلسطيني، ومشاهدة ومميزة بصرياً من خلال هندسة معمارية تنقل نماذج أمنية، والية فرض في أثرها ومضمونها داخل المجتمع الفلسطيني. نقلاً عن الكتاب السنوي لمركز الإحصاء الفلسطيني عن تاريخ مبنى مقاطعة نابلس أنه مع قدوم الاحتلال البريطاني لفلسطين وتحوله فيما بعد إلى انتداب في عشرينيات القرن الماضي، حرص على إيجاد مؤسسات له تمتد داخل المجتمع في ترسيخ وجوده. فقام بترسيخ البنية التحتية من تعبيد للطرق وبناء المستشفيات ومراكز الاعتقال، ومقرات القوات التابعة له. وأكثر ما تميز به الانتداب في تلك الفترة أن جعل المدن الفلسطينية الكبرى(نابلس- رام الله- جنين- أريحا- طولكرم- بيت لحم- غزة) مقراً أساسياً لقواته، ليشمل على مكاتب القيادة العليا في المدينة وعلى معتقل للثوار الذين كانوا يقاومون الانتداب البريطاني في تلك الفترة، وبات يعرف هذا المقر ب"المقاطعة". وقد بنيت المقاطعة على يد البريطانيين أوائل القرن الماضي، وتم اختيارها لتكون على أنقاض قلعة نابلس الشهيرة في عهد المماليك، ويرجع البعض أن الهدف الذي بنيت من أجله جعل المشرفين عليها يهتمون بقوة البناء وتقويته، وقد استخدمت كمقر عسكري بريطاني، ومقر للحكم التنفيذي، واستقبال المندوب السامي، وكسجن للمقاومين[103]. تُفسر سيطرة المستعمر على المكان عند اليساندرو بيتي من منظور السيطرة على تدفقات شبكة البني التحتية، تمثل تلك الأساليب، إلى جانب دورها في تقوية الارتباطات، أداة تجري بواسطتها السيطرة على أجزاء كاملة من السكان والمناطق، وتصفيتها وعزلها. ففضاء الحركية والتدفقات، بالنسبة إلى بعضهم، ينطوي دائماً على وجود حواجز أمام آخرين. وإيجاد شبكة من البنى التحية يقتضي ضمناً وجود أيدلوجيا للتصورات الفضائية والاجتماعية، واعية إلى حد ما، لأسباب ودواعي الاستخدامات[104]. ما حدث بعيد أوسلو وقدوم السلطة لفلسطينية، هو إعادة استملاك لمكان السلطة الاستعمارية التي كانت؛ ليس باعتباره مكاناً فلسطينياً وإنما باعتباره مكاناً ينتج ويعيد إنتاج السلطة والرقابة بالمفهوم والممارسة.

[103]- الجهاز المركزي للاحصاء الفلسطيني، محافظة نابلس، الكتاب السنوي(3)، رام الله، 2011، 32

[104]- بيتي، اليساندرو واخرون، حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي، تحرير ساري حنفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010، 54.

إن إشكالية التماهي مع صورة الدولة الأوروبية الحديثة تكمن في أن الحركات المناهضة للكولونيالية غالباً ما عبرت عن نفسها من خلال الاستحواذ على أشكال تستعيرها من مؤسسات المستعمِر وتردها عليه. فغالباً ما صيغ الصراع في سياق خطاب" القومية" المناهضة للكولونيالية الذي اقتبس فيه شكل الدولة الأوروبية الحديثة، ووصف كعلامةٍ للمقاومة. حيث أصبحت هياكل المؤسسات الإدارية العامة أو مجالس التمثيل النيابي السياسي المحلي، هي نفسها الفضاءات التي تمركز بداخلها خطاب القومية المناهضة للكولونيالية، وتشكلت فيها حركات المطالبة بدولة قومية مستقلة في عصر ما بعد الكولونيالية[105].



تأتي أهمية الدولة في الطرح الغربي، بأنها أداة لترسيخ الهيمنة والقمع، وإحلال خطاب القوة المشرعنة، بالتالي فهي تعيد تشكيل الفضاء الاجتماعي من نقطتي "القوة"، و"الموافقة"، عن طريق مؤسسة القمع كالشرطة أو الجيش، أو عن طريق مؤسسات أيدلوجية أخرى كالأسرة والإعلام، فعلى حد تعبير غرامشي" الأفكار يمكنها أن تصوغ الواقع المادي"، وبالتالي

[105]- بيل اشكروفت واخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية ، القاهرة،2010، 63

يتم إعادة إنتاج النظام المسيطر عن طريق خلق أفراد مكيفين أيدلوجياً لقبول قيم النظام. إن حداثية الدولة تبعاً لفوكو تكمن في أن سلطتها تبتعد عن العقاب الجسدي والتعذيب، وإنما على الجسد الإنساني بصورة غير مباشرة من خلال السجن أو المصح، تخالفه في هذه ميجان فون بأن الدولة الاستعمارية لم يكن لها ثنائية فوكو "المنتجة" وما يقابلها من السلطة "القمعية" داخل السياسة الحيوية[106]، وإنما نادراً ما كانت تكون حديثة بالمعنى الأوروبي، واعتمدت على قدرٍ كبير من السلطة القمعية. فينما يكون في الدولة الحديثة رعايا معياريين ورعايا شاذين، يكون في المقابل كل شخص استعماري هو "آخر"ولم يكونوا رعايا أبداً وان كان باطنياً في بعض النماذج. ولكن وبالعودة إلى الأفكار الغرامشية عن الهيمنة وكما تطرح انيا لومبا فان الحكومات الاستعمارية حاولت أن تكسب "موافقة" بعض المجموعات بالرغم من استخدامها للإكراه العنيف مع مجموعات أخرى. ويكمن تأثر المجموعات الموافقة باليات الدمج والأفكار الأيدلوجية عند المهيمن عليهم أنفسهم، وتصبح بالتالي إحدى مركزيات الحكم الاستعماري[107].

عند سؤالنا للرائد صوالحة *إذا كان هناك معرفة مسبقة بأن أصل المقاطعة بريطاني، فلماذا تمت إعادة بناء المقاطعة الجديدة عليها؟، أجاب "لأنها أراضي حكومية، أي تتعاقب عليها الحكومات، وهي تتبع لمناطق a فالسلطة الفلسطينية تمتلك سيادة تامة عليها، كما أنها تقع في منتصف المدن. ثم سئل هي يمنع ذلك أي جيب صهيوني من أن يدخل المقاطعة؟، أجاب الدولة الفلسطينية القادمة تخطط لحلول جذرية في مناطق فلسطين 67، فسألته الباحثة: وبخصوص المستعمرات الإسرائيلية في الضفة الغربية؟ فأجاب طبعاً سيكونوا تحت خيارين؛ إما أن يخرجوا"مواطنيهم" من مناطق فلسطين67، أو أن يصبحوا تحت السلطة الفلسطينية، فالسلطة الفلسطينية تحاول توفير الأمن من خلال بناء مؤسساتها الكاملة*". يبدو أن الخطاب الجديد في المؤسسة السياسية الفلسطينية أخذ بالترسخ نحو دولة منفصلة على حدود 67، ومحاولة لرسم السيادة الدولاتية في تناسي للحركة الاستعمارية الصهيونية الموجودة. ونعيد لنكرر فكرة ادوارد سعيد عن السلطة الوهمية في الحالة الفلسطينية، التي ينتجها المستعمِر عند المستعمَر لدرجة تحليه الكامل بلعبة مشروع الدولة القادم "إن هناك نوع من

---

[106]- أسوار مقاطعة نابلس، تصوير الباحثة، في شهر أيار 2014.
[107] -لومبا انيا، مصدر سابق، 43- 46

الخصيصة القابلة للتكرار في ذلك وهي خصيصة تأتي من تاريخ الاستعمار في القرن التاسع عشر. على غرار ما فعله الفرنسيون بالجزائر حيث كانوا يجدون مناطق يمكن وضع السكان المحليين الراغبين في المعرفة في قراهم تحت إمرة رؤسائهم المحليين. وقد فعل البريطانيون ذلك في غرب إفريقيا فيما يسمى" الحكم غير المباشر"، حيث كانوا يعثرون على بعض الأهالي المحليين ليقوموا بدورهم بحكم مواطنيهم الجامحين وصعبي المراس، بينما تظل أنت بوصفك قوة احتلال محتفظاً بالسلطة الحقيقية. وفي جنوب إفريقيا كانت الفكرة أن يوضع السود في مخيمات حيث يمكن لهم أن يحصلوا على خصائص السلطة، لكن دونما امتيازات سلطة حقيقية، فهم لم يكونوا يسيطرون على الأرض ولا على المياه، بينما يسيطر البيض على المداخل والمخارج، وهذا بالضبط هو النموذج الجاري تطبيقه هنا؛ فالمناطق الفلسطينية، والتي هي صغيرة ومقسمة إلى مراكز للسكان الفلسطينيين إنما تكافئ تلك المخيمات حيث يجري توليد انطباع لدى شخص ما مثل عرفات، أو أنه يخلق لنفسه الانطباع بأنه هو القائد، لكن الخيوط الحقيقية يتم تحريكها من خلفية المشهد بأصابع المحتل الاستعماري"[108].

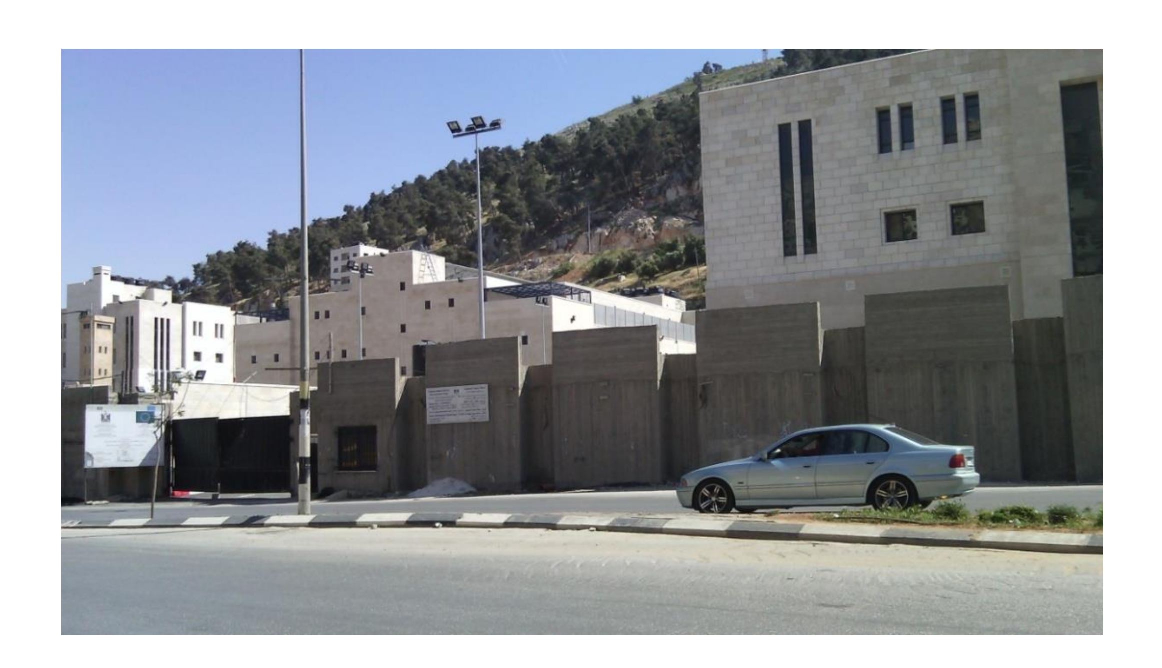
عن تصميم بناء مقاطعة رام الله يجيب المهندس هشام شكوكاني *"المقاطعة في الأصل بنيت على نموذج بريطاني، برتوتايب معين، أو حتى هو كان سجن بني على أيام بريطانيا، ثم بنيت مقاطعات لاحقا ، وصممت هكذا حتى تعيد فكرة السيادة عند رؤية الناس لها. ولكن ما هي خلفيته السياسية لا أستطيع أن أقدم إجابة لذلك!*". لا يفصل الفلسطيني سلطة المستعمر عن سلطة مؤسساته فقط، بل يعتبرها امتداد حكوماتي متوالي بنفس الأدوات الفيزيائية وحتى الخطابية.

وعليه فإن عملية استهلاك هذا الشكل السياسي لا يعيد فقط إنتاج هيمنة استعمارية بريطانية قديمة على فلسطين، وإنما يحبس فلسطين والفلسطينيين بمتاهة الاستهلاك الحداثي، كما يحدث على مجمل الصعد الاجتماعية الفلسطينية، سواء كان باللباس أو العمارة، وتغلغل السياسات الليبرالية والنيوليبرالية في فلسطين. إن ما يقدمه إيليا زريق في مقالته بناء الدولة في فلسطين من خلال أدوات المراقبة تكمن بطرح إشكاليات استهلاك هذا النمط على الفلسطينيين وقدرتهم التحررية التي تختفي في تقنيات الإدارة والضبط والمراقبة التي تعد مؤسساتياً غير جاهزة لها، فممارسات المراقبة تعتبر إشكالية معاصرة في

[108]- سعيد، ادوارد، مرجع سابق، نفس الاقتباس، 49

حقول علم الاجتماع داخل الإطار الايدولوجي الجمعي لبناء الدولة القومية[109] . يطرح ذلك أيضاً علي شريعتي في كتابه" العودة إلى الذات"، تحت فصل المتشبهين بالاستعمار، ويذكر أن هؤلاء مجرد متشبهين استهلاكيين، ووجودهم عبارة عن مأساة مضحكة أكثر مما هي مؤلمة. هم يستهلكون فقط، فهم شبه بشر وليست لهم القدرة على التمييز والحسم والاختيار وتحليل الأمور. أنهم مقلدون فحسب، يتبعون عصرنة وحضارة، نقلت العقول إلى العيون[110].

*أسوار مقاطعة نابلس



يُظهر المقطع الجانبي للمقاطعة سوراً مرتفعاً عن الشارع الفلسطيني، وصولا لارتفاعه عن وعي الفرد الفلسطيني؛ في لعبة مشروع الدولاتية. حيث تعكس استخدام "السلطة"الفلسطينية أدوات المراقبة والضبط داخل الفضاء العام. تنحت الدولة هيمنتها في وعي الإفراد من خلال هندسة فضائهم العام وبالذات بصرياً كنقطة تلاقي أولى مع رموز "السيادة"، التي تحاول رفع أعمدتها في عمار أبنية مؤسساتها. ففي مقابلة د. محمد اشتيه[111]، لمعاً[112] في سؤالهم عن إعادة اعمار المقاطعات

[109]- زريق، ايليا، بناء الدولة من خلال أدوات المراقبة، المجلة البريطانية للدراسات الشرقية، 2001، 205-227.
[110]- شريعتي علي، العودة الى الذات، تر ابراهيم الدسوقي، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، 1986، 142-143.
[111]- د. محمد اشتية: وزير الأشغال العامة والاسكان.

الجديدة:"*يأتي هذا المشروع ضمن خطة الحكومة الفلسطينية لإعادة بناء مقر المقاطعات التي هدمها الاحتلال في محافظات الضفة الغربية، على اعتبار أنها رمز من رموز السيادة، كما أننا ننظر إلى هذا المشروع بكل الأهمية كونه يسهم في التحضير لإقامة الدولة المستقلة، ومؤسساتها القادرة على حفظ النظام، وفرض سلطة القانون، لما للأمن من أهمية في حياة المواطنين وتأثير على الانتعاش الاقتصادي*"[113].

وكما عبر الرائد ياسر صوالحة عن بناء مقاطعة نابلس "الجديد" *بأنها هي الهندسة المعمارية المطلوبة، لأنها تمثل رمزاً لسيادة لدولة فلسطين، وأضاف" ألا ترين ضخامة الأبنية ومساحتها الكبيرة التي ترمز إلى أنها مؤسسات دولة فلسطين وتشير إلى سيادتها"* ، فالسيادة تضفي شرعيةً لصورة الدولة أمام أفرادها، و ذلك النظام القانوني، و الحقل القضائي اللذان يشكلان الأرضية الداعمة لعلاقات الهيمنة و تقنيات الإخضاع المتعدد الأشكال. فلا يجب النظر إلى القانون من جانب تثبيت الشرعية و لكن من جانب إجراءات الإخضاع التي يقيمها[114]، إلا أنه في الجهة المقابلة يوجد انضباطات مظلمة و صامتة و بكماء تعمل في الأعماق في الظلام و تشكل الأرضية التحتية الصامتة للآلة الكبيرة للسلطة، لتصبح اللحظة المادية للإخضاع هي اللحظة المشكلة للذوات[115].

وما سبق يشير إليه المهندس غسان نينو[116] في إجابته عن آلية وضع التصميم المعماري للمقاطعات الجديدة في الضفة الغربية *" في تصميماتنا أخذنا أول شيء أنها مبانٍ أمنية والمفروض أن تأتي بضخامتها لتعكس صورة السلطة الفلسطينية، فمن المنطلق هذا استعملنا الفخامة والقوة وفتحات الشبابيك والجدران المسلحة، واختبرنا أن هذه الحيط لن يدخله قذيفة دبابة، وشبابيك صغيرة من ناحية أمنية، ولكن بنفس الوقت هي مبانٍ حضرية، صحيح أنها أمنية ولكن مش "بعبع" لا*

---

[112]- معاً: وكالة اخبارية فلسطينية، تمت زيارة الموقع في تاريخ 15-10-2014.

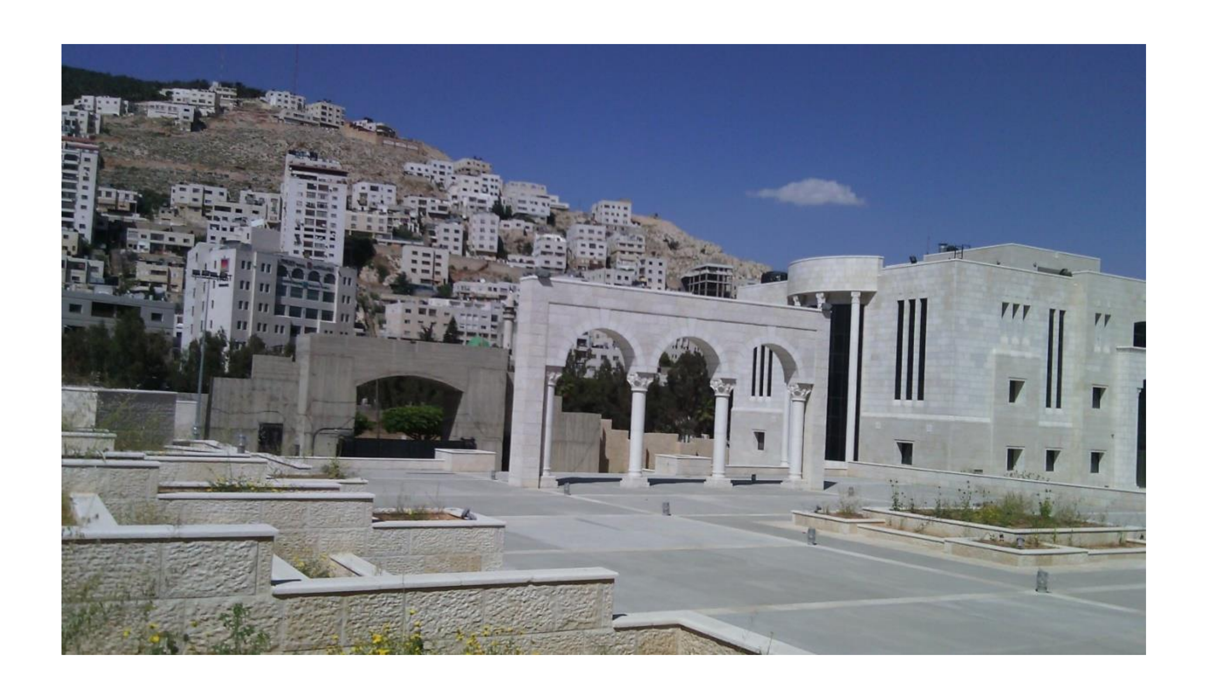
[113]- www.maannews.net خبر بعنوان" اشتيه يصادق على احالة عطائين لاعادة بناء مقر المقاطعة في نابلس، 15-12-2009.

[114] - فوكو، ميشيل ، تر الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت، 2003 ، ص 52.

[115] - فوكو، ميشيل ، يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص 53.

[116]- غسان نينو، مدير مكتب نينو للاستشارات الهندسية، وهو المكتب الذي قام بتصميم المقاطعات في الضفة الغربية ما عدا مقاطعة رام الله.

تخيف الناس، فتعكس المبنى الأمني ولكن تخدم الأمن وبنفس الوقت يعطي راحة للمواطن لأنها سلطتنا "ومنا وفينا"، فهي للشعب الفلسطيني وتعكس الصورة الحضرية لسلطتنا، وهناك مبانٍ استعملنا فيها جزء من التراث الفلسطيني كالأقواس".



يلخص ميشيل فوكو نظريته عن السيادة على اعتبارها دائرة من الذات إلى الذات، ويجب أن تصبح ذاتاً، على أنها عنصر إخضاع في علاقات السلطة. فالسيادة تقيم علاقة سياسية من الذات إلى الذات أولاً. أما ثانياً فهذه النظرية تقدم في البداية تعدد السلطات ولكنها ليست سلطات بالمعنى السياسي للكلمة إلا بشرط يجعلها تقيم بين الإمكانيات والسلطات وحدة أساسية، هي وحدة السلطة. أما وان هذه الوحدة تأخذ صورة العاهل أو صورة الدولة، ومن صورة الدولة مثلاً سيتم اشتقاق مختلف ملامح واليات ومؤسسات السلطة[117].

تعكس إجابات المبحوثين سواء كانوا من منتجي صورة العمار، أو من مستقبليها مجموعة من تخيلهم عن ذاتهم في إطار تحقيق صناعة "الدولة" بشكلها الفلسطيني، وأن العمارة المقدمة في المقاطعات بنموذجها الأمني هي أساس من قوة التخيل وضرورة تحقيقه جمعياً. فإذا افترضنا إنها واقع مصطنع على حد تعبير بودريار أو "فوق–الواقع" وقوتها تكمن في القدرة على

[117] فوكو، ميشيل، يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص 61.

تعميم الاصطناع في مصلحة الجموع، والجمهور، والجماهير، والطبقات، والأفراد، وإنتاجات للوعي تحفظ به وجودها على أنها البديل الوحيد والممكن للمجتمع[118]، فتصبح التشريعات، والخطابات، والقانون متمفصلة حول مبدأ السيادة للحد الاجتماعي وتفويض كل واحد بهذه السيادة وفي الوقت ذاته تأخير للإكراهات الانضباطية التي تضمن وتؤمن فعليا انسجام ذلك الجسد الاجتماعي[119].

***أسوار وأبراج مقاطعة نابلس من الداخل**



[118] - بورديار، جان ، المصطنع و الاصطناع ، تر جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الاولى، ص 37،2008.

[119] - فوكو، ميشيل ، يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص 61.

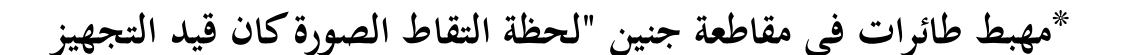
* وأبراج مراقبة مقاطعة طولكرم



*السجن في مقاطعة نابلس



الصور التي تم عرضها هي لأبراج المراقبة والأسوار، ويتخللها الشكل الفيزيائي للأجساد التي تقوم بتنفيذ الأمر القانوني داخل الفضاءات العامة، تنقل خطابات التشكل السلطوي في التوجه الفلسطيني الجديد، نحو شكل الدولاتية التي استهلينا به هذا الجزء، تشكل أحد عناصرها كما يطرح فوكو بأن السيادة ليس فقط أداة لربط الجميع في وحدة كوحدة المدينة أو الأمة أو الدولة ، بل أصبح لها وظيفة خاصة و هي الإخضاع [120].تتم عملية الإخضاع هذه مع مجموعة من الأساليب العقابية التي تضمن لها البقاء و الاستمرارية من قبل الأفراد الخاضعين"فالسلطة تنتقل بواسطة الأفراد ولا تنطبق عليهم"[121]،فالفرد هو أثر من آثار السلطة أو نتيجة من نتائج السلطة إلا أنه يوصلها، فالسلطة تنتقل بواسطة من تشكل[122]، وكون هذه السيادة هي المنظمة للقانون التشريعي الذي يسمح بتركيب آليات الانضباط من خلال نظام من القوانين يقنع و يغطي الإجراءات التي تخفي ما يمكن أن يكون هيمنة و تقنيات الهيمنة، و تضمن لكل الذين يمارسونها حقوقهم من خلال سيادة الدولة[123].


*مهبط طائرات في مقاطعة جنين "لحظة التقاط الصورة كان قيد التجهيز



[120]- ميشيل فوكو ، يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص 19.
[121] - ميشيل فوكو ، يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص 54.
[122]- ميشيل فوكو ،يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص 55.
[123]- ميشيل فوكو ، يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق،ص 61.

*** مهبط الطائرات في مقاطعة رام الله[124]**



فما نلاحظه من إشكاليات الطرح المعماري الجديد للمقاطعات، ما يكمن في كمية أدوات التحصين الأمني مقابل "المواطن الفلسطيني"؛ كيف تخلق السلطة بؤراً بصرية دفاعية يقابلها الفاعلين داخل مجتمعهم المستعمَر، لم يعرف طريق حريته من جدار الفصل العنصري، ليتداخل فضاؤه العام بنوعين من الانضباطات؛ الانضباطات الاستعمارية الإسرائيلية، والانضباطات السلطوية الفلسطينية المعاد إنتاجها من المستعمر على البصري والجسدي الفلسطيني في آن واحد. يتجسد كل ذلك في كمية أبراج المراقبة التي تحيط البناء الجديد للمقاطعات في كل الضفة الغربية، وعلو الأسوار الحصينة ب"الباطون المسلح" التي لا يرى منها الفلسطيني ما في داخل إحدى مؤسسات"دولته" الجديدة. سيلاحظ ذلك التشابه في الصور المدرجة لبرج مراقبة إسرائيلي، وبرج مراقبة آخر في مقاطعة رام الله. كل ذلك يرتبط بإعادة انتاجات علاقات السلطة حتى في المجتمع المستعمر من خلال مفهوم الدولة المجتر، كما تم توضيحه في بداية هذا القسم. بحيث يربط زريق بين الحقوق والمراقبة من خلال مفهوم "جدلية السيطرة" فمفهوم المواطنة تم اعتناقه من قبل الدولة من أجل تقديم جميع الخدمات كدور تعزيزي للمراقبة[125]. يقول هنا يزيد الرفاعي*"فكرة المقاطعة هي السيطرة على الفراغ، فهي نموذج سيطرة*

---

[124]- أخذت الصورة من موقع http://paltoday.ps/

[125]- زريق، ايليا، بناء الدولة من خلال أدوات المراقبة، المجلة البريطانية للدراسات الشرقية، 2001،ص 205-227.

ووجد للسيطرة على الفضاء العام، وبرمزيته التاريخية هي رمز لمعاناة الناس لأنها كانت تمثل مركز الحكم الأردني وثم مركز الحكم الإسرائيلي. هناك وجهتين نظر، لا بد بالتعامل مع المقاطعات كشواهد إنسانية مهمة كانت عاملاً في تشكيل المدينة، وارتبطت بتفكير الناس، وعملت على تغيير هوية المكان حتى لو كانت سلبية، ولكنها أيضاً تعكس جانب المقاومة ضد الفعل الإسرائيلي الذي صار فيها والاضطهاد الذي حصل فيها، وبالتالي أنا ضد تماما في إزالة أي شواهد ترجع الذاكرة لأحداث الاجتياح. ولكن أنا عندي مشكلة في تبني نفس الوظيفة التي كانت في المقاطعة وتعود لتصبح مركز للسلطة أو تملك أي طبيعة أمنية أو عسكرية، وظيفياً ممتازة جداً إنها تكون سجن لأنها بنيت لتكون سجن، وإذا كانت مركزا لفرض الرقابة على الناس فهي أيضا ممتازة جدا، ولكن لو أنا مستشار، ولحسن حظي أنا لست مستشار عن ذلك فبرأيي يجب عليهم أن يقطعوا أي صلة بين وظيفتها سابقاً أيام الحكم الإسرائيلي واليوم، ولكنها بهذا الشكل تعيد فكرة فايتسمان "بأنك تسكن بيت عدوك" وبالتالي تصبح مرئياً على أنك العدو نفسه"[126].

***أبراج مراقبة إسرائيلية**[127]



---

[127]-أخذت الصورة من موقع http://www.almatareed.org/

*** أبراج مراقبة فلسطينية**[128]



2.3- فصل العمارة فصلاً تخصصياً في المؤسسة الدولاتية:

تظهر المقاطعات الجديدة شكلاً جديداً من التخصص المعماري، بفصل البناء مع التخصص الأمني للأجهزة، وذلك بعكس المقاطعات القديمة التي كانت بناءاً واحداً يضم داخله كل الأجهزة الأمنية. حيث تضم المقاطعة مباني منفصلة لجهاز الأمن الوطني، والشرطة، والأمن الوقائي، والمخابرات العامة، وقائد المنطقة العسكرية، والمحافظة، والسجون، ومبنى الأركان، والمنامات. يعطي عن ذلك تفصيلاً نينو في تصميمه المعماري للمقاطعات الجديدة *"اليوم المقاطعة فيها جميع الأجهزة الفلسطينية داخلها وكل جهاز يعرف اختصاصه واستقلاليته، مبنى المحافظة له استقلاليته عن مبنى الأمن الوطني وعن السجن وعن المستشفى، فكانت الفكرة بنايات مرتبة ومنفصلة وبينهم مساحات"landscape"، فعندما يدخل عليه المواطن أيام الانجليز كانت تخيف المواطن لأنها كانت تمثل حكم الانجليز، وكانت الفكرة أن نزيل الرعب من قلب*

128- أبراج المراقبة داخل مقاطعة نابلس المعاد اعمارها، الصورة من تصوير الباحثة.

المواطن اتجاه المقاطعة، ولكن أن تبقى تعكس صورة السلطة الفلسطينية الموقرة، فإحنا بدنا نرجع مقاطعة فلسطينية بنموذج فلسطيني داخل الأرض التي شكلت رعب للفلسطينيين من قبل" .

يذكر د. اشتيه في مقابلته عن مقاطعة نابلس" *بأن فلسفة المشروع تقوم بأن يعكس التصميم أهمية ووظيفة المشروع وهي: النظام والقانون والسيادة، والأمن وخدمة المواطنين، حيث تم تصميم المباني معمارياً بشكل يتناسب مع طبيعة المشروع ويكون متجانساً مع النسيج العمراني الفلسطيني، ومعبراً عن الهوية الفلسطينية"*[129]. ويتناقض ذلك بما جاء به المهندس يزيد عناني في محاضرة له عن العمارة وتغيراتها فلسطينياً أبدى قلقه اتجاه ملامح عمارة اليوم، هذا الملمح الذي يتصل بإعادة إنتاج المبنى –الثكنة. ويطرح على سبيل المثال "المقر الرئيسي للسلطة الفلسطينية في المقاطعة" في مدينة رام الله، بحيث يشكل حالة خاصة بطبيعة الحال، لكن خصوصيته عممت على مجمل فلسطين. هذه العمارة تقترح علينا الظن أن أهل السياسية يخافون من شعبهم. قد يندهش المرء حين يرى السلطة تستخدم عناصر دفاعية في عمارتها، كما لو أنهم يخشون العابرين من مواطنيهم[130].

تمتلك المؤسسة نظاماً داخلياً يعكس للخارجي آليات الضبط والدمج الاجتماعي، فنظرية السيدة تحاول أن تبين كيف يمكن للسلطة أن لا تقوم تحديداً على القانون وإنما تقوم على نوعية من شرعية المؤسسة، مؤسسة أكثر من القانون، لأنها نوع من القانون العام لجميع القوانين[131].

فالمقاربة النسقية للمؤسسة تكمن بأنها تتشكل ضمن أربعة أنساق فرعية؛ وهي نسق الأهداف والاستيراتيجيات، نسق الهيكل التنظيمي والبنية التنظيمية، نسق التقنيات والوسائل التكنولوجية، واخيراً النسق الثقافي، وينظر للمؤسسة بأنها تعيش حالة تفاعل دائم بين هذه الأنساق الفرعية من جهة، وبينها وبين النسق الكلي من جهة أخرى، فمهمة النسق الثقافي

---

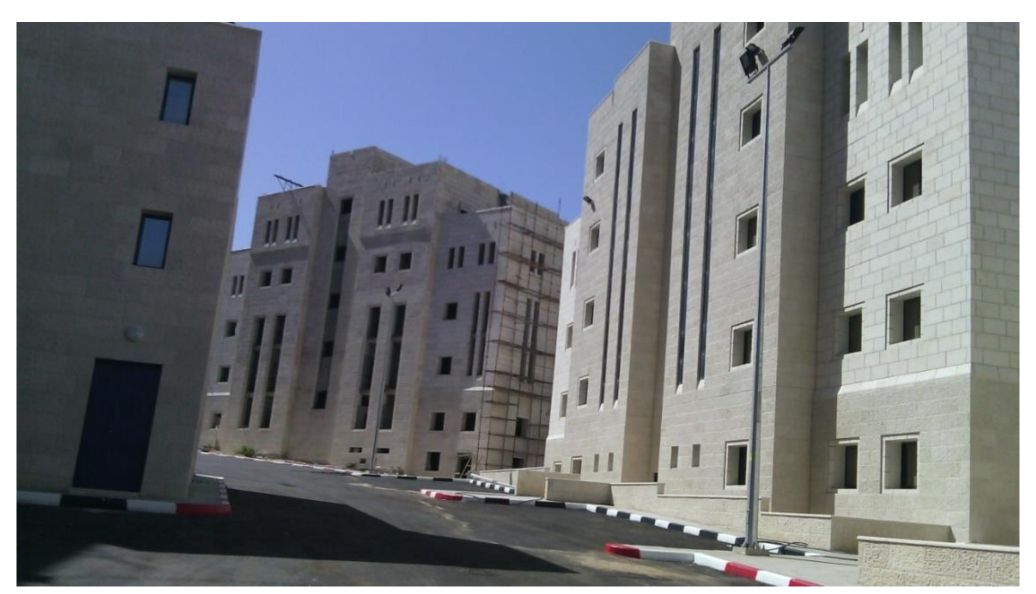
[129]- مقابلة معاً مع وزير الاشغال العامة والاسكان، مرجع سابق.

[130]- عناني، يزيد، Ramallah DCE، محاضرة ألقاها عن العمارة بتاريخ 22-7-2011، من موقع http://www.artterritories.net/

[131]- فوكو، ميشيل، يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص 62.

يسطر في وظيفيتين، الأولى هي تحقيق الضبط الاجتماعي، والثانية الدمج الاجتماعي. فآليات الدمج والتأقلم هي كفاءة جماعية، وليست فردية، كما أنها ضرورية من أجل بقاء الجماعة واستمرارها[132].





[132]- المهدي، بن عيسى، ثقافة المؤسسة كموجه للسلوكيات والأفعال في المنظمة الاقتصادية الحديثة، جامعة ورقلة، 147-158.

2.4 سوسيولوجيا الاستقبال" تلقي النموذج الأمني من الفلسطينيين"

يقدم هذا الجزء وصفاً لعملية التلقي لمنتج العمارة الأمنية المتمثلة في نموذج المقاطعات عند الفلسطينيين، ومن خلال ذلك رؤية تصوراتهم عن ذاتهم ضمن المؤسسة "الدولاتية الفلسطينية" وخطابها، واستدخال هذا الخطاب من خلال صورة العمارة المتلقاة وتداخلها مع تشكيل ذاكرة الأفراد. وعلى حد تعبير هالبواكس فنحن نعايش الأشياء بالنظر إلى الآخرين قبل كل شيء وبالتقابل معهم، نعايشها في سياق أطر اجتماعية أخرى معطاة و موجودة سلفاً تحدد لنا أهمية الأشياء ومغزاها؛ فلا توجد ذكرى بدون إدراك حسي[133]. والأساس في التوجه لرؤية المبحوثين المستقبلين هو بمحاولة إيجاد تحليل سوسيولوجي يخرج من دراسة إنتاج الهيمنة ورؤية الثقافة الأخرى وتصوراتها، ومدى تأثير الثقافة المهيمنة عليها، حتى يتوفر للسيولوجيا قدرة النقض الفعال الخارج عن اعتباط بنية الخطاب السلطوي في الإنتاج.

يأتي التلقي في هذا الجزء بارتباطه مع التفكيك؛ إن التلقي والتفكيك يلتقيان في إلغاء قصدية المنتج، أو يمكن القول بان التفكيك يندرج تحت نظريته الكبرى نظرية التلقي، كما اعتمدها جاك دريدا؛ والذي جعل من نظرية التلقي ركيزةً في التفكيك، ويصبح المحور الرئيسي في العمل التحليلي هو المتلقي؛ على الرغم بان المنتج تتحدد معالمه بالاعتماد على المحددات التالية؛ النسق، والنظام، والعلامة واللغة، والمنتِج. إلا أن التفكيك يقصر تحديد المعنى على المتلقي وحسب، إذ هو الوحيد الذي يُحدث ويحدد المعنى دون سائر العناصر، فأي مناقشة للتفكيك لابد أن تبدأ بالمتلقي وقبل التلقي لا يوجد شيء. وبهذا فان التداخل والتقارب بين التلقي والتفكيك قد اوجد بينهما لحمة ووحدة من الانصهار[134].

إن حقل التلقي يمتلك مفهوم الوساطة وهو ما يتوسط بين العمل المنتج واكتمال عملية التلقي عن الأفراد، وتأتي بين المؤسسات والوسطاء الثقافيين والنقاد وإعادة النظر في هذه التقسيمات ومن يتملكها، وظهور تقسيمات جديدة في

---

[133]- اسمن ايان، مرجع سابق، ص 63.

[134]- دريدا جاك، ما الان؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب، دار الفارابي، الجزائر، 2011، ص 26- 28.

الوساطة كالكلمات والأشياء حتى وان كانت كلها منظومة متداخلة من العلاقات[135]. تقوم عملية التلقي على إدراك المظاهر الحسية كحقيقة معقولة تدرك بالعقل، وتبرز المنظور الذاتي في تشكيل المعنى للأشياء المنتجة، ومنها أن يصبح معنى الظاهرة مرتبط بعمليات "الفهم" أي أن المعنى هو خلاصة الفهم الفردي الخالص، والمهم في ذلك هو تأكيد "موضوعية المعنى" الذي يعتمد في فلسفته على الشعور الخالص وتأكيد دور الذات في إدراك المادة وإحساسها[136]. فان التلقي البصري و" العين المشاهدة" عند الفرد تقوم على قدرته على تقديم ما يراه باعتباره "حقيقياً" بمعنى ما[137]. وعن إدراك المادة وخلق المعنى حولها وفي هذا البحث تم اختيار المعمارية كمادة محسوسة ومنقولة في المشهد البصري عند المتلقيين الفلسطينيين، يناقش إسماعيل الناشف في كتابه" العتبة في فتح الابستيم"انه " لا وجود للمادة إلا إدخال الوعي فيها، أو تغليفها وعياً"[138]. ويضيف على ذلك أن المادة تحمل أشكالاً معرفية بسبب من تاريخ علاقاتها بالوعي؛ فالوعي هو جزء متحرك محرك للنسيج الاجتماعي التاريخي، يجري تكراراً إقصاء وإمكانية أن يكون تحمل المادة أشكالاً معرفية ناتجة عن انشباكات علاقاتها الداخلية المستقلة عن الوعي من جانب، ويجري احتواء المادة مع انشباكها مع الوعي كحالة وعي معرفية من جانب آخر[139].

ومع مفاهيم خلق المعنى والوعي والفهم بترابطها وانفصالها مع المادة والتلقي، لدينا في معمارية الفضاء الاجتماعي المنتِج والمنتوج والتلقي، وهو في هذا الجزء يمثل تصميم المقاطعات"النموذج الأمني" الموجودة في الضفة الغربية ويشملها عمليات التسويق التي تقدم للفلسطيني بتعزيز أهمية بناء "الدولة الفلسطينية ومؤسساتها"، سواء في الإعلام، أو في مجموعة الرموز الدولاتية التي أخذت زخماً كبيراً داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، سواء بإعادة تسمية الأماكن، كدوار الساعة التي أصبح دوار الشهيد ياسر عرفات، أو أسماء الشوارع، أو تفعيل سياسات محاسبة الفساد والتكنوقراط داخل المؤسسة الرسمية

[135]- اينيك، نتالي، سوسيولوجيا الفن، تر حسين قبيسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2011، ص 111.
[136]- خضر، عودة ، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، عمان، 1997، ص 23- 75.
[137]- هارفي، درفيد، حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثقافي، تر محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص 286.
[138]- الناشف، اسماعيل، العتبة في فتح الابستيم، مواطن، رام الله، 2010، ص 171.
[139]- الناشف، اسماعيل، مرجع سابق، ص 172.

الفلسطينية، أو حتى بالتركيز المنهجي على إعادة اعمار البنى التحتية وتقديم الخدمات، وفيما يلي سترتبط علاقة المادة المعمارية مع خلق المعاني ودراسة مدى تحقيق فعل الفهم عند الفلسطينيين المتلقين.

يجيب بعض المبحوثين عن رأيهم بالتصميم المعماري للمقاطعة كما يأتي:

محمد[140]" نرى أن السلطة الفلسطينية بدأت بصنع ثكنات عسكرية، ومؤسسات أمنية ضخمة، وهذا ليس من الخطأ، فما المشكلة بأن تقوم لنا مؤسساتنا الضخمة بهذه الصورة" .

ديما[141]" أنا استغرب عندما أرى مقاطعة نابلس الجديدة، وأتذكر أيام المقاطعة القديمة التي كانت صورتها لا تعكس بأن ممكن لفلسطينيين أن يتملكوا دولة، أو يكونوا أقوياء حتى لو كان بالشكل" .

أبو علي[142]" ومالو، الفلسطينيين بحاولوا يصنعوا دولة والمقاطعات بتمثل رمز، خاصة وإنها كانت رمز للمقاومة في الانتفاضة الثانية، ويجب أن يعلم الإسرائيليين إنا لا نموت ونعيد بناء مؤسساتنا" .

مؤمن[143]" أنا لا اعلم ما الذي تريده السلطة فعلياً، ماذا سيأتي للفلسطينيين من كل الأبنية الضخمة التي نراها سواء في المقاطعات أو المؤسسات الرسمية الأخرى، صحيح انه لا يمكن أن أنكر بأنها تشكل ضخامة وتعكس قوة سياسية أمام الإسرائيليين" .

حنان[144]" أكثر شيء بلفت انتباهي التركيز على أسوار المقاطعات، أشعر بأنه لا داعي لها، ولا افهم لما يتم تسوير المقاطعة بها" .

[140]-محمد، سكان مدينة رام الله، 27 عام.
[141]- ديما، 29 عام، درست وسكنت في نابلس، تسكن رام الله حالياً.
[142]- أبو علي، 42 عام، سكان مدينة طولكرم.
[143]- مؤمن، 30 عام، من سكان مدينة رام الله.
[144]- حنان، 26 عام، من سكان مدينة طولكرم، وعملت في مشروع مقاطعة طولكرم.

أبو احمد[145] " أنا لا أرى شيء من المقاطعة إلا أسوارها فكيف سأحكم على التصميم!" ،

كبها[146] " يجب أن تمتلك السلطة الفلسطينية أبنية كهذه لتعكس قوتها" .

محمد عيسى[147]" يا الله، يمكن الشخص فينا مستحيل أن يتذكر أو عن يحاول التذكر كيف كانت المقاطعة من قبل، اليوم نراها بعظمة دون ذكريات الحصار والقصف الذي تعرضت له في الانتفاضة الثانية، يمكن هذا ما يميز الفلسطينيين، نتجاوز ما حدث وما يهمنا هو اليوم، وكيف سنعيش، وأظن أن الشخص يشعر بارتياح أكبر عندما لا يرى الهدم أو القصف، صعب نتخيل حالتنا مثل حالة أهل غزة، وكل ما نراه حولنا هو الدمار، يعني أظن انه انجاز للسلطة الفلسطينية وللشعب الفلسطيني" .

*شاب فلسطيني يرسم على كتلة مهدومة من المقاطعة في رام الله 2002[148]



[145]- أبو أحمد، سكان مدينة طولكرم، 45 عام.
[146]- كبها، من جنين ويسكن رام الله، 32 عام.
[147]- محمد عيسى،42 عام من سكان مدينة نابلس.
[148]- صورة التقطت من المصور جمال العاروري، 2002، حقوق الطبع محفوظة للمصور.

ما تقدمه إجابات المبحوثين بأغلبها هو تجاوز لفكرة الهيمنة الاستعمارية والواقع الاستعماري المتواجدين فيه إلى التركيز على أهمية وجود لمؤسسات الدولة وإظهار هيمنة وقوة الفلسطيني بدولته، وهذا يظهر الاستبطان الكامل للخطاب الذي تريد ترسيخه المؤسسة الرسمية الفلسطينية؛ "فجدران المؤسسات بالذات "تسوّر" النظر والسمع بعدما كانت هي نفسها مسوَّرة بكثرة من العوائق والضغوط التقنية والإدارية والاقتصادية والفنية التي حكمت إنشائها"[149]. ويصف دوبري تلقي الصورة التي أزالت ذعر الحرب وأثر الموت بالتقنيات الجديدة بأنها قد وصلت لمرحلة تقديس البعد عن الموت حتى لو كانت هذه الصورة تمثل مرحلة من إنكار الواقع بألمه الذي تمت مواراته، "يوجد المقدس في نظرنا، حيثما تنتج الصورة باتجاه شيء آخر غير نفسها. أما الصورة باعتبارها انكاراً للآخر، بل وحتى للواقع، فقد ظهرت بقوة في عصر"البصري" هذا الذي نزع عن الصورة طابعها المقدس متظاهراً بأنه يكرسها"[150]، ويحاول منها الفلسطينيون خلق حالة من التميز والخصوصية في تصورهم عن ذاتهم، أو مشروعهم ضمن الحلول المقدمة سواء كانت صوراً بصرياً تعكس خطاب المؤسسة، أو بخطابات تنفي وجود حلول قادمة تخرج عن الإيمان بفكرة "الدولة" وبنائها حتى مع بقاء الواقع الاستعماري.

خلقت المؤسسة الرسمية الفلسطينية بخطاب الدولة وبنائها فاعلية لعملها من خلال المتلقيين، وبهذا شكلت لها من خلال عمارة "النموذج الأمني" سلطةً رمزية؛ وهذه السلطة لا تعمل إلا من خلال الاعتراف بها، وتتحدد بفضل علاقة معينة تربط من يمارس السلطة بمن يخضع لها، أي أنها تتحدد الذي يؤكد فيها الاعتقاد ويعاد إنتاجه. وتمتلك بذلك القدرة على الإخفاء والقلب التي تحقق تحولاً جوهرياً لعلاقات القوة والتغلب، عاملةً على تجاهل ما تنطوي عليه من عنف، وعلى الاعتراف به في نفس الوقت، محولةً إياها إلى سلطة رمزية قادرة على التأثير الفعلي دون بذلٍ للطاقة[151]. وبورديو يطرح أن

[149]- اينيك نتالي، مرجع سابق، ص 120.
[150]- دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص 47.
[151]- بورديو، بيير، السلطة والرمز، تر عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007، ص 55-56.

" البنى المكانية تعيد بناء ليس فقط صورة الجماعة عن العالم، بل والجماعة نفسها أيضاً بحيث تنظم نفسها وفقاً لهذه الصورة"[152].

ومن أثر السلطة الرمزية التي خلقتها المؤسسة الرمزية من خلال العمارة، بأنها نقلت عقلانية تواجد هذا النوع من المعمارية داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، واعتباره تمثيلاً للذات الفلسطينية المتلقية والمنتجة، ومنها أن يقوم مجموعة من الشباب الفلسطيني برسم وجوه ضاحكة على جميع إشارات المرور في رام الله، ما عدا إشارة المرور عند المقاطعة طبعاً مربوطة بتصميمها الأمني المنفصل عن حركات تخفيف حدتها.

ومن كل ما سبق إذا كان جورجيو أجامبين قد تحدث عن مفهوم الاستثناء الذي تخلقه الدولة، فقد قام الفلسطينيون بخلق مفهوم "استثناء الاستثناء" وفرض الممارسات الدولاتية عليهم حتى من قبل وجود الدولة الحر أو الفعلي، وان كان هذا فخاً لفرض قواعد واستثناءات جديدة للقواعد المفروضة ضمن واقع استعماري مسبقاً يمارس الاستثناءات والإقصاء للفلسطيني، ويحبس الفلسطيني بحلول السلطة الوهمية التي قد تساعدهم على غلبة الاستعمار.

يمكن اتخاذ الحالة التي يمر بها الفلسطينيون كما يطلق عليها السقا[153] بمفهوم الاختمار الاجتماعي، وحالة تشوه الواقع الاستعماري التي تظهر في الواقع الفلسطيني المعاصر؛ والتي من خلالها يتم استحضار مجموعة من الخطابات التي تعمل على وسائل الإقناع مختلفة التأثير على تمثلات الناس وتخيلاتهم الجمعية عن حياتهم تحت الاستعمار، ووضع مشاريع "التحرر" على جنب، ومنها الخطابات القانونية والحقوقية المربوطة بتحقيق الدولة وجعل المجتمع في حالة انتظار للحل الذي قد يأتي معها.

---

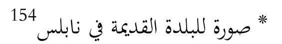
[152]- هارفي، ديفيد، مرجع سابق، ص 254.

[153]- السقا، أباهر، قراءة في الاختمار الاجتماعي، موقع فلسطين، 2012. http://palestine.assafir.com/

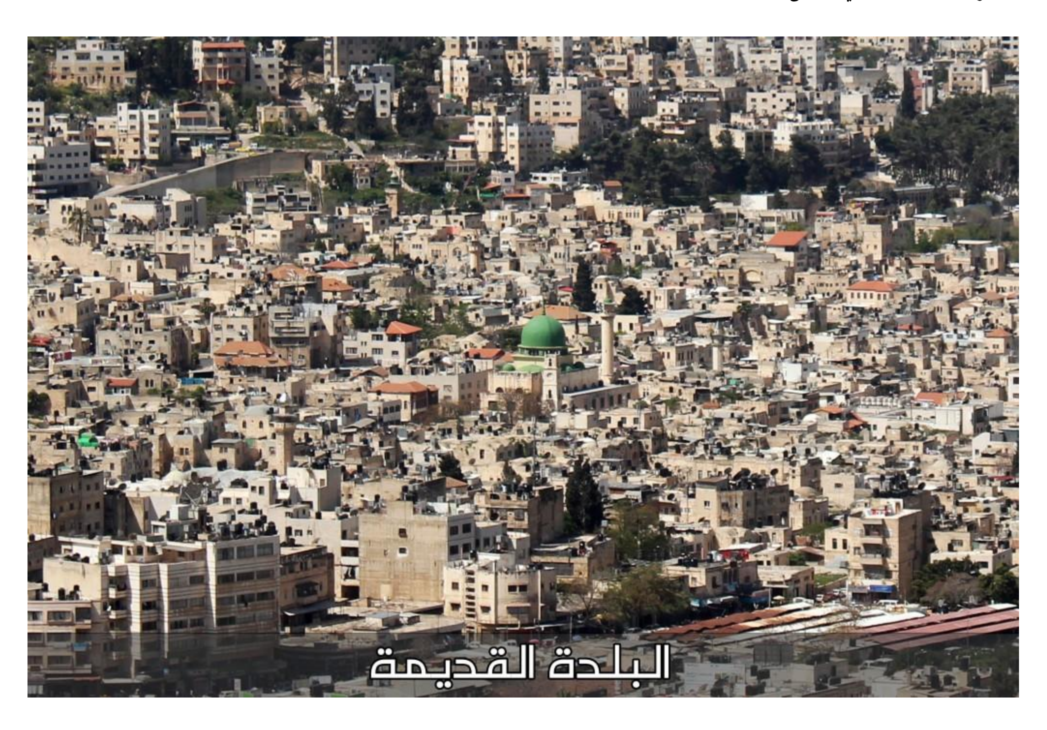
3.مكان الذاكرة يَلُفُ البلدات القديمة الفلسطينية

"البلدة القديمة نابلس والبلدة القديمة رام الله نموذجاً"

يقدم هذا الجزء من الدراسة قراءة بصرية سوسيولوجية لمعمارية البلدة القديمة في نابلس، والبلدة القديمة في رام الله، وبالتحديد يقدم هذا الجزء كلتا البلديتين في صورتهما بعد تعرضهما لحرب الاستعمار أثناء اجتياحات الضفة الغربية في الانتفاضة الثانية. ما سيتم مناقشته في هذا الجزء عبارة عن إعادة قراءة مشهدية تاريخية/اجتماعية لما شهدته البلدتان من معركة تداخل بها العمار مع المقاومة أثناء استخدامه كدرع للمقاومة الفلسطينية، وكذلك مجموعة الاستراتيجيات العسكرية التي تم استخدامها من قبل الاستعمار الإسرائيلي في التدمير الحضري أثناء الحرب. كما سنرى كيف يتم تجسيد أو مواراة "أسطورة" العمار للمقاومة والمقاومين اللذين سقطوا داخل هذه الفضاءات.



* صورة للبلدة القديمة في نابلس[154]



[154]- أخذت الصورة من موقع بلدية نابلس www.nablus.org

3.1.التدمير الحضري ممارسة استعمارية تُضيع هوية المكان

*** البلدة القديمة في نابلس فترة الاجتياح في الانتفاضة الثانية 2002**[155]



يكمن التحليل في هذا السياق عبر دراسة آلية تدمير العمار قبل الوصول لتحليل إعادة اعماره؛ وبالذات الممارسات الاستعمارية التي حاولت القضاء على المكان/الهوية في هذا الفضاء الاجتماعي، الذي يتميز بمعمارية تاريخية أثرية، تستحضر "أسطورة" المقاومة. تقبع آثار المقاومة في زوايا وحجارة أركان البلدات القديمة الفلسطينية، وتتميز بكونها مخططة بشكل متاهة لعدوها ولا يعرف قلبها إلا أهلها تبعاً لهندسة معمارية تاريخية صُممت فيها.

يقوم مفهوم التدمير الحضري تبعاً لستيفين غراهام على ثلاث محور؛ الأول بتدمير المدن باعتباره سياسة ضد المدينة، والثاني باعتباره جزءاً من عمليات الإقصاء، أما الثالث فهو أحد مبررات الحرب على "الإرهاب". إن التدمير الحضري يقوم على

155- الصور للمصور الفوتوغرافي عبد الرحمن قوصيني

إنهاء مجموعة من البنايات المعروفة والمتشاركة في الفضاء العام بقصد تدمير الجمعية المجتمعية، والتنوع، لتحقيق نوع من التجانس الفوقي العنصري، مثل جدار الفصل العنصري بين العرب الفلسطينيين واليهود نحو خلق دولة يهودية متجانسة، ومنفصلة عما بجانبها. تضم جميع محاور التدمير الحضري منظومة من الاستراتيجيات والأغراض العسكرية[156]. سنذكر إستراتيجيتين يتخذهما المستعمر الإسرائيلي في فلسطين، وكلتا الإستراتيجيتين تقومان على مفهوم أيدلوجي مطبق من دولة سياستها الأساسية "إنكار الآخر" عبر ممارستها الاستعمارية بكل الأشكال. فالإستراتيجية الأولى تقوم على تدمير الحضري من خلال البناء، وذلك عن طريق فرض الرقابة والضبط المتمثلة في بناء المستعمرات وشبكات الطرق المتقاطعة داخل المناطق الحضرية الفلسطينية، والمصانع بإفرازاتها الكيمائية والاستعمارية الاقتصادية. يحلل أليساندو بيتي هذه الاستراتيجية في دراسته لشبكة الطرق في الفضاء الفلسطيني ويرى أن " فضاء التدفقات الملموسة واللاملموسة، هو الفضاء المفضل للسلطة لممارسة سيطرتها. فاحتلال هذه الأماكن هو ما يوفر للنخبة الاستعمارية موقع السيادة. وإذا كانت النخبة من جهتها، قادرة على تبادل المعلومات وعلى التنقل بسرعة أكبر، فان الغالبية، من جهة أخرى محرومة من حق الحركة والإقامة المعترف بها عالمياً"[157].

أما الاستراتيجية الثانية والتي تتقاطع تحديداً مع البحث هي تدمير المدن من خلال الهدم؛ وهي إستراتيجية استعمارية تقوم على إزالة مظاهر حضرية من مدن، وقرى، ومساكن بأكملها أو جزء منها خلال فترة زمنية قصيرة كما حدث على المجتمع الفلسطيني عام 1948، و1967[158].

الإستراتيجية الثانية المعنونة بالهدم وخاصة للبلدات القديمة يقوم خلدون بشارة[159] بالإشارة إليها كما يأتي:" *إسرائيل لما احتلت فلسطين دمرت المئات من القرى، على استمرار سنين الاستعمار، وهذا ليس ادعاء، وإنما تاريخياً قاموا بتهديم هذه القرى، وذلك أدى إلى خسارة كل الناس للفضاء الذي يملكونه، وخاصةً المرأة فعندما كانت في القرية كانت "تصول*

---

[156] - Abujidi, Nurhan and Verchure, Han, Military occupation as Urbicide by construction and destruction the case of Nablus, Palestine, Katholieke University Leuven, Belgium,2006, 198-199.

[157] - حنفي، ساري، واخرون، مرجع سابق، ص 52.

[158] - Abujidi, Nurhan, previous reference,202.

[159] -خلدون بشارة، مهندس معماري فلسطيني و يعمل كمدير لمؤسسة رواق المختصة باعادة ترميم واحياء العمار.

وتجول" ، أما في المخيم فلم يعد لها هذا الفضاء التي تمتلكه وتفرض بعض من سلطتها عليه، وحصل في 67 عندما دمرت أحياء كاملة في القدس، وهذا حصل في ال 2002 كما حصل في البلدة القديمة في نابلس، عندما دمرت مجموعة من المصابن، ولكن إسرائيل لا يوجد لها أي سبب عسكري للقيام بالتدمير، لأن أهدافهم كان ممكن تحقيقها بدون تدمير، فالإسرائيليين دمروا ما دمروه والذي لم يقوموا بتدميره تم أخذه وترميمه وصناعته على انه هويتهم، في بيوت في فلسطين 48 لم يقتنعوا أنها بيوت فلسطينية عثمانية!! قالوا أنها أكيد هي بيوت من الزمن الصليبي، بحيث لا يمكن أن يكون الفلسطينيين قد وصلوا لهذه التقنيات في العمارة، وبالتالي ما تم أخذه تم اعتباره جزء من هويتهم وما بقي لنا نحن الفلسطينيين اعتبروه شيء بدائي، وليس مهم، وأصبحنا أنفسنا نعتبر ذلك، بنوع من تأثرنا بسلطتهم. ولا يمكن إنكار أن العمارة تم استخدامها من قبل السلطة الاستعمارية للمراقبة كالحواجز، فثلاث حواجز تفصل الضفة الغربية عن بعضها، ووضعوا أبراج المراقبة وأسوار عالية للفصل. وهم استخدموا للعمارة بعكس المعنى الايجابي لها، المعنى الإنساني الذي يقوم بعكس الهدم" .

*مقطع من الدمار الذي حل بالبلدة القديمة في ال2002[160]



[160]- أخذت الصورة من موقعhttp://www.alwatanvoice.com /

قام مركز المعلومات الوطني الفلسطيني "وفا"[161] بتسجيل مجموعة من ممارسات التدمير الحضري الذي قام بها المستعمِر الإسرائيلي في البلدة القديمة في نابلس بحيث تم تدمير العديد من المراكز الحضرية والمساكن في البلدة القديمة في نابلس مثل دور العبادة كجامع الخضراء، والجامع الصلاحي الكبير، ومسجد النصر، ومسجد البيك، وجامع الحنبلي، وجامع الأنبياء، وجامع الساطون، ومقام الشيخ مسلم، وكنيسة القديس مارديمتروس، وكنيسة القديس فيلبس الأسقفي)، وسرايا الحكم العثماني، وقصر عبد الهادي، وقصر النمر، وقصر طوقان، وحمام الشفاء، ومجموعة من الصبانات، بالإضافة لتدمير المدارس كالمدرسة الفاطمية، وأيضاً تدمير الأسواق والمحلات التجارية. كما طالت عمليات الهدم والقصف ما يقارب 40% من منازل البلدة القديمة.

يتم تدمير مجموعة كبيرة من المباني الأثرية تحت مفهوم التدمير الحضري للمدن، والذي لا يقوم على مجرد تدمير بناء ما أو تدمير المكان؛ بل يكمن فيما تعنيه الشواهد الحضرية لهوية مجتمع ما، وما يمثله هذا العمار لساكنيه، وما التاريخ الذي يعيد إنتاجه في فضاءاتهم اليومية برمزيته التي تجذرهم معه في معركتهم ضد المستعمِر. يربط خلدون بشارة الممارسات الاستعمارية المستهدفة للمعمارية الفلسطينية، على أنها جزء من القضاء على هوية حضارة وشعب ما، حتى تنتهي مرحلة المقاومة فيه "*نحن لا نملك التجربة الكبيرة عن إعادة الاعمار بعد القصف، المفروض أنو المستعمِر ما يقصف هذه المناطق، ولكن بنفس الوقت على كل دولة مستعمَرة أن تحدد هذه المناطق ذات الأهمية وتشير إليها حتى لا يتم استهدافها، ولكن تاريخياً لم يحترم أحد هذا الأمر، هتلر بعد ما مات كانت بريطانيا تستمر في تدمير فرانكفورت، وكانوا يقومون بضرب مباني لا يوجد فيها مقاومة، وكان الهدف واضح وهو تدمير ثقافة النازية، والمباني التاريخية هي جزء منها، بحيث عندما تريد أن تضعف علاقة الناس بحيزهم بمنطقتهم فيجب أن تضرب رموزهم، مثل مبانيهم، قصورهم، سجونهم، مقرات السلطة لديهم، كان هناك دائماً علاقة جدلية بين التراث والهوية، وأغلب الأحيان لا يوجد أهداف عسكرية عند التدمير، ولكن هذا جزء من إنهاء حضارة ما*".

[161]- مركز المعلومات الوطني الفلسطيني-وفا، الاحتلال يدمر التراث الحضاري والثقافي للبلدة القديمة في نابلس، الهيئة العامة للاستعلامات، نابلس، 2004، www.wafainfo.ps

يوافق ساري حنفي أن التدمير الذي حل ليس فقط تدمير مكاني بل تدمير حضري بمعنى أنه تدمير ينتج القليل من الموت أحياناً، إن التدمير الذي حصل في الحرب الإسرائيلية لا يشمل فقط الأبنية، بل ذاكرة السكان من خلال دمار الأبنية. إن ذلك يشكل الرابط بين هوية المكان الحضرية والحرب التي تخصص تقنيات جديدة لتدمير المدينة. يستعمل المستعمر الإسرائيلي مجموع التقنيات هذه لأنه يعد الفلسطينيين حالات استثنائية من خلال السياسة الحيوية التي تجيز لهم فرض مبرراتهم لتدمير الفضاء المعاش الذي يعيشه الفلسطينيون، من أجل تسهيل إخراجهم من الأرض وتدمير الهوية الباقية لهم[162].

إن تدمير إسرائيل للمصابن النابلسية، هو جزء من القضاء على تاريخ وهوية مدينة نابلس التي تتميز بصناعة الصابون النابلسي الشهير، والذي شكل قطاعاً صناعياً كبيراً في نابلس مع كثرة المصابن التي كانت موجودة في نابلس، ولكنه أصبح معرضاً لعمليات الامحاء من داخل معمارية البلدة القديمة من خلال استراتيجيات التدمير الحضري الذي تمارسه إسرائيل. إن المصبنة لا تعد مورداً اقتصادياً لأهل نابلس وإنما جزء من رمزية المكان "فالأماكن نفسها ترتقي وترتفع لتصل إلى مرتبة "الإشارة أو الرمز، أي بتعبير آخر تتم سمطقة هذه الأماكن"[163]، ولكن العلامات آخذة بالزوال من المشهد المعماري البصري للبلدة القديمة في نابلس، مع التدمير المسبوق الذكر. يرى لطفي[164] احد ساكني البلدة القديمة في نابلس *" أن البلدة القديمة غريبة بدون الصبانة، يمكن لأنها كانت جزء من النابلسية ليس فقط في المكان بل في كل شيء"*.

يسرد خلدون بشارة ما حدث بعد واقعة تدمير المصابن وتدمير هذا المشهد البصري عند سؤاله عن محاولات إعادة اعمار المصابن التي تم هدمها فترة اجتياح نابلس *"عندما تم تدمير المصابن في نابلس، اتصلنا على نابلس، وقلنا صحيح أن نابلس قد تعرضت لمصيبة كبيرة، ولكن علينا أن نقلل من الخسائر، بالتالي نعلم أنه يجب إزالة الركام، وهم كانوا يهمون بإزالة الركام في حال إذا كان تحت الركام أي جثث لدفنهم. ولكن قلت لهم انه يجب أن نزيل الحجارة بشكل منظم،*

[162]- حنفي، ساري، التطهير المكاني، محاولة جديدة لفهم استراتيجيات المشروع الكولونيالي الاسرائيلي، ص 2-6.
[163]- اوسمن، ايان، مرجع سابق، 102
[164]- لطفي 32 عام احد ساكني البلدة القديمة في نابلس.

بحيث يتم إزالة الركام بشكل شبكة وبالتالي ستتوفر المعرفة إذا أردنا إعادة بناء البلدة القديمة من أين كان الركام وأن تكون المواد موجودة كما كان محلها أصلاً قبل الهدم، ولكن قامت البلدية بجرف كل الركام وكبه في الوادي. ولكن يوجد العديد من الطرق في التعامل مع أبنية هدمت، وهناك مبررات عديدة مقبولة لإعادة البناء، أما في رواق فنحن ضد إعادة البناء المهدوم إلا إذا كان جزء الهدم وظائفي. نعم صحيح أن المصبنة هدمت بطريقة استعمارية، وهناك أكثر من طريقة إعادة إحيائها، مثل أن تبنى بطريقة متحفية، ويوضع أساسها مثلاً والخط الأول لها؛ كأن تمشي فيها على أنها آثار، أو تعمل تصوير "بروجيكتر" في الهواء، هذه طرق لإعادة الرمزيات، إلا أن هناك أشياء تمس حياة الناس اليومية، ولكن المصابن لم تكن كذلك، لان أصحاب المصابن التي هدمت قاموا باستئجار محلات خارج البلدة القديمة لتصنيع الصابون فيها. في البندقية عندما هدم برج سان ماركو فقرروا إعادة بنائه لأن أهل البندقية لم يستطيعوا أن يروها بدون هذا البرج، فالمشهد البصري تدمر، وأكثر ما أتذكره من إفساد للمشهد البصري، هو ما قامت به إسرائيل في ال2002 من تدمير أبراج الإرسال، ولم يكن لأهداف عسكرية، ولا أستطيع تخيل رام الله بدونه، وهو كان يحمل التحويل الإذاعي، الآن لو قالوا لي ماذا تفعل، أقول لنعيد بنائه مرة أخرى حتى لو كان وظائفياً لم يعد له هذه الأهمية، ولكن رام الله ليست كما هي بدونه. كما سأشعر نفس الشيء لو ذهبت قبة الصخرة من المشهد."

من حيث أهمية المشهد البصري والية استقباله يصف دوبري الصورة وتعلق الفاعلين بأجزاء المشهد؛ بأن الصورة ذات فضائل، فهي رمزية، أي أنها تعيد لحم وتكوين المشتت. لكن تمثيلاً على فضائلها السابقة ولكي يجسد الرمز أو يعاد التجسيد عليه بالرغم من الآلية المنطقية للاكتمال، وان يحتسب في العتبة حضور ووجود شريك خفي. من يرى هو الذي يربط الصورة بالمعنى؛ فمن يوحد يكون قد أحسن فعلاً. لكن وحدها الإحالة على البعيد أي على طرف ثالث ترميز تمكن صورة ما من إقامة علاقة معينة مع رائيها وبطريقة غير مباشرة بين الرائين أنفسهم"[165]. فهل بالإمكان جعل هذا التحويل

---

[165]- دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص 47.

عند من يستقبل المشهد البصري من زائري البلدات القديمة أو ساكنيها سهلاً دون المعرفة، أو الوعي بالإحالة والترميز إذا كان العمار قد أزيل وجرف لينتهي تراباً في إحدى مكبات المدينة**!**.

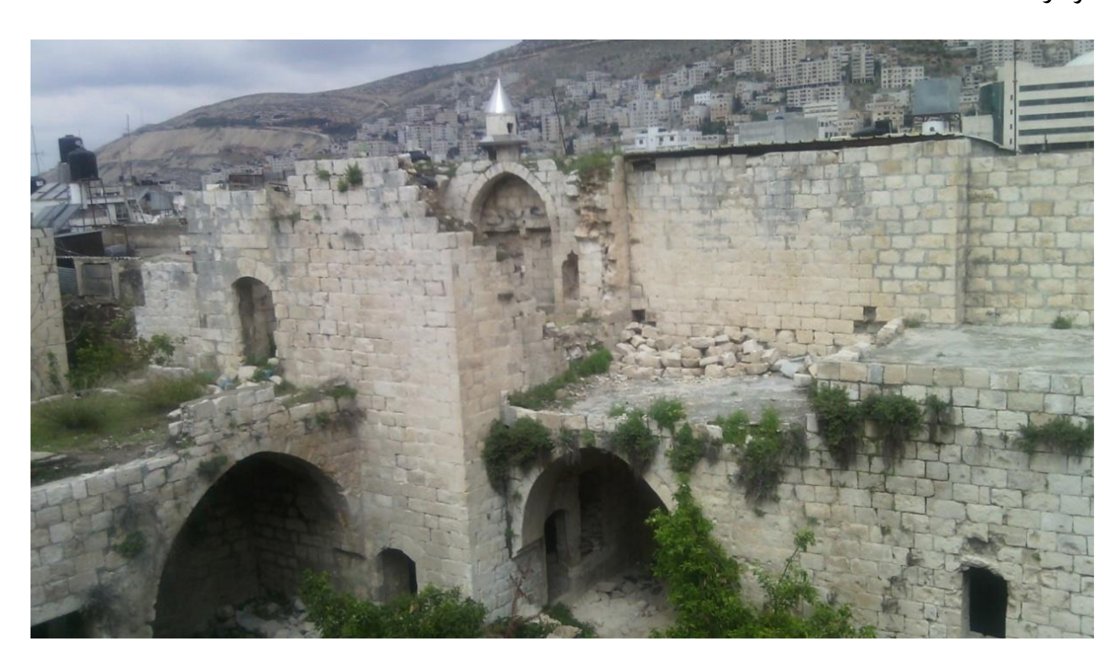
ويضيف خلدون بشارة على موضوع تدمير المصابن" *لما تم تدمير المصابن في نابلس بعض الأشخاص قالوا الآن حصلنا على "بحبوحة" في البلدة القديمة، الآن كلمة بحبوحة نتجت عن حاجة الناس للساحات للفضاء العام، أو أن الخاص سيصبح عام، بحيث أن أرض أصحاب المصابن ستصبح عامة، وهذا كله كذب طبعاً فالملكية الخاصة لها قداسة في بلادنا. وفي رواق ما كان في أيدينا أي شيء لأن هذا كان قرار البلدية*". إن التمثيل البصري للأشياء مستند في بنائه إلى مجمل دلالاته الاستقبالية والى معرفة سابقة مودعة في الكائنات وعلاقاتها، ومودعة أيضاً في الأشياء وما يرافقها من استعمال وظيفي نفعي، أو استعاري[166].

لم تكن المصابن وحدها التي تعرضت للتدمير داخل البلدة القديمة في نابلس، بل احتوت البلدة القديمة على مجموعة كبيرة من شواهد التدمير الذي مُنيت بها معماريتها، سواء لفضاءاتها الخاصة بمنازل ساكينها، أو قصور عائلاتها، أو حتى مساجدها، وشوارعها، وساحاتها، وسيتم الإشارة إلى العديد منها وإعادة قراءة مشهدها اليوم، مثل قصر طوقان، أو قصر عبد الهادي، أو قصر خماش، ومختلف المساجد والمنازل التي تعرضت لنفس عمليات التدمير أثناء المعارك مع الاستعمار، ولما يستهدف بعضها لإعادة إحيائها في المشهد البصري للمعمارية الفلسطينية، ولما يقصى البعض الآخر عن البصري والإحيائي وحتى الوعي به. يطلق اوسمن على مجموعة العلاقات المزدوجة بين مفاهيم الأشياء وصور إدراكها ما يدعى باسم "شخوص الذاكرة"، والذين يمكن تحديدهم من خلال ثلاث سمات هي علاقتهم المحددة بالمكان، والزمان، ومجموعة من البشر، حتى يتم إعادة تركيبها، أو إنتاجها كمنهج مستقل بها[167].

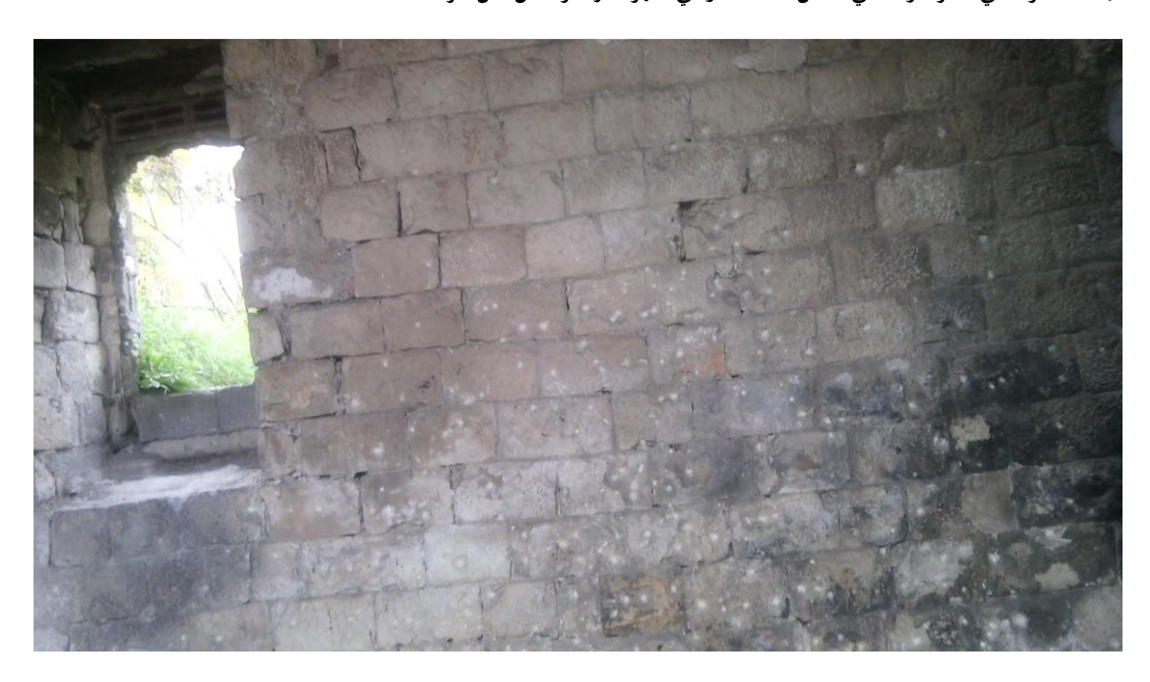
---

[166]- بنكراد، سعيد، مرجع سابق، ص 56.
[167]- اوسمن، ايان، مرجع سابق، ص 67.

*** قصر طوقان 2014**[168]



***إحدى الغرف في قصر طوقان في نابلس2014 ، والتي تظهر آثاراً للرصاص، من فترة الانتفاضة الثانية** [169]



[168]- تصوير الباحثة 2014

[169]- تصوير الباحثة 2014

لقد شكلت البلدة القديمة في نابلس للجانب الفلسطيني المقاوم رمزاً أسطورياً بفعل عمارة المتاهة التي تتسم بها، والتي ستجعل الإسرائيليين يهابون دخولها، وفي المقابل اعتبر الإسرائيليين أن تفكيك المدينة هو الإستراتيجية الأنسب لكسر هذه الميثولوجيا عنها، فبرر الدمار الذي حل بها بحجة الدوافع العسكرية للسيطرة على المكان، والقضاء على عش المقاومة الفلسطينية فيه[170].

وعن "أسطورة" المقاومة التي تشكلت كإحدى تمثلات النابلسيين عن البلدة القديمة في نابلس، يستعيض البحث ببعض الإشارات من أدب الرواية، التي حاولت سرد يوميات بعض مما حدث في البلدة القديمة في نابلس. حيث قامت الكاتبة الفلسطينية عفاف خلف بتصوير ذلك في روايتها"لغة الماء"[171]، والتي تقوم بها بسرد يوميات معركة البلدة القديمة في نابلس بصورة أدبية، وتقول" في اقتباس نهج بيروت وتبني خطة الدفاع نفسها، حيث أن المقاومة تمركزت وسط بيروت الغربية في حي الفكهاني، وبعض الأحياء الغربية، ومن هناك كانت تنطلق المجموعات العسكرية لأداء مهامها في عالية وجبل البارو، وغيرها من الأحياء التي تحتلها القوات الإسرائيلية، حيث كان وسط بيروت القلب النابض الذي يحتضن المقاومة ويضخها في باقي الأحياء بمعنى أن المدينة كلها ستكون مكشوفة لنيران العدو وسيدخلونها امنين دون مقاومة تذكر، والبلدة القديمة ستشكل القلب الذي يفرز المقاومة[172]. وتعيد بلدية نابلس إنتاج نفس الصفة السابقة عن البلدة القديمة على موقعها الالكتروني أيضاً باسم " البلدة القديمة ..قلب نابلس النابض" بحيث تعيد إنتاج رمزية المكان "المركز" والمقاوم المخفي بين التاريخ والآثار.

لم تقتصر مشاركة البلدة القديمة في نابلس على منح أجساد النابلسيين الفيزيائية للمقاومة، وإنما أيضاً شكلت مقاومةً معمارية صُقلت بشكل الدرع لتحمي الفلسطينيين الذين اعتبروها ملجأ تحتمي فيه خططهم العسكرية البسيطة، والتي جعلت المستعمر الإسرائيلي يغرق المدينة بأمطار من المتفجرات والقنابل وقصف الطائرات بحجه العسكرية، وكذلك

[170] - Abujidi, Nurhan, previous reference, 202
[171] - Abujidi, Nurhan, previous reference, 203
[172] - خلف، عفاف، رواية لغة الماء، ص 43

اجتياح البلدة بكاملها في الدبابات والبلدوزر عبر الطرق الضيقة والمنازل تحت ما أسماه وايزمان "السير من خلال الجدران"[173]. يجب الإشارة إلى أن الخرائط التي كانت بيد المستعمر كانت توضح الأماكن التي تتواجد بها الطرق الضيقة، والتي لا تستطيع الدبابات الدخول إليها[174]، وبالرغم من ذلك كانت تحث على إحداث أكبر الضرر في المباني والمنازل، وهذا لا يتوافق مع المنطق العسكري، ولكنه يندرج تحت المسعى الأيدلوجي المذكور سابقاً لتهديم المكان بهويته وليس فقط بناسه.

ونجد هذه الحالة للممارسة الاستعمارية في إحدى مؤلفات الكاتبة عفاف خلف في روايتها عن يوميات المعركة داخل البلدة القديمة في نابلس في حوارٍ بين المقاومين، كما توضح الأسطر القصيرة القادمة:

– في أي منطقة الاشتباكات؟

– بقرب مدرسة الروضة.

– سنبدأ بالعبور واحداً اثر الآخر.

– المنطقة مكشوفة كثيراً، وكشفوها أكثر عندما دمروا منزل آل الشعبي.

– سنلتصق بالحائط وستؤمن لنا البنايات الحماية، لن يستطيعوا رؤيتنا[175].

يشير النص الأدبي الذي ذكر آنفاً إلى حدث تداخل العمار بالحرب، وتجسيد الطاقات العسكرية الاستعمارية لتفكيك حماية العمار للمقاومين داخل البلدة القديمة في نابلس. وفي نفس الوقت تشير إلي عدم توقع من قبل ساكني البلدة القديمة لكم الدمار الذي لحق في البلدة القديمة بعد الاجتياح، وعن ذلك هناك إشارة خاصة لهدم منزل آل الشعبي، حيث شكل

---

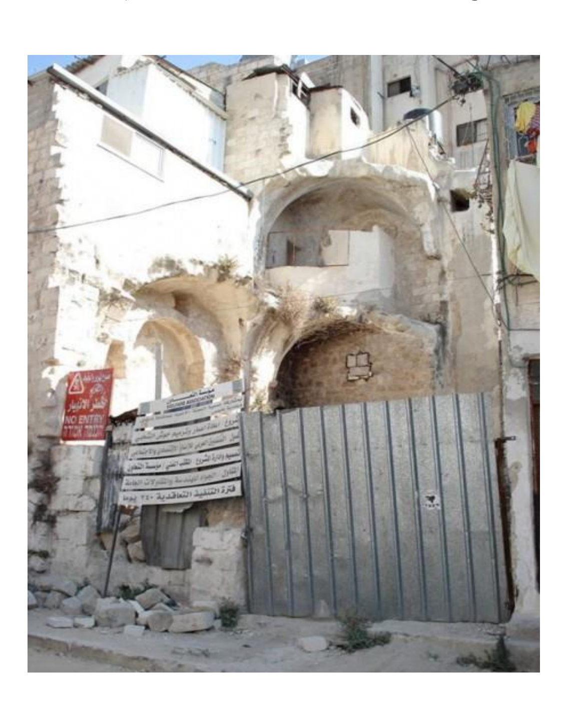
[173]- Abujidi, Nurhan, previous reference, 204

[174]- Abujidi, Nurhan, previous reference, 206

[175]- خلف، عفاف، مرجع سابق، ص 169.

الهدم صورة المجزرة لعائلة الشعبي التي خسرت ثماني من أفرادها تحت ركام المعركة، والتي كانت بفعل تصدي المنزل ومنعه القوة الاستعمارية العسكرية من كشف المقاومين المحتمين داخل زوايا البلدة القديمة[176].

* مشروع مؤسسة التعاون لإعادة اعمار منزل آل الشعبي[177]



[176]- منزل آل الشعبي في حارة القريون تعرض لعمليات التجريف والهدم من قبل قوات الاحتلال فوق رؤوس سكانه ففي نيسان/2002 تقدمت إحدى جرافات الاحتلال الإسرائيلي إلى بيت الشعبي في حارة القريون وبدأت بهدم المنزل بهدف الدخول إلى الحارة دون سابق إنذار للسكان أو وجود إي أعمال مقاومة في المكان فانهار المنزل على من بداخله وعبرت جرافة الاحتلال من فوق الركام وكان يتواجد تحته أفراد عائلة الشعبي الثمانية الذين استشهدوا وانتشلت جثامينهم بعد ثمانية أيام من الحادثة وهم عمر الشعبي 80 عاما، وأبناءه سمير وفاطمة وعبير في الأربعينيات من العمر، ونبيلة غانم زوجة سمير الحامل في الشهر السابع والأطفال عبد الله وعزام وأنس الشعبي، كما تم انتشال اثنان من عائلة الشعبي أحياء بعد ثماني أيام وهم تحت الأنقاض وهما عبد الله أحمد الشعبي وزوجته المقعدة شمس الطحان وذلك بعد أن سمحت قوات الاحتلال بوصول بعض فرق الإنقاذ إلى المنطقة .www.wafainfo.ps.

[177] - أخذت الصورة من موقع www.alwatanvoice.com

*منزل آل الشعبي بعد إعادة اعماره 2014[178]



تقوم البلدة القديمة نابلس على مجموعة ضخمة من ركام الحجارة الأثرية المهملة والمتروكة بعيداً عن البصري، لذا فان محاولة استطلاعك لمكان محطم في البلدة القديمة في نابلس كقصر "خماش"، لا تحمل إلا الغرابة عندما تدخل إليه من فتحة في أحد المنازل لا يتجاوز قطرها 50 سم، مجارياً فيها للفئران، والزواحف اللا معروفة، بحيث خلقت حياةً لها في مكان تركه الموت قبل الحياة. يحس أهل البلدة القديمة بثقل هذه الحجارة خاصةً عندما ترى غرفة مأهولة في أحد هذه القصور كقصر"عبد الهادي"، القصر الذي تسكنه أشباح ماضٍ ممتلىء بآثار الشقوق والدمار و التي لا تفسر إلا بعين الذكرى. إن الأثر الشبحي[179] يأبى التناهي ويرفض الامحاء مثل الندوب، أو الكدمات أو حتى التجاعيد التي تشير لتقدم السن،

---

[178]- تصوير الباحثة 2014.

[179]- راجع عن دريدا: ينتقل دريدا باشتغاله هو الشبح وأثره باعتبارها مقولة فلسفية تشير الى المجهول ذي البنية الشبحية، ويُعرى من خلاله التفكيك لعبة الصمت، فوراء الشبح هناك واقع ملموس يعكس الشبح فيها صورة او علامات من الأصل.

ولكن يحضر الأثر رغم الغياب، انه حطامٌ يكافح للبقاء فهو ما يُرى أو ما لا يُرى من كل شيء. اقتفاء الأثر بين الحطام هو لعب مع اللامرئي واستدعاء للمحجوب، واستذكار للفاني[180].

* قصر خماش داخل البلدة القديمة نابلس 2014[181]



* قصر خماش 2014[182]



[180]- دريدا، جاك، ما الان؟ ماذا عن غد؟، الحدث التفكيك الخطاب، اشراف محمد الزين، دار الفارابي، بيروت، 2010، ص 134.
[181]- تصوير الباحثة، سنة 2014.
[182]- تصوير الباحثة، سنة 2014.

من الملاحظ أن جميع هذه الآثار للدمار، قد تركت كما هي بل أصابها التلف بفعل الإهمال، أي أنها لم تحصل على منحة لإعادة الاعمار فقط، وإنما لإتلاف بفعل النفايات وآثار الطبيعة على الحجر، وبالتالي لا تختفي تحت معالمها المعركة وإنما تختفي مجموعة من الرموز التاريخية والهوياتية التي تتغنى بها نابلس، بصورة لا محسوسة تدمر المشهد الحضاري- الأثري، وعن ذلك يذكر استيتية[183]" *بأن الدمار الذي لحق بالبلدة القديمة كان كبيراً جداً وخاصةً على المنازل والمحلات التجارية، ولكن الذي حدث هو بالمجمل إعادة اعمار وصيانة للمحلات التجارية لأنها"أبواب رزق" وبالتالي لا يمكن أن تبقى مدمرة، كيف سيدخل لها الناس ليشتروا إذا كانت مدمرة، أما المنازل فبعض السكان رمموها بأنفسهم، والبعض الآخر حصل على تعويضات بسيطة من البلدية، أما القصور التاريخية الكبيرة فلم يسأل عنها أحد، ومن الطبيعي لأنها تحتاج لأموال طائلة، والدمار الذي لحق بها هائل، وبعضها ملكيات خاصة ولكن لا البلدية تستطيع تمويل إعادة اعمارها ولا أصحابها يستطيعون فتترك مع ذلك كله للنفايات"* . أما حازم مرعي[184] صاحب حمام الهناء في البلدة القديمة في نابلس يقول " أنا صلحت الحمام على حسابي الخاص، ولم أترك أي أثر، فلا ينفع في حمام تاريخي نترك أي أثر للهدم، لا أستطيع أن أدخل السياح عليه وفيه أي أثر للهدم، وبالتالي انتهى شغلي إذا لم يأتي سياح على الحمام".

وفي مشهد مشابه مما مر على نابلس، يحدث تكرار للمشهد في البلدة القديمة في رام الله مجموعة من الممارسات الاستعمارية المشابهة، والتي يشير إليها رئيس بلدية رام الله المهندس موسى حديد[185] " آثار العدوان مش شيء معيب أو منظر معيب ليبقى موجود، بالعكس هذا أثر للعدوان الإسرائيلي، ولكن تم إزالتها بشكل عام، إذا تصفح أي شخص صور لرام الله من 2000 حتى الآن على الانترنت، فلن يرى أي أثر لأنه تم إعادة تأهيل كل البنى التحتية، والشوارع وآثار الهدم، فلا نستطيع أن نعيش في بلاد مدمرة". تنظر مجموعة المبحوثين السابقين إلى أن عملية إعادة الترميم وإزالة آثار

---

[183]- استيتية، رجل يناهز ال 65 عاماً وهو يسكن البلدة القديمة في نابلس.
[184]- حازم مرعي، يملك حمام الهناء في البلدة القديمة في نابلس، وكان من سكانها، ثم انتقل للسكن خارجها بعد الانتفاضة الثانية.
[185]- مقابلة أجرتها الباحثة مع المهندس موسى حديد، رئيس بلدية رام الله في شهر نيسان 2015.

الهدم على أنها جزء من إعادة الوظائفية للمكان وساكنيه، وبالتالي تعطى هذه المبررات لأسباب العيش كالرزق أو البنى التحتية على أنها الأساس في التعامل مع معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني بشكل أشكالها.

إحدى المؤسسات التي أخذت على عاتقها مشروع إعادة ترميم ما حل بعمار البلدة القديمة في نابلس أو رام الله وفي كل فلسطين، مؤسسة رواق لا تتعامل مع مشاريع إعادة الترميم على أنها مشروع لاستعاد الوظائفية فقط بل تعد هذا المشروع عبارة عن خطوة لإنتاج المعرفة كما يعرفه خلدون بشارة "*أي مشروع ترميم في رواق هو عبارة عن مشروع لإنتاج المعرفة، لكيف نرمم، وكيف كان الاشي زمان، وكيف كانت طبيعة العلاقات زمان من خلال عمارة من هذا النوع، ما طبيعة المجتمع في تلك الفترة وما هو النظام الاقتصادي الذي سمح بإنتاج عمارة من هذا النوع، ومن قام بعملية البناء ودق الحجر مثلاً، من هؤلاء الأشخاص الذين أنتجوا عمارة من هذا النوع. لان هذه الفضاءات كان إلها معاني ورمزيات مختلفة عما يحصل الآن من شقة تبقى شقة*".

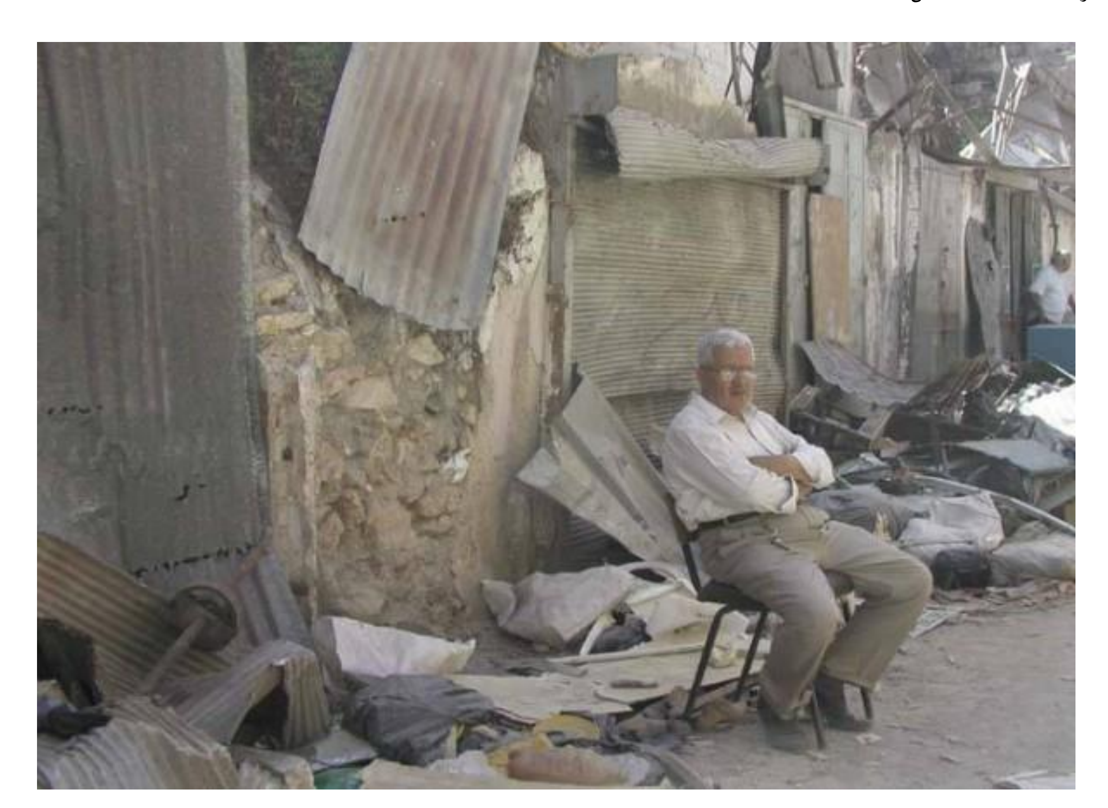
أما رئيس بلدية نابلس غسان الشكعة[186] فيرى أن "*تمويل إعادة الاعمار هي العائق الوحيد أما ترميم جميع القصور والعمار المتهدم في البلدة القديمة في نابلس، وأن البلدية تسعى لانجاز أكبر قدر ممكن من الترميمات التي لا تغير شكل المكان، وتعيد بناءه بصورته المعمارية الحجرية، التي تتميز بها نابلس من العهد العثماني وما سبقه*".

يمكن تفهم العائق المادي الذي تفتقر له البلدية في قدرتها على إعادة الاعمار، فهي دائمة البحث عن مصادر للتمويل الخارجي، ليغطي نسبة عالية إن لم تكن كاملة من مشاريع إعادة الاعمار، ولكن؛ السؤال هو كيف يتم تحديد ما يتم إعادة اعماره من البلدة القديمة في نابلس وما لا يتم حتى الالتفات إليه، ومن الملاحظ أن مجموعة من ممارسات الإقصاء اللاواعية إن أمكن القول تتم في البلدة القديمة في نابلس عندما يتم بذل الجهد لإخفاء الدمار الذي حدث من الأسواق التجارية المشهورة، ومن بعض مداخل البلدة القديمة التي تلتقي مع المدينة النابلسية المعاصرة، بحيث يشاهد الملتقي جمال

[186]- مقابلة أجرتها الباحثة مع رئيس بلدية نابلس المحامي غسان الشكعة في شهر نيسان 2015.

الإرث المعماري التاريخي، والانتعاش الحضري والاقتصادي أثناء دخول غير الساكنين للبلدة القديمة إليها، تقول علا[187] *"لا يوجد أجمل من أسواق نابلس، وأستغرب عندما نتحدث عن الدمار والهدم، لأني لا أرى منها شيئاً وأنا أتسوق في البلدة القديمة"*. علا لا ترى الدمار لأنها لا تستكشف مناطق داخلية من البلدة القديمة، بل تبقي البصري متبوعاً بأسواق تجارية تجانب المدينة المعاصرة في نابلس.

*أسواق البلدة القديمة نابلس 2002[188]



[187]- علا، مبحوثة من سكان رام الله، عمرها 22 عام.
[188]- أخذت الصورة من موقع http://www.alwatanvoice.com/

*أسواق البلدة القديمة نابلس 2014[189]



وهل يمكن أن يكون مبرر نقص التمويل هو المبرر الكافي في المؤسسة الرسمية عند التخلف عن الإضاءة على الأبنية التي ما زلت مهدمة وتتملك آثار القصف أو التغيير الزمني على جدرانها، عن هذا يقول خلدون بشارة بأن عملية الترميم بتكاليفها هي عملية مبالغ فيها بأرقام خيالية" *الترميم يكلف ثلث بناء جديد، دائماً نريد أن نقنع العالم بأن الترميم يكلف أقل، الترميم في فلسطين مشكلته انه كان يتم بناءاً على الطريقة الاستعمارية الإسرائيلية لذا كان يكلف أكثر، في إسرائيل متر الترميم يكلف 3000 دولار، أما فلسطينياً فمتر الترميم بكلف من 250-300 دولار. قصر القاسم مثلاً 44 غرفة 1200 متر مربع، وساحات 500 متر مربع، كلفنا 53 ألف دولار، لما تحكي لحدا اشتري شقتين سعرهم 250 ألف دولار، بينما تحكي لشخص اشتري قصر من 44 غرفة، ومجهز حتى لمكان التدفئة. أنا برأيي المشكلة انو في محل بتنسرق المصاري، كل ما كنا نروح على محل مثل قصر الكايد في سبسطية أكثر من 30 غرفة وفندق يتسع لأكثر من 25 سرير، ترميمه كلف 230 ألف دولار، هلأ لو برام الله بتحكيله بعطيك فندق ب 25 سرير بدفعلك اكتر من ربع مليون دولار إذا ما دفع مليون دولار، نفس الناس لما أجت السياحة والآثار حكولهم هذا بكلف مليون دولار، وراس كركر*

[189]- اخذت الصورة من موقع https://alestqlal.com

نفس الاشي، كلها أرقام بالملايين، كلمة ملايين أنا برأيي مسروق منهم مئات الألوف، هلأ كيف بضيعوا هذه المئات من الألوف، إما لأنك بتختار المواد الخطأ لأنك بدك تعمل معروف مع حدا، أو لأنك بتختار المهندس الخطأ الي يأخذ نسبة عالية، أو لانو بتم إعادة ترميم الشيء أكثر من ثلاث مرات، أنا برأيي هذا هو السبب".

يشير الجدول القادم إلى مدى تكلفة إعادة ترميم العمار التاريخي تبعاً لبعض مشاريع مؤسسة رواق[190]

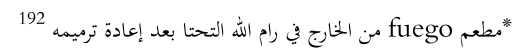
السنة	اسم المشروع	مكان المشروع	عدد الغرف	التكلفة
2002	بلدية بيرزيت	بيرزيت–رام الله	2	68.606$
2004	مركز نساء سلواد	سواد– رام الله	13	65.985$
2009	الكمنجاتي	رام الله التحتا–رام الله	13	143.225$
2009	مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي	رام الله التحتا–رام الله	10	129.952$
2011	قصر الكايد	سبسطية– نابلس	7	130.590$
2011	إنتاج وإعداد الورشات	بديا– سلفيت	6	81.072$

يصنف خلدون بشارة مجموعة من الممارسات التي أصبحت تبرر استغلال هذه الفضاءات، إما باستغلال الأموال وتحييد إعادة الاعمار عن صورة الإمكانية، أو من خلال خصصتها وجعلها سوقاً في رام الله مثلاً بحيث تقدر ثمناً وتاريخاً، وتفتح كأماكن للجذب بفعل تصاميمها البعيدة عن أجواء معاصرة المدينة وطبيعتها الآيلة للتشكل، وهو ما يشير إليه خلدون

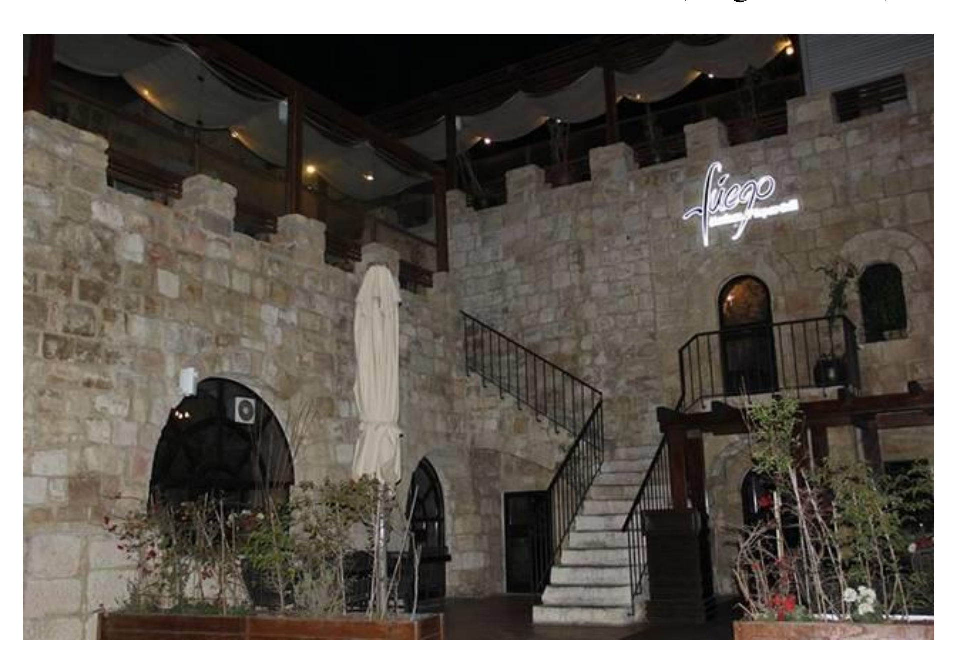
---

[190]- بشارة، خلدون، مرجع سابق، ص 53.

بشارة عندما سئل عن سبب ذكره لرام الله كمثال في تقدير العمارات المرممة " *لان هناك سوق من العرض والطلب، أو حتى لا يوجد عرض كفاية، لأن هناك أشخاص يستطيعون مادياً أن يتكلفوا سعر فنجان القهوة 15 شيقل، وهذا قطاع رأسمالي بامتياز ويحدد نوعية الأشخاص الذي يريد منهم أن يدخلوا مطعمه مثل fuego، وهو الذي رممه صاحبه الذي من دار المصري على ما أعتقد على حسابه الخاص[191]"* .



*مطعم fuego من الخارج في رام الله التحتا بعد إعادة ترميمه [192]



صمم مطعم fuego والذي يقع في البلدة القديمة لرام الله بجانب المحكمة العثمانية، بشكل جاذب بصورته الأثرية التي حملت معها رموز معاصرة، وحتى معولمة، ينعكس كل ذلك من خلال رمزيات ودلالات مختلفة، تبدأ من اسم المطعم الذي يعد مصطلحاً في الاسبانية ارتبط بمعنى النار بدلالة اجتماعية ظهرت مع الكوميديا الساخرة على الانترنت، وتعني أن الشيء جاذب بشدة[193]، أما الرمزيات الأخرى فتكمن في مجموعة اللوحات باللغة الانجليزية، والتي تصف الحياة

---

[191]- اضافة مرجع عن القطاع الخاص في فلسطين

[192]- أخذت الصورة من موقع http://www.triposo.com/ وهو موقع بشكل دليل سياحي للمواقع الزيارات في مناطق مختلفة.

[193]- أخذت من معجم urband dictionary, ،http://www.urbandictionary.com/

والسعادة، كوجود الزبائن في هذا المطعم. وبالإضافة لذلك فان قائمة الطعام والمشروبات للمطعم التي لا تمت للتراث الفلسطيني، أو الهوية الفلسطينية أو حتى العربية بشيء؛ بل يقدم المطعم مجموعة من الأكلات المكسيكية والغربية، ويتبع معها أسعارها المرتفعة جداً والتي تبرز اختيار صاحب المطعم لأشخاص يتبعون لطبقة اقتصادية ذات دخل مرتفع في رام الله، أو حتى للأجانب الزوار الذين يأتون لزيارة مدينة رام الله، بعد الترويج الضخم الذي أصبحت تحظى به بعد تمركز للسلطة الفلسطينية فيها. ازدواجية كبيرة يحملها معنى المطعم الذي يضيفه موقع بلدية رام الله، على أنه احد المواقع الذي يمثل مدينة رام الله، تحت المعمارية التراثية التي يحملها دون الالتفات لما تحمل هذه الحجارة ما بداخلها من بعد عن التراث الفلسطيني بأكمله.

*صورة مأخوذة من صفحة المطعم على الفيس بوك ، والتي تشير لمجموعة من الرموز الثقافية المكسيكية 2015[194].



194- https://www.facebook.com/FuegoRamallah

* مطعم fuego من الداخل[195]



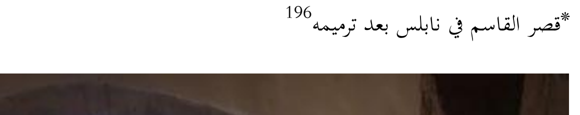
الفكرة التي تقوم على إعادة الاستخدام المختلف للموروث المعماري للبلدات القديمة لا يلغي الفكرة القائمة في البحث على تتبع أنواع إزالة الدلائل التي تشير لتداخل العمار هذا أثناء مقاومة الفلسطينيين بين جدرانه، فالإشارات جميعها أصبحت تتلاشى مع فكرة طغيان التاريخ على الذاكرة، وهنا تزال آثار المعارك الفلسطينية مع المستعمِر بمبرر المحافظة على رموز التراث المعماري، الذي يعطي العمار قيمة مع أصل التكوين له.

يطرح خلدون بشارة احد مشاريع الترميم وهو قصر القاسم في نابلس، وعلاقته بفكرة المعركة أثناء المقاومة الفلسطينية؛ *"قصر القاسم حدثت فيه ثقوب فترة الانتفاضة الأولى كان الشبان يصنعون ثقوب في الجدران للهرب من الإسرائيليين،ا رجعنا رممناه وعملنا إعادة بناء بالكامل واختفت الثقوب مع بعض علامات التصليح الباقية، ولكن بشكل عام أن الشباب عملوا هذه الثقوب أثناء ملاحقة الإسرائيليين لهم، ولم نرد لهذه القصة أن تستمر في التكرار، لان ما نريده هو أن نحافظ على موروثنا وتراثنا، فيجب أن يشعر كل شعب أن هناك مباني بحاجة للحماية ويجب تعليمها لحمايتها، يجب أن نكون صريحين، السؤال هو:" إحنا بدنا نضل نقاوم في البلدة القديمة في نابلس؟"*

195- أخذت الصورة من موقع http://www.triposo.com/

أنا برأيي أن الفلسطيني قادر على أن يحدد ما المكان الذي يستطيع أو يجب أن يقاوم فيه. إسرائيل همجية بطريقة لا تطاق، ولكن أتمنى أن في يوم من الأيام سيظهر أمل سواء كان من طرفنا أو طرفهم أن نصحى على أنفسنا ونحاول التعايش مع بعضنا، يجب أن يكون هناك طريقة. المشكلة الدائمة هي أن إسرائيل دائما تجرنا للعبة التي تلعبها، فيدعوا امتلاك الحمص بنصير نقاتل عالفلافل، فكلها ردود فعل، وما فيها استراتيجيات ولا وعي.

للأسف في رواق لايوجد قانون يحمي التراث، كيف سنطلب من إسرائيل أن تحميه!! عندنا الجرافات في أول لحظة الهدم تأتي وتجرف كل شيء، والقانون الذي نستخدمه هو قانون بريطاني حقير، بالتالي يجب أن تحمي مبانيك التراثية قبل أن تطلب من المستعمر أن تحميه، فإسرائيل حشرتنا في مناطق a، مع انو الأرض الباقية تشكل ما يقارب ال70%، ولكن يقرروا أن تكون الأماكن السكنية مقر للمعارك، بتحشرنا في غزة وكلها مباني وبتحكيلنا قاتلوا".

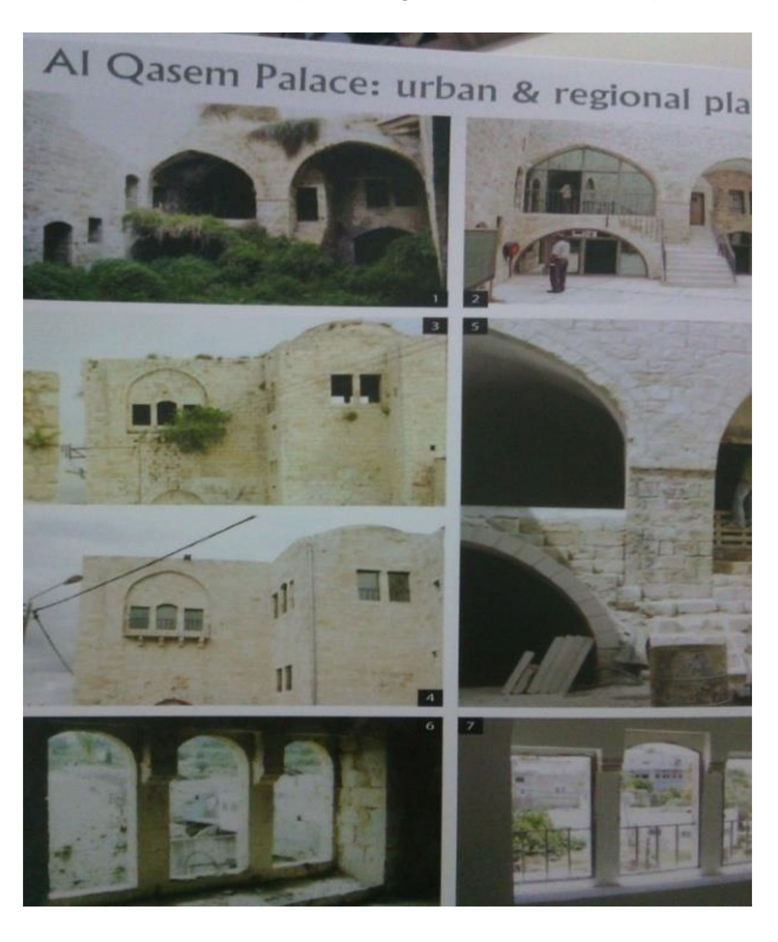


*قصر القاسم في نابلس بعد ترميمه[196]



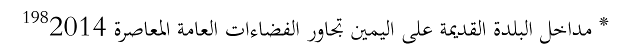
[196]- أخذت الصورة من موقع http://www.raya.ps/

*قصر القاسم من انجاز مؤسسة رواق في مشاريع إعادة الترميم [197]



بعد طرح مجموعة نماذج مختلفة لصور معمارية من البلدات القديمة في نابلس ورام الله، يبدو أن هناك اختلاف تطرحه البنية ثقافياً واقتصادياً، واجتماعياً من حيث التعامل مع العمار التاريخي التراثي، الذي تعرض لعمليات التدمير الحضري، أو حتى الإتلاف والإهمال، بعد مجموع من السنين، والمعارك؛ وذلك بإعلاء قيمة العمار من حيث أصله التاريخي، على تداخله الذاكراتي في الفضاء الاجتماعي، فبصرياً يبقى هذا العمار جزء من تاريخه إنتاجه، وارتباطه بالتراث يجعل من المحافظة عليه دون رصاص المقاومة، هو أساساً جزء من ربط الوطني بالتاريخي، والبحث عن قطع الأصل لإثبات هوية الحق في الوجود على أرض الصراع مقابل رواية الآخر المستعمِر.

[197]- بشارة، خلدون، تشغيل، مشاريع رواق الترميمية 2001-2011، رواق، رام الله، 2011، ص 72.



* مداخل البلدة القديمة على اليمين تجاور الفضاءات العامة المعاصرة 2014[198]



يظهر في الصورة الأخيرة انقسام في المكان والهوية المعمارية، بين مباني البلدة القديمة وأسواقها، وبين دوار نابلس ومبنى البنك العربي الضخم الذي يجاور الدوار، ليخلق في الفضاء العام تنوعاً أخفى في وقته المعاصر حرب المعركة التي خاضتها قوات المستعمِر ضد الفلسطينيين بين أركنة المكان. ليقدم الجزء التالي من هذا الفصل مجموعة من محاولات استنطاق المكان برموزه بحثاً عن ذكرى تبتعد عن الركام غير الممول، أو بعيداً عن الحجارة الأثرية التي يهتم الفلسطينيين بكونها جزءاً من هويتهم، وجزءاً غير مستقلٍ عن مشروعهم التحرري، فكيف يتم رسم سياسات الذكرى والذاكرة في الفضاء الاجتماعي داخل البلدة القديمة. يقدم الجزء التالي مجموعة من تالفات المكان والنسيان مع أماكن الذاكرة.

[198]- أخذت الصورة من موقع http://montada.aya.sy/

3.2 أماكن الذاكرة: مفهوم يخلق صوراً عن الموت تألف المكان

"اكتب عالشمس الآف الضحايا[199]"

*جميع الصور في هذا الجزء من تصوير الباحثة 2014-2015



يستخدم هذا الجزء مجموعة من المفاهيم التحليلية التي تفكك المشهد، وتحاول تقديم قراءة جديدة بعيدة عن قداسة التاريخي والأرشفية، أو قداسة تقديم الحقيقة، وذلك من خلال استخدام "التحليل العباري" لميشيل فوكو في نموذج تراكم أمكنة معينة يتم حصر الذاكرة فيها، والية الخطاب الذي أسس لتكوين مثل هذه الأماكن.

إن التحليل العباري يتجه نحو الأشكال النوعية للتراكم، والتي لا يمكن مماثلتها بعمليات الاحتفاظ بالصور داخل الذات في شكل ذكريات أو عمليات تجميع محايدة للوثائق. فقد كانت العادة أثناء تحليل الخطابات التي تمت فعلاً بما يخض ذاكرة ما، هي باعتبارها خطابات تعاني من قصور ذاتي وعطالة جوهريين: وأن الصدفة وحدها هي التي احتفظت لنا بها،

---

[199]- اغنية من الانتفاضة الاولى

كما رعتها عناية البشر وأوهامهم، تلك الأوهام التي يكونونها عن أقوالهم فتذهب بهم إلى إعطائها قيمة واستحقاقاً يرفعها إلى مستوى الخلود؛ غير أنها لم تعد تمثل سوى أشكال وتعابير خطية تتكدس في المكتبات غارقة في سبات عميق، منذ أن تم التلفظ بها ودخلت طي النسيان وطمس الزمان معالمها. والفكرة في التحليل هي محاولة بعث الحياة في الأشياء التي حاول التاريخ سدل الستار عليها، عند إعادة قراءتها في النموذج الموجودة فيه من الواقع. أو قد نعثر فيها على علامات تأخذ بالمعرفة إلى مرحلة صياغتها والاسترشاد إلى اكتشافها، وحينما تفسر رموز تلك العلامات، قد يستخرج منها طريقة للتذكر تخترق الزمان، وكذلك نستخرج منها دلالات وأفكار ورغبات واستيهامات دفينة. ومهما كان هناك تفضيل للفظ من الألفاظ الأربعة التالية على الآخر (قراءة، أثر، تفسير، الرموز، تذكر)، ومهما كانت الأهمية البلاغية التي نعلقها عليه أكثر من غيره؛ تلك الأهمية التي تخول له أن يقوم مقام المفاهيم الثلاثة الباقية وينوب عنها، فإنها تحدد مجتمعة المنظومة التي تخول لنا، كما جرى الاعتقاد، استئصال الخطاب الماضي وانتزاعه من قصوره وجموده، وابتعاث شيء من حيويته الضائعة، للحظة معينة[200].

يطرح البحث تحليله انطلاقاً من حدث قد يعد كبيراً في مشروع التحرر الفلسطيني، وهو الانتفاضة الثانية وبالتحديد فترات الاجتياح، التي مرت على فلسطين، وترك مجموعة من الدلالات التي تشير لمعاني معينة مرئية وغير مرئية، بعد عملية تدمير المكان بمعماريته، ومحاولات اجترار الهوية الفلسطينية نحو خطابات تشوه ظهور الحقيقة بين معالم تلك المعمارية في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني.

تبعاً لعلي حرب فان "مغزى الاستشهاد بالأحداث الكبرى التي غيرت وجه الأرض ومشهد العالم، أن الحدث والحقيقة والفكر، هي ثلاثة مفاهيم تتقاطع بقدر ما تتداخل ولا مجال لأن ينفك أحدها عن الآخر، بل يعاد تركيبها باستمرار. ومع كل تركيبة مفهومية يحصل تغير في الخارطة وانقطاع في المشهد، تتغير معه أشكال المعارف وأنماط الروابط، على قدر ما للحدث من القوة والأثر، أو من الوزن والثقل. ولذا، لا يمكن للمرء أن يفكر بصورة منتجة، بالقفز فوق الحدث وما يتولد

---

[200]- فوكو، ميشيل، حفريات المعرفة، تر سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1987، ص 114.

عنه من الحقائق أو الوقائع. فمن يفكر بصورة مجدية وفعالة، إنما يفكر فيما يحدث، وبسببه ومن أجله، أي من أجل صوغ الحدث والمشاركة في صنعه، اخراجاً للممكن مخرج الوجود، أو تدخلاً في لعبة الإمكان وخارطة الكائن، للانخراط في عملية الإنتاج أو الخلق والتشكيل، وما يحدث له قوته ووقائعيته. إنها قوة الحقائق التي يولدها الحدث والتي تفرض نفسها، في وضع ما أو قطاع ما أو حقل ما، بقدر ما تغير نماذج المعرفة ومعايير العمل، أو مرجعيات المعنى وأشكال التواصل، بصورة لامجال معها للعودة إلى الوراء، إلا بقدر من الزيف والتضليل، أو بنوع من التعسف والتحجر أو بضرب من العنف والإرهاب"[201].

ترشم البلدة القديمة في نابلس بالتحديد بمجموعة من النصب التذكارية والضروح التي تحمل معها تأريخاً لشهداء الانتفاضة الثانية، ممن سقطوا أثناء مقاومتهم للمستعمِر الإسرائيلي داخل البلدة القديمة. تُطرح هذه النصب على أنها جزء من المحافظة على ذكراهم كشهداء المشروع التحرري، ولكن ما يتم البحث فيه انطلاقاً من ذلك هو؛ المعاني التي تشكلت من خلال مغزى الوضع داخل الفضاء الاجتماعي في البلدة القديمة، وما الأثر الذي تضفيه على ذاكرة المكان عند الفلسطينيين، وعلى قصة الحرب في التواصل الاجتماعي بينهم على اعتبار أنها تمثل مفهوم "أماكن الذاكرة".



[201]- حرب، علي، الفكر والحدث، حوارات ومحاور، دار الكنوز للاداب، بيروت، 1997، ص 11.



يعد مفهوم "أماكن الذاكرة" أحد انتاجات المفكر الفرنسي بيير نورا[202]، والذي يحمل بين بنيانه مجموعة من المقارنات بين خطاب تشكيل الرموز للذاكرة والتاريخ، وكيف ترسم وتُنتج الذاكرة المعاصرة بين ثنايا الفضاءات الاجتماعية. المنظمات الرمزية المشكلة للذاكرة والتاريخ تمارس السلطة وتحدد البنية لأنها هي بذاتها بنية، فالسلطة الرمزية تسعى لإقامة نظام معرفي كوظيفة سياسية لا تقتصر فقط على وظيفة التواصل عند البنيويين، بل كأدوات للتضامن الاجتماعي، ومن حيث أنها أدوات معرفة وتواصل فهي تخول بسلطة إعادة إنتاج النظام الاجتماعي[203]. إن الفكرة من أماكن الذاكرة تكمن في بلورة الذاكرة في لحظة أو عن لحظة تاريخية معينة، بحيث تُمزق عن تلك اللحظة وتجسد الذاكرة في مواقع معينة وذلك لأنه لم يعد مكان/واقع حقيقي. إن مثل هذا الانهيار الأساسي للذاكرة عن المفاهيم النظرية والاجتماعية السابقة والتي أودت نظرياً في

[202] - Nora, Pierre, Between memory and History: les leieux de Memoire, University of California, 1989,1

[203] - بورديو، بيير، الرمز والسلطة، تر عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007، ص 49-50.

بداية البحث؛ هو مثال مألوف ينتج من خلال التحول إلى الديموقراطية والثقافة الشعبية على نطاق عالمي. إن الشعوب حديثة التحرر من الاستعمار أيقظت علماً يبحث في السلوكيات التي انتهكها الاستعمار، وتقوم تبعاً لذلك بتنظيم استقبال الماضي. يتم تنظيم استقبال الماضي تحت نظر الحاضر الساكن، من خلال التلاعب بعمليات الإضاءة والظل عليه[204].



إن الهدف الأساسي وراء أماكن الذاكرة هو توقيف الزمن ومنع النسيان، وإنشاء حيز للأشياء التي تخلد الموت، وتشييء اللامحسوس، كل هذا لتجميع أكبر قدر من المعاني في أصغر الإشارات والمدلولات. ومن الواضح أن أماكن الذاكرة

[204] - Nora, Peirre, previous refernce,2-3

وجدت بفعل قدرتها على التحول وإعادة إنتاج لا منتهية لمعانيها، وانتشار تشعباتها، فأماكن الذاكرة تملك عظتها الخاصة في إشاراتها[205].

تحمل النصب والضروح التذكارية للشهداء مجموعة من الاضاءات على أسماء معنونة لها، إما كمجموعات أو كأفراد منفردين بتملك النصب، ويتم إضافة ألقاب بعض الشهداء الذين حملوها أثناء مقاومتهم، أو من لقبوا بعد استشهادهم. بالإضافة لإشارات لأحزاب سياسية كانوا ينتمون إليها، ويعملوا تحت مسماها. أو تاريخ زمني يحفر على الحجر ويعاد إنتاج معناه بصرياً عن يوم استشهادهم. فكيف يبدأ موت الإنسان في صناعة المعنى داخل الشيء وداخل المكان، منقولاً إلى المستقبل الذي يبصرها.



Noura, Pierre, prevoius reference, 14-18.-[205]

أصبحت هذه النصب تفرغ الذاكرة في الأشياء، وتتشكل في لحظة زمكانية معنية ما بين موقع الاستشهاد وتاريخه، مما يجعل الذاكرة مربوطة بالأداة، والأداة هي التي تشكل المعاني والمفاهيم تبعاً للمؤسسة التي تقوم بتحديد الاضاءات، وتحديد نوعية الاتصال الجماعي مع هذا التشييء، بالتالي يتم صناعة المستدخل الذاكراتي لما يحدده الخطاب التاريخي الرسمي للمؤسسة الفلسطينية والتي تقوم على تحديد الرموز التي ترمز الموت في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، وتصبح عندها ذاكرة مصطنعة يتم فرضها على الاستقبال، ورسم المشهدية المحددة التي تستدخل في عين المتلقي الذي أصبح يتعايش معها كجزء من فضائه المألوف. وهنا تصبح الإحالة للمعاني غير متكررة، بل تأخذ بالتقلص لحد إقصاء معنى الموت من الرمز. إن ما سبق بعكس الرمز عند بنكراد على سبيل المثال " الأشياء ذات الأبعاد الرمزية تخضع، لكي تصبح حاملة لبعد دلالي رمزي، إلى سيرورة طويلة عادة ما يكون الانتقال داخلها من حالة الاستعمال إلى حالات التدليل الرمزي الإضافي انتقالاً معقداً ويستدعي استحضار ذاكرة موغلة في القدم، قد تكون مضامينها تاريخية أو دينية، أو أسطورية، أو خرافية. فالأمر يتعلق بالانتقال من حالات التشخيص المحدد في الزمان والمكان إلى حالات التجريد المعمم الذي يضاهي الزمن في سرديته"[206].

يختلف حال أماكن الذاكرة لأنها خرجت من فكرة أنها تستطيع رسم ممارسات التجريد الحدث بزمانه ومكانه. النصب التذكارية والأعمال الفنية والكتب التاريخية وأيام الذكرى السنوية، التي تصنع بخطاب رسمي تأخذ بالحلول محل العوالم الحقيقية التي عايش فيها الناس الأحداث الماضية، والمعارك التي خاضوها، أو خاضها من قبلهم. وعلى حد تعبير نورا، تغدو أماكن الذاكرة لتقول إن الذاكرة لم تعد موجودة بشكلها العفوي، وإنما تصنع الواقع وتعيد رسمه تحت خطاب معين.

لنقل بإيجاز طرحاً لميشيل فوكو؛ لقد كان التاريخ في ثوبه التقليدي، يسعى إلى أن يجعل من نصب الماضي وأثرياته شكلاً يسمى ب"ذاكرة"، ويحولها إلى وثائق ويحث تلك الآثار على التكلم. ولكن تلك الآثار التي غالباً ما تكون خرساء، في حد ذاتها، أو أنها تقول صمتاً غير ما تقوله جهراً؛ أما اليوم فان التاريخ هو ما يحول الوثائق إلى نصب أثرية، ويعرض كمية من

[206]-بنكراد، سعيد، مسالك المعنى، دراسة في بعض أنساق الثقافة العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2006، ص 110.

العناصر التي ينبغي عزلها والجمع بينها وإبرازها والربط بينها وحصرها في مجموعات، حيث كان التاريخ التقليدي يكتفي بالتنقيب عن الآثار وإبرازها والربط بينها وحصرها في مجموعات، الآثار التي خلفها البشر ويفحصها ويتعرف على ما كانت عليه. لقد مضى زمن كانت فيه الحفريات كفرع معرفي يدرس النصب الأثرية الخرساء والآثار الميتة، والموضوعات غير ذات السياق؛ والأشياء التي خلفها الماضي، تتمسح بالتاريخ ولا تتخذ معناها إلا بفضل تقويم خطاب تاريخي؛ وربما كان في استطاعتنا اللعب بالألفاظ والقول أن التاريخ اليوم هو الذي صار يتمسح بالحفريات وينزع نحو الوصف الباطني للنصب الأثرية[207]. يعيد التاريخ إنتاج فكرة النصب التذكارية كأماكن للذاكرة، كجزء من ترسيخ بقائه كمتملكٍ للحقيقة، ومنه أنه يعدد حدود الذاكرة تبعاً لخطابة، وليس للخطاب الاجتماعي للذاكرة.



[207]- فوكو، ميشيل، حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص 9.

المشهد الذي تنقله الصور السابقة هو انعكاس عن تالف النصب مع المكان داخل البلدة القديمة في نابلس، لدرجة أنه لم يعد مرئياً بمعنى قصة الماضي التي يقدمها لم تعد مرئية، وفعلاً تكمن الإضاءة على هذا المشهد من القصة داخل معاينات الاستقبال لمن يمر في البلدة القديمة في نابلس، هو عندما يتوقف أحد المشاة سائلاً عن النصب وحدثه، أو في محاولة تصويره، بحيث تنتقل مع الباحث أو الشخص الذي يقرر أن يضيء على هذه الجزئية من الفضاء الاجتماعي للبلدة القديمة مجموعة من نظرات المتلقين الذين يحاولون بتفعيل الاستقبال البصري لما قد يكون مثيراً أو مختلفاً في بقعة المكان هذا. ومن ذلك أن عملية المرور تأخذ دربها العفوي بجانب النصب بدون الالتفات إليها، تصبح لا عفوية المكان تظهر مع عمليات الإضاءة على النصب التذكارية.

يطرح رينيه جيرار العلاقة مع الموت بكونه "مقدس" والسلوك الاجتماعي الذي يرتبط به، فهو ينقسم دون قطع بين جزأين، الأول الخيّر والثاني الشرير، تبدأ العلاقة مع الأول بمنحه قداسة التقرب، واحترام الوجودي في الموت، والثاني في الخوف وإقصاء الموت عن المحيط لعدم التعرض لعنفه على الأفراد أو الجماعة، فيصبح تآلف الناس للموت نوعاً من الوهم الذي يظنون فيه أنهم يستطيعون إقصاء الموت عن حياتهم إذا قاموا بتقديسه أولاً، وتجاهله ثانياً، "أن البشر لا يمكنهم العيش في خضم العنف، كما لا يمكنهم العيش طويلاً في ظل نسيان العنف، ولا حتى في ظل الوهم الذي يجعله مجرد أداة أو خادم أمين، ضاربين بكل الفرائض الطقسية والمحظورات عرض الحائط. وإذا كان من واجب كل جماعة أن تنشئ علاقة مع المقدس كي تزدهر في ظل هدوء منظم وسمح لا أثر فيه، لأي تراخٍ فان التعبير عن تعقد هذه العلاقة وتنوعها لا يمكن أن يكون في غياب الحقيقة العارية إلا من باب اللمح والإشارة. وعليه، يفترض بالجماعة ألا تبالغ في الاقتراب من المقدس مخافة أن يفترسها، ولا في الابتعاد عن التهديد الخيّر مخافة أن تتعرض لخسارة مفاعيل حضوره المعطاء[208]"

[208]- جيرار، رينيه، العنف المقدس، ص 450

إن تكرار موضوع النصب يؤدي إلى اختلاف معاني الذاكرة، ويقدمها دولوز كالتالي[209] "عندما يفتقد وعي المعرفة أو إنشاء ذكرى، لا تعود المعرفة كما هي ذاتها إلا تكرار موضوعها: تُلعب أي تكرر، تحرك بدلاً من أن تعرف. ويظهر التكرار هنا كلاوعي المفهوم الحر، المعرفة أو الذكرى لاوعي التمثل. ويعود فرويد إلى نسب تجميد كهذا إلى السبب الطبيعي: الكبت، المقاومة التي تجعل من التكرار عينه " إكراهاً" حقيقياً، قسراً.. وهنا أيضاً يمكننا أن نستخلص مبدأ الصلة المعكوسة بين التكرار والوعي، وبين التكرار والاستذكار، وبين التكرار والتحقق (مفارقة القبور، أو الأشياء المدفونة): نكرر ماضينا كلما قلصنا من إعادة تذكره، وكلما قلصنا الوعي بتذكره– تذكر وأنشئ الذكرى كي لا تُكرر"[210]. يكمن التقليص في الذاكرة من خلال حصره بأماكن الذاكرة، وبالتالي يبقى الموت، وموت المعركة، محصوراً بتكرار الموضوع، وتقليص الوعي فيه، بحيث لا يعود التذكر وظيفة حيوية وفعالة بين أفراد الجماعة الواحدة، وحتى تنفصل الذاكرة عن الأشياء الموجودة في المحيط المعاش بفعل تكرارها.



[209]- راجع مقدمة المترجم في كتاب الاختلاف والتكرار: يطرح دولوز في كتابه الاختلاف والتكرار فلسفة جديدة أرادها فلسفة تجريبية لا تخرج عن العينية، إلا أنها ضد التمثل. وهذا الكتاب الذي بدأت تتشكل من خلاله فلسفة دولوز الخاصة، بعد مرحلة تاريخ الفلسفة، يتضمن في صفحاته رداً على فكر التمثل يأخذ عليه" بقاءه عند شكل الهوية، تبعاً للصلة المزدوجة للشيء المرئي والذات التي ترى.

[210]- دولوز، جيل، الاختلاف والتكرار، تر وفاء شعبان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 69.

تقدم النصب التي رسمت للذاكرة مجموعة من الإشارات التي تؤسس لخطاب ليس مرئياً بعد لحظة الحدث، تحمل النصب معها قصة المعركة الوطنية ضد المستعمِر ويبدو ذلك من مجموعة الكتابات التي خُطت عليها ورافقت مقدار الحدث ومعانيه. الكتابات تحمل مدلولات المقاومة في المشروع التحرري، وتعلي مجموعة من الإشارات الدينية من قيمة الشهادة في هذه المعركة، ولكن تكمن فكرة مكان الذاكرة بحصر الخطاب المقاوم فيه، والإضاءة اللحظية في استبعاد الخطاب المقاوم بعد انتهائها، وجعلها جملاً تحفظ قيمة الموت بالحزن على الحجر. فما قيمة "لن نغفر .. لن ننسى" عندما تحصر لحظياً في هذا المكان.

دمعي على خدي جرى   فابتل ثوبي فلترى

النار تكوي مهجتي   واعين تبكي ما ترى

ماكنت يوماً خائفاً   بل في جسدي حزني سرى

أماه ابكي حسرة   في لوعة ما جرى





سليمان القصاص
مهندس العبوات الناسفة
في كتائب شهداء الأقصى - مجموعات فارس الليل
الذي أستشهد بتاريخ ١١/١٢/٢٠٠٧م
مطعم شرف

بعد أن تتحقق وتتحول الرابطة المعنوية الراغبة بتحقيق السيادة إلى مؤسسات تجسدها، متميزة ومغتربة عن الأفراد ورغباتهم، يأخذ محيط الذاكرة بالانحسار لصالح حيز مختار، وتأخذ الحاجة إلى أماكن الذاكرة بالتزايد: النصب التذكاري، مواقع المعارك من هزائم وانتصارات، المتحف كبيت للذاكرة، وتتم فيها محاولة استعادة العلاقة مع الأمة، كأنها علاقة مع أشياء محسوسة وملموسة ومعروضة، خاصةً بعد أن تجردت العلاقة وزالت الذاكرة كممارسة طقسية، وأصبحت تستعاد في ممارسة واعية للطقوس_من ممارسة طقسية بطبيعتها إلى طقس ممارس[211]. السؤال عن الخطاب الرسمي الذي يُشكل هذه المواضع، فما هو دور البلديات بكونها لاعب أساسي في تشكيل المشهد داخل فضاءات البلدات القديمة كرام الله، أو نابلس.



كانت إجابة رئيس بلدية رام الله على سؤال "كيف ترمز البلدية لفترة الاجتياح في الذاكرة؟"

"ذاكرتنا لا يمكن أن نتعامل معها على أنها بدأت في 2000 وإنما منذ 1917، واليوم في أرشيفنا موجودة كل المراحل، ولكن لا نستطيع بل لا يمكن أن نحول البلد لمعرض ذكريات.

[211]- بشارة عزمي، مرجع سابق، ص 46.

خطأ كبير أن يبقى المجتمع يعيش في التاريخ، صحيح أن هناك مجموعة كبيرة من الشهداء والجرحى والأسرى ضحوا بأنفسهم من أجل البلد، كل هؤلاء لهم حق علينا، ولكن في مجموعة أخرى من الناس" الي بدها تعيش"، وحتى نقدر أن نوصل لمرحلة الاستقلال ما بنفع نضل نندب على الماضي، لا نريد عند حيان موعد الاستقلال أن نكون إحدى دول العالم الرابع أو الخامس مش بس الثالث، لان التاريخ وقف بنا عند حد معين. يعني إذا أردنا أن نقنع أنفسنا أننا نخضع تحت الاحتلال، طب ما إحنا عم نعمل رام الله smart city، المدن العربية في كل الوطن العربي ليست مدن smart city، مع أنها دول مستقلة. ما نريد قوله هنا انه حتى لو كنا تحت احتلال لازم نضل ندور على بديل، ونستمر في النضال وبنفس الوقت مش لازم ننسى الهدف الأساسي، وهو بناء مؤسسات لهذه الدولة لتي يجب أن تتحقق قريباً، ويجب أن نكون بمستوى معين قادرين على إكمال المسيرة.

في صرح للشهداء في البلدة القديمة، لا يوجد عليه أسماء، وبغض النظر عن أسماء الشهداء، فهم باقين في القلوب. الفلسطينيين وصلوا لهذه المرحلة بعد مسيرة كبيرة من التضحيات، وحتى ننقل كل هذه التضحيات يجب أن يكون هناك إشارة لذلك حتى تراه الأجيال القادمة".

يشير رئيس بلدية رام الله إلى الخطاب الدولاتي وأهمية بناء مؤسسات الدولة، والتي لا تتقاطع مع كون معارك الماضي يجب أن تبقى محاصرة للفلسطينيين في فضاءهم العام. يكتب عزمي بشارة مستخدماً بيير نورا بان تاريخ الأمة يبدأ بكتابته وكأنها قائمة كأمة متحققة. وتبدو الذاكرة القومية كأنها تفترض وجود الأمة، ولكنها في الواقع تفترض هدفاً سياسياً، هو توحيد الأمة وتحقيق سيادتها السياسية. والذاكرة القومية تساهم في هذا التوحيد، إنها تساهم في إيجاد الأمة بافتراضها هذا الوجود. والأمة رابطة معنوية يتطلب وجودها الذاكرة الجماعية، والنسيان الجماعي، والهدف السياسي[212]. ولكن ما يحدث هو محاولة رسم سياسات المستقبل للمدينة دون التعلق بالماضي،" الذاكرة الجماعية تعمل باتجاهين: إلى الخلف، والى الأمام. فالذاكرة لا تستعيد الماضي وتعيد بناءه وتركيبه فحسب، بل تنظم أيضاً خبرة الحاضر والمستقبل؛ وهذا ليس من

[212]- بشارة، عزمي، الذاكرة والتاريخ، الكرمل، عدد ص 46.

الصواب أن نقابل "مبدأ الذكرى " الذي يمثل الماضي "بمبدأ الأمل" الذي يمثل الحاضر والمستقبل: فكلاهما يستوجب وجود الآخر، ولا يمكن تصور وجود أحدهما دون وجود الآخر"[213].



أما مدير بلدية رام الله "احمد أبو لبن"[214] فينظر إلى أن المتحف بالتحديد وهو احد أماكن الذاكرة يمثل إحدى الاستراتيجيات الوطنية التي يجب الاهتمام بها والعمل بجدية عليه، *"البلدية بتشتغل على موضوع المتحف، ويجب أن يتم تناول رام الله تاريخياً من جرة، لورقة تعود أيام العثمانيين وقبل، الآن متحف رام الله الذي لا نعترف بشرعيته ورافعين قضية على وزارة السياحة حتى يتم إخلائه، لأنه لا يمثل متحف حقيقي، بالتالي تم شراء المنزل الذي خلفه والقيام بعملية ترميمه حتى يتوسع ويصبح متحفاً يمثل ذاكرة حقيقة"*

إن الإشارات المتعددة إلى المتحف سواء بناء المتاحف أو بناء متحف ياسر عرفات الذي يعتبر شكوكاني *" إن متحف ياسر عرفات كفيل بتسجيل وأرشفة الإحداث التي حدثت في مقاطعة رام الله فترة الاجتياح"*، تشير إلى التوجه المعاصر في

---

[213]- اسمن، ايان، مرجع سابق، ص 73.
[214]- أحمد أبو لبن، مدير بلدية رام الله.

الخطاب الدولاتي العالمي نحو التركيز على فكرة المتحف باعتباره مؤسسة تنتج الحقيقة التاريخية، وتحافظ على ذاكرة المجتمعات بحيزه المكاني.

جيرار ليكرك يصف الولع الجديد في فكرة المتحف كنوع من القداسة التاريخي والجمالي الفني بعيداً عن قداسة الألوهة، ويرى أنها عناصر جدية من إنتاج الحضارة الغربية في مراحل الحداثة التي مرت بها" لم تعد الحضارة الغربية تبني كاتيدرائيات، فهي لم تعد تنتج فناً مقدساً. لقد انقطعت عن أن تجعل الفن يلعب دور الوطنية الدينية، خاصةً منذ أن فقدت جزءاً من إيمانها بالآلهة. خلافاً لذلك، إنها تبني المتاحف وترى في الفن شكلاً جديداً من المطلق، كما أنها ترى في خلود الأعمال الفنية مادة بديلة ممكنة عن موت الآلهة. إذ لم تعد هذه الحضارة تؤمن بالآلهة، فهل يكون ذلك مسبباً لكي تنظر إلى "الموضوعات" التي كانت فيما سبق حاملة لقيم دينية، بنظرة "جمالية" أو "نظرة فعالية في تقديرها لما هو جمالي"؟ "يحول المتحف العمل الفني إلى موضوع". ترتبط ولادة المتحف الخيالي بولادة الاثنوغرافيا- حيث المقصد يعتمد المقارنة أيضاً- وبمتاحف الرسم العربي، حيث لا يعود للفن قيمة دينية بل قيمة تاريخية وجمالية: "كان تحول الماضي تحولاً في النظرة. دون هذه الثورة الجمالية ... ما كان يقدر لمجموعات الاثنوغرافيا .. أن تجتاز الحاجز الذي يفصلها عن المتاحف"[215].

يحدث التمسك بأماكن الذاكرة بفعل اعتبارات الخطاب التاريخي الذي يقدم احتكاره للحقيقة سواء ببنائها أو بإعادة بنائها، فلقد كان التاريخ أسطورة منيعة، لعلها آخر أسطورة كبيرة مع اللاوعي. كان أسطورة تنطوي في الآن نفسه على احتمال التسلسل "الموضوعي" للحوادث والأسباب واحتمال التسلسل السردي في سياق الخطاب. هذا الطابع الخرافي، هذه الطاقة الأسطورية للحدث أو لروايته، هو ما يبدو أكثر فأكثر انه على طريق الضياع. وخلف منطق يقوم على الكفاءة والإقناع، وعلى الهوس بالأمانة التاريخية والأداء الكامل، هذه الأمانة السلبية والعنيدة لحقيقة الماضي، ولحقيقة هذه الواقعة من الماضي أو الحاضر، والأمانة ببعث مصطنع مطلق للماضي أو الحاضر، والتي حلت محل كل قيمة أخرى[216].

---

[215]- ليكرك، جيرار، العولمة الثقافية، الحضارات على المحك، تر جورج كتورة، دار الكتاب الجدية المتحدة، بيروت، 2004، ص 323.
[216]- بودريار، جان، المصطنع والاصطناع، مرجع سابق، ص 106.

تفترض العالمية أو تدعي إن سمح لنا القول، ظهور أول كوني عابر للحضارات، أو حداثة ما بعد تاريخية. يمكننا أن نتخيل هذه الحداثة العابرة للثقافة عينياً بشكل المتحف الخيالي أو بشكل مكتبة بابل. إنهما نموذجان– فعليان ووهميان في آن واحد– أصلهما المشترك يعود إلى أركولوجيا القرنين التاسع عشر والعشرين، والى فقه لغة القرن التاسع عشر والعشرين، والى فقه لغة القرن التاسع عشر، بعبارات أخرى إن لهما رديف هو ما أطلقت عليه اسم "اللانهائي النصي"، وولادة "الأدب العالمي" أو "الأدب المقارن"، وتأويلية ذات نمط جديد، صار ضرورياً بفعل ما للخطابات الثقافية من صراع عام، وبفعل "المضاربة" بين النصوص المقدسة والكتابات القديمة والكلاسيكيات[217].



217- ليكرك، جيرار، مرجع سابق، ص 333.

من الصراع على الحقيقة فان "تحليلها" كتصور للموجود أو كشف للمحجوب، لا تنفصل عن "سياسة" الحقيقة، أي عن آليات إنتاجها أو إجراءات إقرارها أو مؤسسات نشرها وتداولها. والأهم أن قول الحقيقة لا ينفصل عما تمارسه الخطابات، فيما تدعي بيانه، من ألاعيب التصنيف والاستبعاد، أو من آليات الحجب والتعتيم. وكل ذلك يؤدي إلى تجاوز منطق المماهاة بين الموجود والمفهوم، أو بين المفهوم والمقول. من هنا الطابع الإشكالي للحقيقة بقدر ما ندعي الكشف عنها بهذا المعنى أيضاً، نحن لا نفكر لكي نتماهى مع ما نعتقده أو نتصوره، بل نفكر لكي نتغير عما نحن عليه يصوغ أفكارنا على نحو مغاير. وهكذا مع كل عمل فلسفي خارق، نجد أنفسنا إزاء حدث فكري يخرب مشهد المعارف وخارطة المفاهيم، بحيث يتغير التفكير بعده عما كان عليه قبله"[218].

ما تبحثه هذه الدراسة أو ما تسأل عنه، لا ينخرط بلعبة سياسة الحقيقة، بل هي عبارة تحليلية بسيطة عن الخطاب الذي ينتجها، ومن ناحية أخرى كيفية تعامل المجتمعات المستعمَرة كالمجتمع الفلسطيني مع الحدث، الحدث الذي يتصادم فيه المجتمع بناسه وأشيائه مع هذا الصراع، وكيف يقوم بالتعبير عنه في الفضاء الاجتماعي، وما يشكله من رموز ودلالات تنتج وتنتقل بين الأفراد.

[218]- حرب، علي، مرجع سابق، ص 12.

4. خطاب العمارة اللاعنيفة ، استيلاد فلسطيني في الواقع الاستعماري

استكمالاً لكل الفصول التي سبقت، وكمجموع لتحليل الخطاب، وطبيعة البنية الاستعمارية، والإنتاج الرسمي الفلسطيني لصورة العمارة الحالية، تأتي هذه الجزئية في عنوان "عقلنة مواراة الموت" من قبل الفلسطينيين الذين خلقوا لأنفسهم حيزاً سياسياً فارغاً، بعد الانتفاضة الثانية، تحت اللبس الوطني الذي خلقته مجموع العوامل والخطابات الاستعمارية، والتي سيتم محاولة تفكيكها ضمن الحياة المتخيلة لفكرة العيش الفلسطيني.

4.1 الوقوع في شبك اللاعنف للمقاومة ضد المستعمِر بعد الانتفاضة الثانية

بقي المجتمع الفلسطيني فترة الانتفاضة الثانية متلقياً ضربات العدو لا فاعلاً ومقاوماً، إلا في مساندة الطليعة المقاتلة من المسلحين في أوقات معينة كالاحتجاجات، واختلفت بطبيعتها عن فترة الانتفاضة الأولى التي لم يكن فيها انفصال بين القاعدة الشعبية والمقاومة، وذلك بفعل غياب القوة التنظيمية في فترة الانتفاضة الثانية، وكذلك اختلاف طبيعة الممارسات الاستعمارية على المستعمَرين. وبالتالي انحصر العمل الانتفاضي في العمل المسلح وحرب العصابات غير المنظمة في المراكز الحضرية الكبرى. وتمثلت الانتفاضة الثانية بإفراغها للرموز الدالة على الوطنية الفلسطينية بل وإسقاطها واستبدالها بالدولة الجديدة. وما نتج في النهاية مجموعة من آليات السيطرة الاستعمارية التي أعادت صياغة أوسلو نحو الاحتواء والإقصاء؛ الاحتواء في الربط السياسي للفلسطينيين من خلال وجود السلطة الفلسطينية، والإقصاء الجغرافي والاجتماعي والقانوني دون سيادة حقيقية. فأصبح التصادم مع المستعمِر من كل ذلك غير واضحاً، وأكثر تعقيداً، كما أصبح أقل مباشرة، ومبعد عن المرئي[219].

سئلت مجموعة من المبحوثين ما رأيهم بإزالة آثار الهدم والقصف التي حدثت في الانتفاضة الثانية، وإذا كانوا مع أو ضد هذه الممارسة، بحيث تنوعت الإجابة وتشابه المضمون سواء عند مبحوثي مواقع الإنتاج الاجتماعي، أو مستقبليه:

[219]- طبر، ليندا، عزة، علاء، المقاومة الشعبية تحت الاحتلال، قراءة نقدية وتحليلية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رام الله، 2014، ص 46-50.

موسى حديد-رئيس بلدية رام الله-:" ببساطة شعب بدنا نعيش، هاي بلادنا ما رح نضل عايشين في بلد مدمرة، والاحتلال دخل ودمر كل البنى التحية، وعمل نفس الشيء في الانتفاضة الأولى وان لم يكن بنفس المستوى، ولكن هذا الاشي الموجود، في النهاية عشان نستمر بالحياة، لازم نضل في عملية بناء متواصل" .

نينو-مدير مكتب نينو للاستشارات الهندسية-:" ، الحل هو انو يكون فيه حل سلمي دائم، طول ما انو ما فيه حل سلمي دائم إذن ما في ضمانات، سيحدث الهدم والقصف، ثم إعادة الاعمار" .

الرائد صوالحة:" كيف سنبني دولة مع عمار مهدم!"

استيتية:" كيف بدنا نعيش بين الهدم، الحياة ما بتمشي" .

عبد الرحمن[220]" ليس منطقياً أن يبقى الهدم، في النهاية حياتنا مرهونة بمنازلنا وأماكن رزقنا، ومؤسساتنا" .

منى[221]:" يمكن الفلسطينية قاموا بازلت الهدم لنفس السبب الذي قال فيه محمود درويش على "هذه الأرض ما يستحق الحياة" .

محمد[222]:" يعني صار الي صار، خلص بدنا نعيش" .

زماعرة[223]:" أنا مع إزالة الهدم حتى لا يبقى أي أثر للاحتلال" .

خالد سعد[224]:" نعم أنا مع إزالة آثار الهدم والقصف لنظهر ملامح الحضارة و التقدم و الجمال في بلادي" .

---

[220] عبد الرحمن، من سكان مدينة رام الله، العمر 25 سنة.
[221]- منى، من سكان مدينة رام الله، العمر 19 سنة.
[222]- محمد، من سكان مدينة الخليل، العمر 28 سنة.
[223]- زماعرة، من سكان جنين، العمر 32 سنة.
[224]- خالد سعد، من سكان مدينة جنين، العمر 27 سنة.

أبو عريضة:[225] "أنا من سكان الإمارات، ولما دخلت البلد من اجل أن أدرس ما كان في أي أثر للهدم، مع إني كنت متابع لأخبار الانتفاضة الثانية، والواقع أني صدمت وفكرت إنها كانت مزحة" .

تشير إجابات المبحوثين، سواء بمواقعهم الوظيفية الرسمية، أو مجموعة المبحوثين المستقبلين للعمارة، مجموعة من تخيلات العيش كفلسطينيين في الخطاب المعاصر التي تتبع تمثيل جديد للذات في انسحابها من رؤية الواقع الاستعماري، ف"الدولة الفلسطينية" التي أصبح الفلسطينيون يعيشون في كنفها، تحت وهم التمثيل الدولي، تجعلهم ينتظرون الفعل حتى يقوموا برد الفعل، في إبعاد سياسي لوضع إستراتيجية واضحة للمقاومة.

يقدم السقا عن هذه الحالة المجتمعية المعاصرة للفلسطينيين والتي يسميها"حالة التشوه الاستعماري، الذي يعيشه الفلسطينيون"، وتقوم على استحضار مجموعة من الخطابات التي تعمل من خلال وسائل الإقناع المختلفة التي توحي للفلسطينيين بأنهم يعيشون في "دولة تحت الاحتلال"، وتغيب مشاريع"التحرر"وقيم "العمل التوعوي"، و"مقاومة الاستعمار"[226].

من أين يبدأ الحديث عن التشوه الاستعماري في فلسطين!، إن بقاء الاستعمار الإسرائيلي كشكل غير مرئي في الوعي الفلسطيني تبعاً لإجابات المبحوثين الذين ربطوا بقاء الهدم الذي سببه الاستعمار هو تدليل على وجوده، وإزالته هو دلالة على إزالة مسببه. إن هذه الرؤية التي يخلقها الفلسطينيون لوجود المستعمِر هو أحد دلالات التشوه الاستعماري في فلسطين. فالخطاب الاستعماري، يحول بين الفكر والعمل السياسي، حتى يبقى الأول غير مثمر والثاني أعمى، هكذا يجمد الاستعمار القوات التي تناضل ضده[227]، وتصبح الثورة ضد الاستعمار بعيدة عن التحرر والحرية في وعي المستعمرين، وتتملك منهم القابلية للاستعمار. يقوم الاستعمار على تجميد القوى المناهضة له في البلاد المستعمرة، فيعزل الفكرة، ويعزل معها بطبيعة الحال المكافح الذي دخل المعركة تحت رايتها، ليجد نفسه في اتفاق ضمني بين السياسة

---

[225]- أبو عريضة، سكان الامارات، وحالياً يعيش في فلسطين في رام الله، العمر 25 سنة.
[226]- السقا أباهر، عنف "اللاعنف" في الخطاب الفلسطيني الجديد، جدل، عدد 23، مدى الكرمل 2015، ص 3.
[227]- بن نبي مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، 2009، ص 30.

الشهوية وبين الاستعمار، فطبيعة السياسة العاطفية تتجه تلقائياً نحو السهولة، ونحو التغلغل في أجهزة يسخرها المستعمر لمصالحه[228].

من أبرز النماذج التي تدلل على التشوه الاستعماري في فلسطين؛ الإشكاليات التي تحدث على الحالة الفلسطينية في التصور الأفلاطوني الذي قد تحققه الدولة للفلسطينيين في معركة غلبة الاستعمار الإسرائيلي، مما تجعله يتجه نحو دولية قانونية تستدعي شرعيته، ليرد على رواية الغالب، مجرد النزوح نحو التأثر بغلبة المهيمن جعلت فلسطين كنموذج ترتكب التشوهات الاستعمارية مع التشوهات السياسية الجغرافية لما قد يشكله الكيان الوطني القطري.

*"لا مرجعية تعلو فوق الشرعية الدولية، لنحول لاهاي من رأي استشاري، إلى قرار"، صورة معلقة على احد الأبواب القديمة في البلدة القديمة بنابلس[229]



---

[228]- بن نبي مالك، مصدر سابق، ص 31.
[229]- تصوير الباحثة، 2015.

تكمن المشهدية الجديدة للمقاومة الفلسطينية في تصويرها بحدود "السلمية"، "اللا عنيفة"، وذلك في محاولة استجداء تعاطف دولي غربي تبدأ من خطاب المؤسسة الفلسطينية الرسمية، وتنتقل إلى الناشطين في المجتمع المدني، أو الحركات الاجتماعية التي تمارس الاحتجاجات السلمية بصورها المختلفة، في موضعتهم للقوة خارج المجتمع المستعمَر، ونقلها لمقدرة الحصول على الشرعية والمحاسبة الدولية لجرائم الاستعمار. فالاعتماد هنا على الوازع الأخلاقي للمشاهد الغربي في نقل مشهدية سلمية للمقاومة الفلسطينية، والتركيز على أننا "نستحق" دولة من خلال مشروع "بناء المؤسسات"[230] ، نفس المؤسسات التي تلبس عماراً سلمياً لا تظهر فيه أي علامات للمقاومة "العنيفة" التي ذهبت دلالاتها بعد إعادة الاعمار. فالمشهدية البصرية لمعمارية الفضاء الاجتماعي أُنتجت بنفس الخطاب المستبطن عن أهمية نقل الصورة "السلمية" دون آثار لعنف الحرب والدمار التي حدثت فترة الاجتياحات، والتي تحاول فيها المؤسسة الرسمية الفلسطينية تقديم برنامج يقوم على تحقيق النمو والازدهار وأهمية إعادة الاعمار، ومكافحة الفساد كحل جديد للواقع الفلسطيني، وهذا الحل يقصي أي مقاومة عسكرية، بل يحافظ على إعلاء أهمية بناء الدولة عند الفلسطينيين الذين تأثروا بتبعات الظاهرة السلمية للمقاومة كحل بديل.

تقوم الحالة الفلسطينية في تقديم مبررات الواقعية وحق الناس بالعيش في حالة التشوه الاستعماري المطروحة، وذلك يترافق مع غياب سياسات اجتماعية واقتصادية تقوم على تحشيد القوى من أجل مناهضة الاستعمار، وما يساعد في عدم وجود الخطاب المضاد لخطاب المؤسسة الرسمية الفلسطينية، إن الاستعمار لا يبرز للفلسطينيين إلا في ظهور المستعمِر بشكل مرئي عند تنقل الأفراد بين المدن، أو عمليات القتل والتدمير والاعتقالات[231] التي أصبحت هي أيضاً تقبع في خطاب المواراة، واحتواء جميع الردود الشعبية التي تحاول إبراز الوعي أو الحقيقة عن الواقع الاستعماري.

[230]- طبر ليندا، عزة علاء، مرجع سابق، ص 66.
[231]- السقا أباهر، مرجع سابق، ص 6.

إن الاستعمار يبتدع أشكالاً مختلفة لمحي معركة الأفكار، ويسلط الضوء على ركن معين من المسرح، أي على النقطة التي يريد لها أن تظهر، من أجل امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة حتى لا تتعلق بفكرة مجرّدة عن طريق تعبئتها لحساب فكرة متجسدة، يستطيع النيل منها سواء بالقوة أو الإغراء، وهو بنفس الوقت يعمل على حربه ضد الفكرة المجردة عبر متخصصين استعماريين على دراية تامة لخارطة البلاد النفسية، وحول هذه الأفكار المجردة وطرق الاستعمار في مواجهتها وحربها تدور كل فصول المسرحية[232]. يتشارك الاستعمار الصهيوني ولا ينفصل عم الامبريالية العالمية بصورها المبتدعة من التمويل، وارتفاع السياسات النيوليبرالية التي تتغلغل في البنية الاجتماعية الفلسطينية، وتعمل على تشكيل صورها بادعاء عقلاني وموضوعي. ومن الأمثلة المطروحة على ذلك عملية التمويل التي رافقت بناء المقاطعات في الضفة الغربية، والتي ستطرح في الجزء القادم من البحث.

4.2 التمويل يرسم مؤسسات الدولة وخطابها معمارياً "النموذج الأمني"

إن ظهور المقاطعات بهذه الصورة الجديدة التي ألصقت بمشهد الصورة في معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، لا ينفصل عن مجموعة من العوامل السياسية الاقتصادية، والتي ترتبط بدورها بخطاب معولم ومهيمن من خلال برامج المعونات التي لم تعد إلا جزءاً يألفه الفلسطيني في واقعه المعاش، وفي تنظيم خططه المستقبلية المتبناة داخل الخطاب الدولاتي التي أشير إليها مسبقاً.

الارتباطات التي تشكل الفضاء الاجتماعي هي مجموعة من قوى السلطة التي تتمحور حول ثلاث منها؛ الأولى هي القوة الاستعمارية، والجماعات المهيمنة (أيدلوجياً) المتمثلة بالجماعات التي تحاول فرض تصوراتها على المجتمع وتحوير الأحداث لصالحها الخاص، وهي تصنف "جماعات" لأنها فلسطينياً بفعل الصراع على السلطة بين فتح وحماس، بالإضافة لمجموعات أخرى تحاول تحقيق مصالحها عبر نفوذها في النظام السياسي الفلسطيني دون أن تكون داخله كالقطاع الخاص. أما القوة

[232]- بن نبي مالك، مرجع سابق، ص 14-36.

الثالثة فهي المنظومة العالمية من خلال شبكة المساعدات التي تقدمها للفلسطينيين والكيان الاستعماري على حد سواء[233].

تقوم فكرة الهدم وثم الاعمار على تدليل مباشر للهيمنة الاستعمارية على تشكيل هذا الفضاء؛ من حيث قيام الاستعمار الإسرائيلي بشن الحرب على "تكتلات" السلطة الفلسطينية بأبنيتها فترة الانتفاضة الثانية، ومن ثم فرض خطابه الاستعماري على السلطة الفلسطينية بفرض نماذج معمارية استعمارية مستدخلة لإعادة تعزيز فكرة "المؤسسة الأمنية" فلسطينياً، كما صممت المقاطعات الجديدة، أو كما لبثت تقبع مكان السلطة الاستعمارية القديمة. أما تداخل هذه القوة مع المجموعات الأخرى فهو ما سيحاول البحث قراءته بإشارات تقاطع الواقع في المعمارية التي تنتج داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني تحت مفهوم "عقلنة مواراة الموت"؛ عبر استخدام المهنية التي تلتبسها المؤسسات غير الحكومية، والتي تنقل خطاب عقلانية التنمية في التطوير، ومنها إعادة الاعمار، وثم تنقل هذا الخطاب إلى الممارسة بالتشارك مع المؤسسات الرسمية، وبعدها تبدأ عملية التدخل في تشكيل بنية جديدة تنقل صورة عقلانية لإزالة آثار الهدم، ومنطق تنموي للبدء بإعادة الاعمار. يصف صبيح "مهننة المنظمات غير الحكومية" بفرض التخصص التقني الذي حد من اللجوء إلى الجماهير كأساس لشرعنة الفعل، والتدخل في "الحيز العام"، فيمثل هذا التحول في أحد سماته هو تشكيل إطار مختلف يتعامل مع المحليين بوصفهم مواضيع فردية لا "ذوات" فاعلة في عملية التغيير، وفي حين تغيب الذوات المحلية عن المشهد، يظهر الممول الغربي "الذات" الفاعلة، فهو من يحدد ماذا يصلح من المفاهيم والبرامج[234].

ملايين من الدولارات صرفت وتصرف حتى اليوم في إعادة اعمار المقاطعات، ولا يمكن تجاهل هذه القوة التي أصبحت تشكل عاملاً أساسياً في الهيمنة، وممارسة سلطة فرض القواعد على من يستجلب العون من هذه المساعدات الخارجية. قسمت أربع من المقاطعات (جنين، نابلس، طولكرم، الخليل) على مصدرين من التمويل؛ الأول الاتحاد الأوروبي، والثاني

---

[233]- حمدان، ايات، المساعدات الخارجية وتشكيل الفضاء الفلسطيني، مركز بيسان للبحوث والتنمية، رام الله، 2010، ص 12.

[234]- صبيح، صبيح، مقاتلو التنمية، بين خرافة التطبيق وعقائدية الخطاب والتصوير، مركز بيسان للبحوث والانماء، رام الله، 2011، ص 7-8.

التمويل الأمريكي، يعتبر الرائد صوالحة أن *هذه التقسيمات لا تأتي تبعاً لأي تصنيف للمقاطعات، فهي صممت بنفس الأهداف ونفس الشكل، بالتالي هي تقسيمات عادية للتمويل، ولا يتبع التقسيم لسياسة أي من الممولين*. يكمن تفحص هذا التمويل العالي لمعرفة ما هي الدوافع وراء التمويل الأجنبي العالي لهذه الأبنية وما أثر التوقيت الذي بدأت به إعادة اعمار المقاطعات في ال 2007. بينما ما يوضحه صبيح عن تلك التقسيمات السابقة التي يرى أنها موجودة بين التخصص والممول في بحثه الذي أجراه" من خلال عرض شهادة المفاوض السابق زياد كلو؛ أن تمويل الأجهزة الأمنية في الأراضي الفلسطينية، تحديداً: الأمن الوقائي والمخابرات، حالياً يخضع للإشراف والاحتكار الأمريكي"[235]، ربما يكون ما أشار له صبيح هو باحتكار التمويل المربوط بسياسة الوظيفة للأجهزة الأمنية، ولكن بالصورة العامة كان تمويل إعادة الاعمار هو تقسيم بين تمويل الاتحاد الأوروبي، والتمويل الأمريكي.

بيانات عن تكلفة مشروع مقاطعة طولكرم[236]، وهو يتبع للتمويل الأمريكي:

1-اسم المشروع: معسكر عمليات الأمن الوطني في طولكرم- المرحلة الثابتة، شركة شديد المقاول

قيمة العقد : شيكل 7.869.280

رقم المشروع: 2012/09/1:87

2- إعادة بناء مقاطعة طولكرم (مبنى القيادة) المقاول شركة المؤسسة العقارية العربية

رقم المشروع:2010/09/1:156

قيمة العقد: شيكل 8.318.223

[235]- صبيح، صبيح، مرجع سابق، ص 13.
[236]- بيانات عن المشروع من قبل مديرية أشغال طولكرم 2013.

3- إنشاء مبنى المنامات: المقاول شركة النخيل للمقاولات والتعهدات العامة

رقم المشروع 2011/01/1:10

قيمة العقد: شيكل 8.295.000

4- إعادة بناء مقاطعة طولكرم المرحلة الأولى المقاول شركة الطاهر للمقاولات

رقم المشروع 119 /2010/07

قيمة العقد: 3.203.489 شيكل

لماذا حصلت السلطة على الميزانيات العالية لتمويل مشروع إعادة اعمار المقاطعات؟، هذا السؤال الذي يفرض نفسه بالحد الزمني الذي حصل فيه التمويل، وكذلك بسرعة التنفيذ التي طبقت في مشروع ضخم كهذا، وبأدوات بناء خاصة استخدمت فيه؛ ومن البحث الميداني كانت إجابات بعض المبحوثين تقدم إشارات لأثر التمويل في رسم سياسات الواقع الفلسطيني المعاصر بمعماريته، وبإنتاجه. وإحدى الإجابات كانت للمكتب الهندسي "نينو" الذي قام بتصميم نموذج المقاطعات الجديدة، والذي قال بأن" *المشروع طرح على المكتب في سنة 2007، وأعطي المكتب مهلة سنة واحدة حتى انتهائه في سنة 2008، لأنهم كانوا يريدون أن يتم التنفيذ بشكل سريع*". وإجابة أخرى لكفاح بدران القائم بأعمال مدير مديرية أشغال طولكرم، حيث سئل،كيف حصلت المقاطعة على هذا التمويل العالي لإعادة الاعمار؟

"من الأمريكان لان الأمريكان والأجانب الممولين يعتبروا أن أهم شيء هو الأمن، وأن الأولوية هي ببناء قطرات أمنية، وبدأ في ال 2007 من ناحية طرح العطاءات والتصميمات.

الإشراف لمديريات الأشغال، أما المقاولين، فالسفارة الأمريكية يختاروا مجموعة من المقاولين لتعبئة العطاءات،ثم يختاروا مع وزارة الأشغال المقاول الذي سيرسي عليه العطاء. هذه العطاءات لا تنزل الصحف ، وفي أغلب الأحيان السفارة الأمريكية تعرف مسبقاً من هو المقاول الفلسطيني الذي ستتعامل معه، ومسبقاً يكون بين الطرفين اتفاقيات" .

وعلى خاصية طرح التمويل أو العطاء كما يسمى بين الأطراف الهندسية، يأكد هشام شكوكاني على ما جاء به كفاح بدران *" الحالة الخصوصية هنا أننا لا ننزل إعلان في الصحف ، فالمباني هي مبانٍ أمنية. الأشغال عملت ما يسمى بالعقد الموحد و هو الفيديك. هو اختصار لشيء فرنسي يتعلق في العطاءات "الاتحاد الدولي للاستشاريين المهندسين" . ليس من الضروري أن يعمل بها الكل ، يعني هذا الكتاب يشمل شروط عقد التشغيل وإذا حدثت أي خلافات يتم الرجوع إليه، وممكن أن تعدل عليها تبعاً لأي حالة خاصة تحدث، كوضع الاحتلال، وارتفاع بعض سلع البناء مثلاً" .*

تنظر منظومة التنمية في الأراضي الفلسطينية بواقعها الاستعماري، كما تنظر إليها في مناطق أخرى من العالم، حيث تقوم بتأطيرها على أنها تدخل فني لا أكثر، وتخرجها وتعزلها عن القوة التي يفرضها المشروع الكولونيالي، لتصبح غير مرئية، وتبدأ الرؤى التكنوقراطية بإخراج التنمية من سياقها السياسي وإقصاء علاقات القوة منها، وكذلك بمناهضتها للسياسة فهي تقوم بتعزيز ممارسة الدولة البيروقراطية[237] .

إن حجم التمويل الغربي، ونوعه، مرتبط بغاية أساسية قائمة على الحفاظ على "أمن إسرائيل"، وضمان وجودها، وتحقيق مصالحها، فالكيان الصهيوني يمثل أداةً للمشروع الامبريالي الغربي الذي يستوجب حمايته بالطرق "السلمية"، وغير"السلمية". وكانت بداية التدخل الغربي في التمويل منذ انطلاق الانتفاضة الأولى في عام 1987، حيث تدخلت لرعاية "عملية السلام"، ودفع منظمة التحرير للدخول فيها بأي ثمن. ومن هنا بدأت مرحلة أوسلو التي سمحت بالتدخلات الدولية تحت شعار"تنمية فلسطين"؛ ولكن بتبرير البحث عن تحقيق الاستقرار والأمن، والذي بالطبع يكمن

[237] طبر، ليندا واخرون، نحو اقتصاد سياسي للتحرر، قراءات نقدية للتنمية في السياق الاستعماري، مركز دراسات التنمية، جامعة بيرزيت، رام الله، 2014، ص 16-17.

في تحقيق أمن "إسرائيل" بالدرجة الأولى. وأصبح التذبذب في عمليات التمويل وكمياته معتمداً على فترات نشاط المفاوضات، أو ارتفاع عوامل تهديد السلام. كما حدث في عام 2006 بعد فوز حماس[238] في انتخابات المجلس التشريعي[239]. هذه المرحلة شكلت مرحلة الفصل أو القطع بين الوعي مع استمرار الممارسة؛ فانقطاع التمويل منذ لحظة فوز حماس لم يكن إلا دليلاً واضحاً على ممارسة الإقصاء على أحد أطراف التهديد للمشروع الاستعماري، فانقطاع التمويل شكل رهاناً جديداً في تحولات المشروع الوطني، وأخذ في تدرجاته مرحلة الفصل السياسي بين "فتح" و"حماس" كطرفين منقسمين في لعبة سياسية جديدة اجتر فيها الفلسطينيون لمرحلة سميت بمرحلة "الانقسام"، والتي تطرح تمثلاتها حتى هذه اللحظة.

ما طبيعة المصادفة في انقطاع التمويل في 2006، وإقرار تمويل المقاطعات التي تحتوي على "الأجهزة الأمنية الفلسطينية" في 2007، الإشكالية بأنها بالتأكيد ليست مصادفة، وانطلاقاً من إستراتيجية الحفاظ على "أمن إسرائيل" من الطرف الغربي، بدأت قصة تنمية واعمار فلسطينية جديدة. الفكرة في زيادة التمويل بعد انقطاعه في 2006، كان على نتيجة الانقسام بين فتح وحماس، ومنه أن زيادة التمويل جاءت لصالح فتح بمسمى السلطة الوطنية الفلسطينية على حدود فلسطين 67، بحيث تملك الخطاب النيوليبرالي خطوة نحو ترسيخ الانقسام أولاً لصالح بقاء السلطة وان كانت وهمية بان تبقى تابعة لفتح، وثانياً لأن بقاء فتح وليس حماس، أساساً في حماية غربية للاستعمار الإسرائيلي. والعامل الآخر الذي برز على السطح في هذه الفترة هو ما سمي بمرحلة "سلام فياض" المعنونة ب"خطط التنمية في فلسطين"، وخطته الأولى التي كانت عام 2007 وكان عنوانها "بناء الدولة الفلسطينية: نحو السلام والازدهار"، هذه المرحلة التي تعاملت مع التنمية

---

[238]- ما حصل بعد انتخابات المجلس التشريعي عام 2006 وفوز حماس فيها، قامت اللجنة الرباعية بامهال حماس مدة شهرين للاعتراف بشروط اللجنة الرباعية، وهي: الاعتراف بالاتفاقيات الموقعة بين "اسرائيل" ومنظمة التحرير، والاعتراف "باسرائيل"، ونبذ العنف والارهاب، وقبول الاتفاقات كخارطة الطريق؛ التي تنص على قيام دولة فلسطينية الى جانب "اسرائيل"، مقابل الاستمرار في تقديم المساعدات للشعب الفلسطيني، ورفضت حماس جميع الشروط، ومنه أن قطعت جميع المساعدات عن الحكومة الفلسطينية التي تشكلت باسمها.، راجع: حمدان ايات، مرجع سابق، ص 24.

[239]-حمدان، ايات، مرجع سابق، ص 23-24.

كجزء أصيل له علاقة بالهوية الوطنية الفلسطينية، إلا أنه وحتى هذه اللحظة لا يعكس إلا نموذجاً معولماً، في هيمنة عالمية اقتصادية، ومغلف بظاهر مهني وتقني وإداري[240]

فتعزيز المؤسسات الدولاتية كالمقاطعات في الضفة الغربية وأجهزتها الأمنية التي بنيت بكل أطرافها من الباطون المسلح، ومن "الأسطح الملساء"، وعلى حد تعبير أحد المبحوثين، لمنع النمل من التسلق، دلالة من النمل لم يكن الإسرائيليين، بل بتهكمية الصورة كانت تدل على منافس فلسطيني ممنوع من تسلق الجدران مؤسسات الدولة المتوهمة.

تميزت المقاطعات الجديدة ليس فقط بشكل معماري يحلل بعمارة معادة استعمارياً وتفرض ممارسات الضبط والرقابة بشكل معدل على الفلسطينيين؛ وإنما تميزت بأدوات بناء جديدة، تختلف عن المقاطعات القديمة، كالباطون المسلح، الذي على حد تعبير المهندس غسان نينو تم *"حساب سمك الاسمنت والحديد لمنع احتراق قذيفة دبابة، أو على الأقل لحماية الأشخاص في داخل المقاطعة"* .

تظهر السياسات والخطط مجموعة من المشاريع التقنية والمهنية التي تحاول إزالة السياسة عن محورها، ولكن تظهر أجزاء المشاريع المعمارية التي نفذت بها المقاطعات، مجموعة من تفعيل خطاب سياسي يحمل سلطة وهيمنة تمويلية تحمل معها حتى تحديد مواد البناء التي تعكس طابع سياسي بامتياز. تقول إحدى مهندسات مشروع المقاطعة في طولكرم أن *"الباطون المسلح ليس فقط في الجدران وإنما حتى "قوارة الورد" في المقاطعة فهي مبنية من الباطون المسلح"* . إذا كان الباطون المسلح يحمي من قذيفة الدبابة الإسرائيلية على سبيل المثال، أين تذهب الحماية في قصف الطائرات التي لا يسلم منها أي نوع من الباطون، فما هو الأمن الذي يقدمه العمار المسلح الجديد، وتبعاً لإجابات المبحوثين الذين قبلوا بالإجابة على سؤال: **هل تعتقد أن المقاطعات ستقصف مرة أخرى؟**

شكوكاني*:" نعم ممكن.*

---

[240]- صبيح، صبيح، مرجع سابق، ص 46-47.

في العالم كلو ممكن تصير حرب.

والاجتياح الإسرائيلي هو حرب."

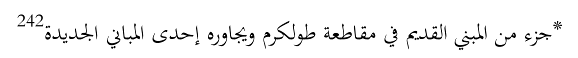
الأعرج[241]:"هذا سؤال يوجه إلى نتنياهو ! الإجابة على هذا السؤال صعبة، لا أستطيع الإجابة عليه بحكم وظيفتي ولأنني هنا لا أمثل رأيي الشخصي وإنما المؤسسة التي أعمل لديها وليست لدي أي مقومات دفاعية لأستطيع الإجابة ."

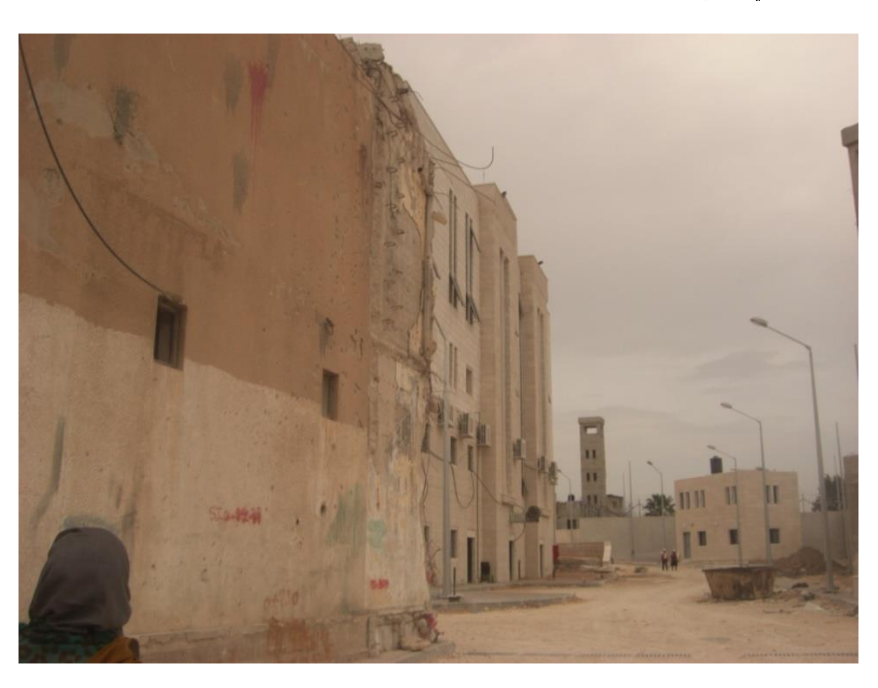
بدران:" طبعا ممكن تتعرض للقصف، ليش إحنا خلصنا مع اليهود!!"

نينو:" ما في ضمانات، كل المشاريع معرضة انو ازا صارت أي نكسة سياسية مش ممكن ينقصف، يعني مع دخول السلطة لل 2002، مش انصرف ملايين الدولارات وهي اتدمرت، مطار غزة مش انبنى بضمانات دولية، وانقصف"

تشير إجابات المبحوثين إلى إخراج الفلسطيني من قوة الفعل، وقصرها على طرف المستعمِر؛ وان قواعد اللعبة من الهجوم أو الانتهاك هو فقط بيد المستعمِر الإسرائيلي الذي ينتهك سلام الفلسطيني في واقعه، واعتبار المستعمَرين أنفسهم يعيشون في دولة لها حدود واضحة وتمتلك مقومات دولة بخطاب رسمي حقيقي، وقد يحدث هجوم على حدودها من قبل دولة أخرى. يقوم الطرح بناءاً على معطيات البنية الفلسطينية في الواقع الاستعماري والتي يستشعر بها الفلسطينيون بأن حتى مؤسسات دولتهم التي تلبس باطون مسلح هي فعلاً ليست إلا إحدى القرارات التمويلية التي لا يستطيع الفلسطيني التحكم بها، أو بميزانية ضخمة صرفت على هذه الجدران الجديدة، التي وان بقي منها أثر فقد أفاد المبحوثين أن بقاءها هو لعدم وجود ميزانية كافية، وأن العمل قائم على إزالتها، كما يحدث في مقاطعة طولكرم التي بقي فيها جزء من البناء القديم للمقاطعة، ولكن قرار الهدم به قائم حتى صرف الميزانية.

241- اياد الاعرج، مدير المنطقة الامنية في مقاطعة طولكرم.


*جزء من المبني القديم في مقاطعة طولكرم ويجاوره إحدى المباني الجديدة[242]



*المبنى القديم في مقاطعة طولكرم بين الهدم وإعادة الاعمار، 2013.



---
[242]- مقاطعة طولكرم، 2013، تصوير الباحثة.

تقوم المساعدات الخارجية على الدأب المتواصل في تعزيز دور "الدولة" فلسطينياً، بصورة مهنية بإفراغها من محتواها السياسي في المشروع الوطني داخل الوقع الاستعماري، فبعد اتفاقية أوسلو برزت الدعوات إلى إقامة دولة فلسطينية بحدود مؤقتة في الضفة الغربية وقطاع غزة مقابل توفير الأمن والاستقرار لإسرائيل. ومع أن المساعدات التي تدفقت لتحقيق ذلك كانت خاضعة تماماً للأولويات الأمريكية والإسرائيلية. وبالتالي أجهضت إمكانية نجاح هذا المشروع خاصة وأنها لم تسع إلى إنهاء الاحتلال وإجبار إسرائيل على الانصياع للقانون الدولي من اجل الوصول إلى إقامة دولة فلسطينية، ومن خلال التركيز على بناء الدولة بالرغم من استمرار الاستعمار تم اختزال المشروع الوطني الفلسطيني بمفهوم "بناء الدولة"[243]. يطرح ادوارد سعيد أن الهوية القومية التي تناضل للتحرر من السيطرة الامبريالية، وجدت نفسها مودعة ومنغرسة في الدولة"القومية المستقلة حديثاً"، ونتج عن ذلك جيوش، ورايات، ومجالس تشريعية وأحزاب سياسية، وقد تم ذلك عادة بطرق منحت النخب القومية المكانة التي يحتلها البريطانيون والفرنسيون من قبل. بالتالي قامت البلدان ما بعد الاستعمارية بتحويل القومية إلى عقائدية جديدة للإقليم أو الدولة، وقد أخضعت نفسها في عملية كونية من العقلنة مبنية على معايير خارجية، ومنطق نظام عالمي رأسمالي تتحكم به حفنة من البلدان الصناعية الرئيسة[244].

إن الوعي الناتج بعد أوسلو كان إلى حد ما غير قادر على تخيل مكان الانتصار، وأضحى وعياً مهزوماً ملتزماً الشرط الاستعماري دون رؤية إستراتيجية، وأضحى الوعي السياسي بعد أوسلو، أسيراً لمفاهيم علاقات القوة المرتبطة بالعقلانية السياسية، والتي ترى في محاكاة أنماط القوة الاستعمارية وسيلة للمقاومة[245]. نجحت المساعدات الخارجية بالهاء فلسطينيي الخطاب الرسمي عن واقع بقاء الاستعمار وخلقت لهم تخيل عن دور "دولتهم" على حدودها المؤقتة، وان كان من المخيف أن تبقى مؤقتة في مرحلة الانجرار نحو لعبة مهنية المؤسسة، والحفاظ على وهمية القبول الدولي، دون إجراء تحرك سياسي نحو

---

[243] طبر، ليندا واخرون، مرجع سابق، ص208-208.

[244] سعيد ادوارد، مصدر سابق، 320-321

[245]- طبر، ليندا، عزة، علاء، المقاومة الشعبية الفلسطينية تحت الاحتلال، قراءة نقدية وتحليلية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رام الله، 2014، ص 44.

خطوة المحاسبة والعقاب، بل مواراة الموت تحت اسم عقلانية المؤسسة التي يتحكم فيها مقدار الميزانيات التي لم ترسم حدود أجندتها في الوعي الفلسطيني لخلق ذاتهم الحرة، بل مساهمتها في بقاء الاستعمار حتى اللحظة.

4.3 العمارة المقاومة تُضَم لخطاب اللاعنف "مخيم جنين نموذجاً"

تقوم فكرة هذا الجزء وان عد قصيراً تبعاً لتاريخ تشكل المخيم والمفاهيم المصاحبة لتشكله، ولكن يبقى هذا الجزء محاولة لتتبع التغيرات التي ظهرت على عمارة مخيم جنين من حيث إعادة العمار الجديدة لها بعد اجتياح مخيم جنين سنة 2002[246]، والتدمير الحضري الذي حل على المخيم قبيل ظاهرة إعادة الاعمار. والإشارة لما كان للعمارة السابقة من دور كبير في معركة المقاومة التي تصدت للحرب الصهيونية على المخيم في بدايات الانتفاضة الثانية. ومما سبق يقوم هذا الجزء بالتحديد على تفكيك المشهد الجديد للعمارة والتي انفصلت في لحظة إعادة الاعمار عن العملية السياسية العسكرية للمخيمات، في إقصاء للخطاب المخيمي الحاضن للمقاومة، من خلال خطاب جديد يتبنى سياسة استعمارية من جهة، وخطاب فلسطيني تابع و"لاعنيف" من جهة أخرى، وذلك في ترسيخ مفهوم جديد للمخيم بعمارة جديدة لمن يسكنه ولمن يستعمره بنسب متفاوتة في معركة الوعي وتمثيل الذات الفلسطينية ودورها في المقاومة.

إن فلسفة المخيم تختلف بطبيعة تشكله عن النماذج المعمارية المدرجة في هذا البحث، وذلك لأن المخيم كمكان تشكل نتيجة لحالة حضرية "لا طبيعية"؛ من خلال خلق مفهوم مكان اللجوء عند سكان المخيم، وبالتالي فهو يشكل فكرة المكان المؤقت– غير المنتظم لساكنيه، وهو من ناحية أخرى مكان يتم ترسيخه لخلق مقاومة تهتف للعودة. ومما سبق كان احتضان مخيم جنين للمقاومة العسكرية يشكل أحد مخاوف السيطرة العسكرية "الإسرائيلية" عليه، بفعل مشاركة أهل

[246]- جاءت عملية اقتحام جنين في 2002 امتداداً لعملية "السور الواقي" التي شنها المستعمِر الاسرائيلي على مدن الضفة الغربية بحجة تطهيرها من "ارهابيي العمليات الاستشهادية"، وكان اقتحام مخيم جنين تبعاً لتمركز وتوحد الفصائل العسكرية الفلسطينية داخل المخيم. راجع، حويل جمال، معركة مخيم جنين، التشكيل والاسطورة نيسان 2002، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، 2012.

المخيم بالدعم المكاني والمعنوي في تقديمهم المخيم لخدمة المقاومين، وكان الهدف أو العنوان الواضح لاجتياح المخيم هو جعل اللجوء لساكنيه مكرراً، إن لم يكن القضاء عليهم هو لعدم الإبقاء على أماكن مقاومة كمخيم جنين.

تعرض مخيم جنين فترة اجتياح 2002 إلى تدمير ضخم شمل المنازل والشوارع والمستشفيات وحتى تمديدات المياه، وتمديدات الكهرباء، والهواتف، وكل ذلك تبعاً لخرائط إسرائيلية مسبقة وضعت إشارات الدمار المسبق عليها، وكان أحد الأهداف لذلك الوصول لقلب مخيم جنين مكشوفاً للقوات العسكرية "الإسرائيلية" لمنع أي رد مقاوم من قبل المقاومين الفلسطينيين داخل المخيم، واستراتيجية الهدم هذه لم تستخدم كمرة أولى عند اجتياح المخيم، بل كانت إحدى الاستراتيجيات الاستعمارية التي تبناها شارون من خلال وعيه لقوة تشكيل الروابط الاجتماعية عند الفلسطينيين بين المكان/المنزل/ الأرض/ وحتى الأفراد أنفسهم. كما تبعت عمليات الهدم منطق استعماري آخر يتخوف من التوسع الحضري الذي يحدث على المناطق الفلسطينية سواء المدن أو المخيمات، وكذلك الزيادة الديموغرافية، لتصل ممارسات التدمير التي حدثت ليس فقط لممارسات التدمير الحضري وإنما حتى التطهير العرقي اتجاه الفلسطينيين، التي قدمها الخطاب "الإسرائيلي" العسكري على أنها ورم في جسد "دولة إسرائيل المنتظمة"، ويجب القضاء عليها للحفاظ على نظام الجسد[247].

[247]- Graham, Stephen, Bulldozers and Bombs, the latest Palestinian- Israeli conflict as asymmetric Urbicide, School of Archticture, Planing and landscape, Newcastle Univesity, UK, 642-680.

*صورة مخيم جنين 12-4-2002[248]



يتحرى البحث مشهد المكان وتداخله في المعركة من خلال نص أكاديمي مختلف، وهو "معركة مخيم جنين: التشكيل والأسطورة، نيسان 2002)، للباحث جمال حويل، وقد قدم بحثه كرسالة ماجستير لبرنامج الدراسات العربية المعاصرة لجامعة بيرزيت، 2012. إن اختلاف هذا النص يأتي باختلاف تقاطع الباحث مع ميدانه البحثي، فهو لم يستعرض يوميات المعركة بأرشفته لشفوية القصص من سكان ومقاومي المخيم، وإنما بالإضافة لذلك، كان جزءاً محركاً وموجوداً في ميادين المعركة بذاتها، فهو يعتبر اختلافه باعتباره "المقاوم/الباحث"، وما نصه الأكاديمي إلا جزءا من استمرار مقاومته في معركة البحث عن حق الحقيقة من بين نسيج جدران مخيم جنين. ما يستخدمه هذا البحث هو إشارات تقاطع العمارة داخل المعركة حسب ما يذكرها جمال حويل، وعملية التحري تركز على فصلين من الدراسة هما"الفصل الثالث: الإعداد للمعركة، الخارطة والميدان"، و"الفصل الرابع: الصورة والأسطورة، يوميات المعركة". وبالإضافة لما كتبه جمال حويل،

[248]- أخذت الصورة من موقع http://pal-stu.com/

يستخدم التحليل مجموعة من المقابلات التي تسترجع ذكرى المعركة رجوعاً من سنة 2015 إلى سنة 2002، ومعنى المكان الجديد بعد إعادة الاعمار عند بعض أهالي المخيم، وكيف تتشكل الذات المقاومة مع العمارة الجديدة.

في تتبع أحداث المعركة كان الواضح أن الفلسطينيين المقاومين والمتمركزين في مخيم جنين على وعيٍ ودرايةٍ كافية بأهمية عمارة المكان التي كانت تسمح لهم باندماجها في خططهم العسكرية ضد المستعمِر الإسرائيلي منذ لحظة التخطيط الأولى، وبذلك يكونوا قد خلقوا ثقافة مضادة وموازية لاستغلال المستعمِر نفس العمارة التي قرر المستعمِر إقصائها عن البصري بينما احتواها المقاومون واحتوتهم كدرعٍ واقي، الإشارة هنا تكمن بأن العمارة ليست مطروحة على أنها فقط جزء من ممارسة استعمارية تتمثل بالتدمير الحضري الذي بين في فصول سابقة، وإنما تطرح على أنها فضاء مقاوم بطبيعة حضرية مختلفة، كطبيعة عمار المخيم الضيق ببيوته المتلاصقة؛ لذا فقد شارك العمار في غرفة العمليات المشتركة للمعركة، وتحول المخيم كله لميدان مقاومة،"تم الاتفاق على أن يكون هناك مقران لغرفة العمليات المشتركة، وفي حال دمر أحدهما يعتمد الثاني. وكان المقر الأول بالقرب من بيت أبو كمال الطوباسي، والثاني في بيت بسام المدمج، إلا انه ومع تقدم أحداث المعركة تم تدمير المقرين، وأصبحت كل البيوت مقرات"[249]

"تقبل الأهالي لكل من طلب منهم في تغيير واجهات منازلهم وشبابيكهم وأبواب بيوتهم، وتطبيق أجزاء من الخطة العسكرية عبر فتح ثغرات صغيرة في بعض الجدران لمرور المقاومين أو تنفيذ بعض بنود الخطة العسكرية أو ما اقتضته المواجهات والمعارك المختلفة من فتح طاقات للقنص أو المراقبة، أو غير ذلك"[250].

تزامنت معركة العمار الفلسطيني مع معركة الجسد منذ انطلاقة الانتفاضة الثانية، فالمعركة بوصف وايزمين؛ توسطت الطرفين الجسد والعمار داخل المناطق المأهولة بالسكان والعمار، وأحياناً المتراكمة والفائضة بهما، لتصبح إحدى استراتيجيات وتقنيات الجيش الإسرائيلي تغيير طبوغرافية المكان الفلسطيني، وخاصةً المخيمات باختراق الأبنية، والمناورة بين حيطان

[249]- حويل جمال، معركة مخيم جنين، التشكيل والاسطورة"نيسان 2002"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، 2012، ص 62.
[250]- حويل جمال، مرجع سابق، ص 64.

المنازل، والهدم المستمر بالبلدوزرات كحل جذريٍ في خلق رؤية عسكرية واضحة لاستهداف الفلسطينيين[251]. ومن الجانب الفلسطيني وكما يصف حويل تداخلت العمارة بالمعركة واستغلالها من قبل المقاومين الفلسطينيين" تم اتخاذ قرار باعتماد خطة مشابهة ومضادة للخطة التي استخدمتها قوات الاحتلال الإسرائيلي في اقتحام مخيم بلاطة "من بيت لبيت"، وقام المقاومون في مخيم جنين بفتح ثغرات في الواجهات والحيطان وفي البيوت، حتى يستطيع المقاومون العمل والسير بمرونة اكبر، فصارت حارات المخيم –التي غدت "محاور"– الضيقة أصلاً– بفعل عدم التخطيط المعماري للمخيم، أشبه بمترو الأنفاق تحت الأرض، مما سهل اختباء المقاومين وحمايتهم نسبياً ومباغتة العدو وضربه"[252].

كان المستعمِر على دراية وان لم يكن على قدرة بفكرة تحكم المقاومة بعمارة مكانهم، لذا فلم يكتفِ المستعمِر الإسرائيلي باستخدام القناصة بين فتحات الجدران، أو باستخدام الدبابات والقذائف الصاروخية، بل بدأ إحساس الهزيمة اتجاه المكان، وصعوبة الوصول للمقاومين بعد أكثر من أسبوع في حصار المخيم، أن اشتد النقم على المخيم بعد قتل ثلاث عشر جندياً إسرائيلياً في كمين نصبه لهم المقاومين، في تلك اللحظات بدأ دمار الجرافات يلحق بالمخيم بدون إبداء أي انتباه إلى أن المكان به ناسه، بل اشتدت اللعبة بين عمار المخيم والمستعمِر لحد أصبح به الحل هو تدمير كامل للمخيم تحت لعبة التبريرات الاستعمارية التي ادعت أن المخيم لم يبقَ به إلا المقاومين. يصف حويل مشهد الدمار الصادم كما يأتي "استمرت المجموعة بالسير، أردنا الخروج من بيت أبو عمر الطوب، ففتحنا الباب ولم نجد أي أثر للبيوت قائمة، وكأنك تفتح باب طائرة، أو تقف على شفا جرف هاو، أو تتفاجأ بالهواء، والهاوية، والموت!"[253]، "بدأت الجرافات الإسرائيلية الغازية بهدم كل شيء حولنا حتى تحول المكان إلى حفرة كبيرة نتيجة لهدم كافة بيوت المنطقة المحيطة، فبدونا كأننا في حفرة عميقة، وكانت الدبابات تحيط بالمكان ومروحيات الاباتشي تجوب السماء فوقنا مباشرةً"[254] .

---

[251]-Weizma , Eya ,hollow land "Israel's architecture of occupation", verso, London, 2007,185-210

[252]-حويل جمال، مرجع سابق، ص 66.

[253]- حويل جمال، مرجع سابق، ص 106.

[254]- حويل جمال، مرجع سابق، ص 110.

تشير المقابلات مع بعض سكان مخيم جنين إلى اللحظة التي بدأ مخيمهم ينكشف للمستعمر من اجل القضاء على المقاومة العسكرية التي كانت محتمية فيه؛ وكما يصفها *أبو محمد حواشين*[255] *وآخرون:" بصراحة معركة جنين تمثل ذكرى صمود، ولكن ما جعل المقاومة تنهزم هو بداية تجريف المخيم، وهدم بيوت بكاملها، حتى وناسها كانوا موجودين فيها، أنا شفت بيتي بنزل عالا رض قدام عيني، وبعديها طلعنا حاملين رايات بيضاء وكلنا عائلات وأطفال، إحنا ما ضل قدامنا اشي لما بلشوا يجرفوا البيوت"*

أبو يزن[256]*" كان الهدم بداية في منطقة الحواشين عندما قتل الثلاث عشر جندي، كان في هدم في البداية ولكن في لحظة قتل المجندين أصبح الهدم على جنب وطرف من الحقد على المقاومين الذين تواجدوا في المنطقة، لأنها كانت بتمتاز بالشوارع الضيقة والبيوت جدا متلاصقة، ولم تكن مكشوفة للمستعمِر، كل المنطقة تم تجريفها، وأطراف المخيم كان يتم قصفها بالطائرات"*

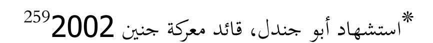
أبو بسام[257]*:" لم يقدروا أن يقتحموا المخيم ويوصلوا للمقاومة إلي جوا المخيم فقاموا بتجريفه، وأنا خبروني أقربائي انو العيلة كلها طلعت من حارتي " حارة الحواشين" ، وقالولنا ارفعوا رايات بيضاء واطلعوا، هدموا المخيم لما حسوا إنهم ما احدوا لا حق ولا باطل وهمي يستنوا يقضوا على المقاومة" .*

عبد اللطيف شلبي[258]*:" هدوا المخيم على روسنا عشان ينتقموا من المقاومة ومن أهل المخيم. لما انهدم المخيم بلشوا الإسرائيلية يطهروا، وصار يشد الهدم بعد ما قتلوا الثلاث عشر جندي، ومسكوا أبو جندل وقتلوه في الساحة"*

---

[255]- أبو محمد حواشين، 54 عام، من سكان مخيم جنين، هدم منزله عام 2002.
[256]- أبو يزن، 32 عام، من سكان مخيم جنين، هدم منزل والده عام 2002.
[257]- أبو بسام، 73 عام، من سكان مخيم جنين، هدم منزله عام 2002.
[258]- عبد اللطيف شلبي، 70 عام، من سكان مخيم جنين، هدم منزله ومنزل اخوته عام 2002.

انتهت المعركة بعد إسقاط حصن عمارة المخيم والمقاومة العسكرية الفلسطينية، بخاتمة مؤلمة باستشهاد مجموعة كبيرة من المقاومين ومن سكان المخيم. ومن الصور التي أرشفت حدث سقوط كلتا المقاومتين، صورة الشهيد "أبو جندل" قائد معركة جنين، فبعد أن تم قتل أبو جندل، رميت جثته على كتلة من الركام الذي سقط بذاته في المعركة.


*استشهاد أبو جندل، قائد معركة جنين 2002[259]

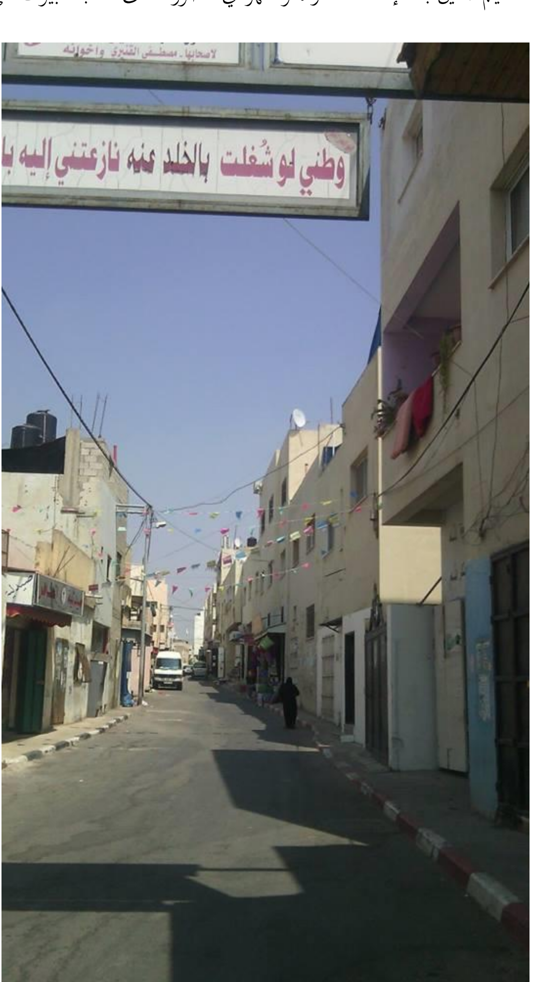


وكأثر متواصلٍ لعمليات الهدم التي حصلت للعمار؛ يأتي مشروع إعادة الاعمار مشعلاً جدلاً على كيفية هندسة العمار الجديد، وإحداها كان حول إبقاء المساحات التي هدمها الجيش الإسرائيلي وخاصة في مخيم جنين، كجزء من توسيع الطرق والممرات داخل المخيم، والتي اقترحت من المهندس القائم على المشروع، وقوبلت باعتراض الأهالي وأعضاء بعض الأحزاب؛ على كون إبقاء هذه المساحات المفتوحة وتوسيع الطرق ما هو إلا تسهيل دخول دبابات الإسرائيليين إلى المخيم

[259]- أخذت الصورة من موقع https://www.paldf.net

في المرة والمرات القادمة، ومع تجاهل الاعتراضات حول إعادة الاعمار تحول المخيم لشكلٍ هندسيٍ عماري جديد منتظم، خلق عند بعض اللاجئين شعوراً مفروضاً بوضع تجذرٍ وهمي مع المنزل الجديد [260]، ليضعهم تبعاً لما يطرح فياض في متاهة العمارة كمنتج اجتماعي من حيث أسئلتها "أين نحن؟ ومن نحن؟"، وتدوس بذلك عمارة الزمن الكولونيالي على المكان، ووعينا بالمكان، وعن كل ما يدل فيها إلى المكان وناسه[261].

* مخيم جنين بعد إعادة اعماره، وتظهر في الصورة مدى تشابه البيوت التي تم تصميمها، ووسع الشوارع الجديدة**2015**[262]



[260]- Weizma , Eya ,hollow land "Israel's architecture of occupation", verso, London, 2007,185-210

[261]- فياض، رهيف، العمارة ووعي المكان، دار الفارابي، بيروت، 2004، ص 107.

[262]- صورة لمخيم جنين أخذت من قبل الباحثة 2015.

يعمد المستعمِر إلى إجراء التخطيط اللازم للحيز المكاني المستَلب؛ وذلك من اجل يصبح المكان أكثر ملائمةً لعملية استيطانه وسكنه، ففي الجزائر على سبيل المثال عمل المستعمِر الفرنسي على نشر أعداد من القرى على شكل مجموعات خماسية الشكل فوق مواقع دفاعية حصينة بهدف إيقاف زحف العناصر العربية، وتسربها باتجاه الجزائر العاصمة[263]. وكهذه الخطط تم أيضاً تقسيم الحيز المكاني الفلسطيني منذ لحظة استعمار المحيط نحو الوسط في بدايات الاستعمار، وحتى رسم مخططات الشوارع وفصل المدن بالحواجز. إن محاولة تصنيع المكان الفلسطيني التي يجريها الاستعمار مدعوماً مادياً ومعنوياً من القوى الخارجية تفرض اغترابية الفلسطيني عن مكانه[264]. ويأتي مخطط توسيع شوارع مخيم جنين ونقل أمكنة المنازل نحو الأطراف، كسياسة جديدة تحد من عودة خطاب المقاومة العسكرية الفلسطينية، بل وتقليص الوعي التحرري الذي احتواه المكان كمخيم جنين.

يصف المبحوثين مشهد المخيم بكلماتهم بعد إعادة اعماره في تناقض بين الماضي وسياسة الواقع؛ يقول أبو يزن *" البيوت بعد إعادة الاعمار جيدة والشوارع أصبحت أوسع مما كانت عليه، وهذا أفضل للناس، ولكن هناك ناس ظلمت، في ناس كانت بيوتهم كبيرة وقلت مساحتها من اجل توسيع الشوارع، كانت السلطة مفكرة تعمل سور حول البيوت التي هدمت، ويخرجوا السكان من المخيم، كل هذا من اجل إلغاء مخيم جنين، وفي قسم كبير بنوا بيوت الناس على أطراف المخيم من اجل أن يوسعوا عالناس وخلوا الإسرائيلية ياخدوا راحتهم وينبسطوا لما يدخل المخيم، وكل خمس بيوت بلفها شارع عشان لما مقاوم يتخبى ما يعرف تخبى بأي زقة"*. ونفس المشهد يعيده أبو بسام *بعد إعادة الاعمار، أنا انظلمت، لأنو بيتي إلي كان كان أوسع واكبر ومفتوح، ولما اخدتو من لجنة الاعمار كان أصغر. اليهود إلي قرروا هذا التصميم عشان يقتلوا المقاومة وأعطوه للفلسطينية عشان يعملوا المخيم بهالشكل"*. تطرح شهادات المبحوثين مجموعة من التصورات عن المكان الجديد وكيف تم التخطيط له، ولكن لم تخفَ بقايا الوعي بماضي معارك المكان التي شهدها المخيم، ففي ذات الوقت

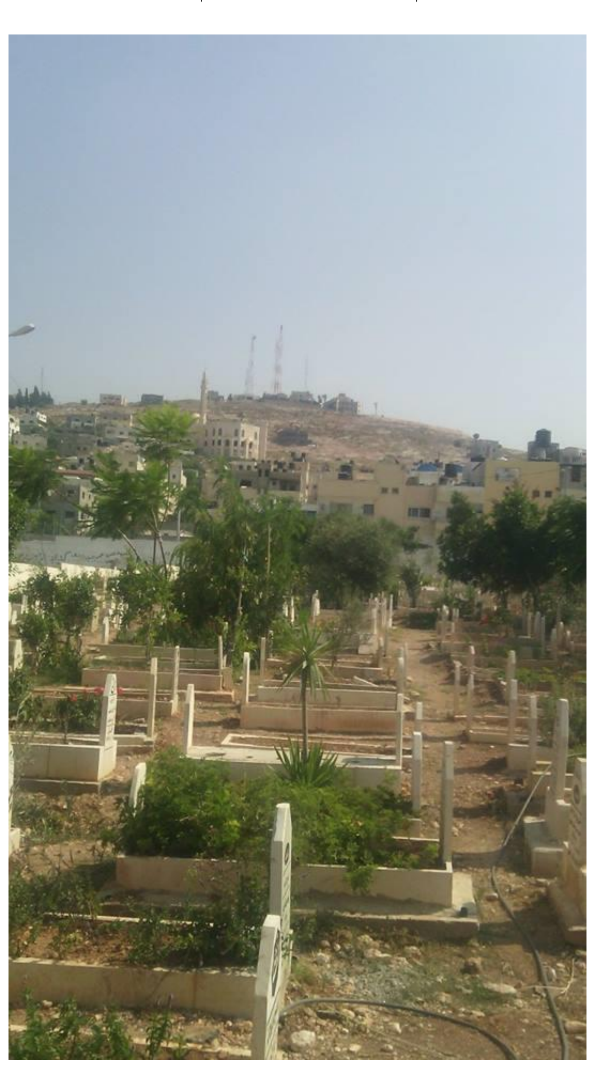
---

[263]- حمدان، ايات، مرجع سابق، ص 63.

[264]- حمدان ايات، مرجع سابق، ص 63-64.

الذي يشير إليه المبحوثين عن وعيهم بالسياسة الاستعمارية التي تريد إقصاء المكان بكامله، سيطرت سلطة جديدة لتمويل العمار على الوعي نحو "لاعنف" المقاومة و"لاعنف" العمار.

*مقبرة الشهداء في مخيم جنين، وخلفها جزء من مخيم جنين الجديد بعد إعادة الاعمار 2015[265]



إن المقاومة العسكرية التي حصلت في مخيم جنين، تمثل أهمية تجربة المقاومة التي أعادت الاعتبار لمفهوم الإرادة، أي إلى قدرة الشعب المستعمِر على المقاومة، وهو يمثل نقيض الوعي المهزوم القائم على غياب الإدارة السياسية. فكان نتيجةً

[265]- أخذت الصورة من قبل الباحثة، 2015.

لمحاولات خلق وعي بديل عما جاءت به أوسلو، ولكن حصلت مجموعة من التحولات السياسية والاقتصادية والثقافية سواء من قبل المستعمِر أو السلطة الفلسطينية أو الدول المانحة أو المؤسسات الدولية، والتي بدأت بإعمار مخيم جنين في محاولة إعادة تدجين جنين ومخيمها، وعودة التنسيق الأمني، بحيث تتم عملية قولبة جديدة للفلسطيني[266].

يشير أهل المخيم إلى أن هناك تواطؤ نحو عملية قولبة المخيم، ومنع إعادة أي إنتاج عسكري داخل المخيم، سواء من قبل المستعمِر أو من قبل السلطة الفلسطينية، أو حتى بسياسة المعونات إلي أصبحت تسيّر الوضع فلسطينياً، ويتضح من إجابات المبحوثين عن سؤال **هل هناك إمكانية لحدوث معركة مقاومة جديدة كما حدث في 2002؟**

أبو بسام:"ما في قانون في المخيم، سيارات مسروقة، و"فيسبات" ومخدرات، الشرطة بتتدخل لما بدها ولما ما بدها، بتحكي فخار يكسر بعضه، بدهم الفوضى عشان يضلوا مسيطرين على الحكم، فكيف رح تصير مقاومة جديدة" .

أبو يزن:" ما بظن يصير في اجتياح مع مرحلة السلام، ولكن المخيم ما بدخل في هاي العلاقة بين السلطة وإسرائيل، ومخيم جنين في عليه عين سواء من السلطة أو من إسرائيل، وحنا بنشكل خطر، بالنسبة لعملية السلام، والي بصير هلأ هو كمية المخدرات إلي عم تدخل المخيم، وزيادة السرقة وكلها ملهيات لحتى تبتعد الناس عن المقاومة" .

أبو محمد حواشين:"لا ما بتوقع أن يتم قصف المخيم مرة أخرى، ولا يوجد تجمع للفصائل السياسية كأيام أول، وبصراحة أهل المخيم انقرصوا، يعني لا سمح الله مثال غزة اليوم بخلينا نفكر إن كنا محظوظين بإعادة اعمار المخيم، بينما في غزة بيوتهم ما زالت مدمرة".

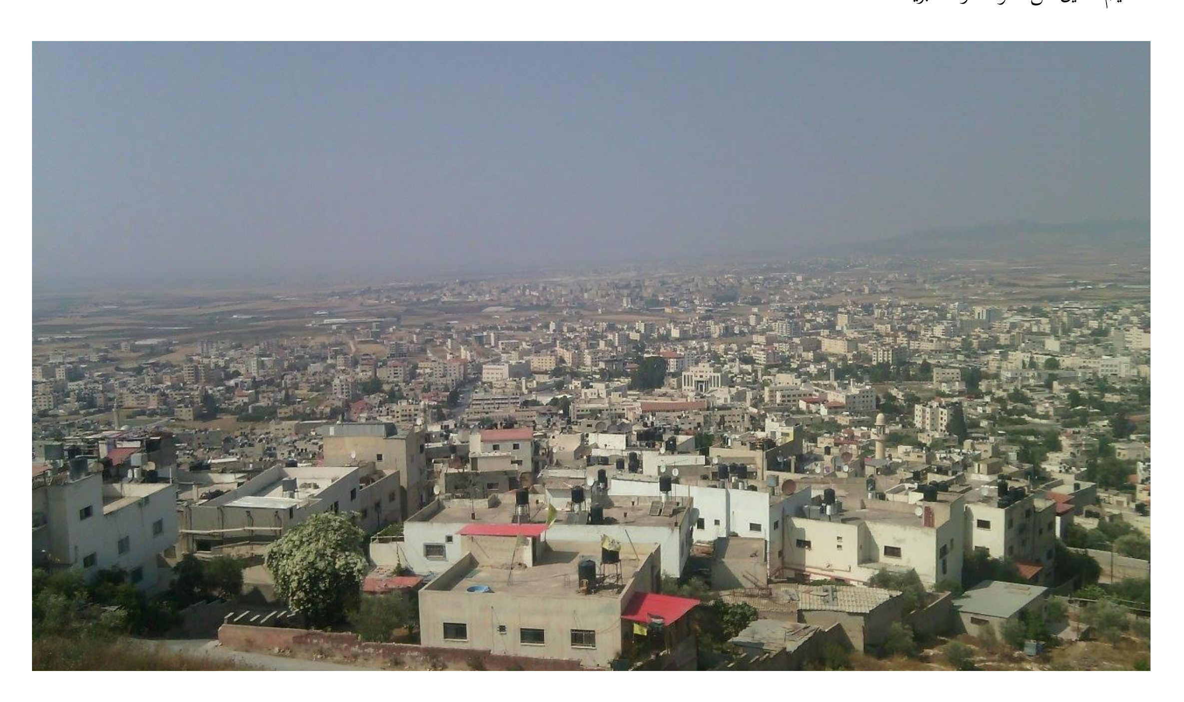
يرى القارئ أن هناك نقماً في حديث المبحوثين عن السلطة الفلسطينية، وذلك في محاولة سكان المخيم القطع بين النخب التي تدعي تملك السياسة الوطنية، التي برأيهم خذلتهم فترة الاجتياح، وحتى اليوم الحاضر مع تفاقم تهميش المخيم، وعدم

[266]- طبر ليندا، عزة علاء، مرجع سابق، ص 53-54.

وضع سياسات وطنية تضم اللجوء، والمقاومة وأبناء المقاومة في تقرير مجتمع بأبنائه لمحور الوضع[267]، بل ما ناله سكان هذا المجتمع هو مجموعة من الإشارات التي تنزعهم عن مكانهم وذاتهم ليس فقط من قبل المستعمِر، بل من قبل خطاب السلام "اللاعنيف" المرتكز على عدم إنبات جذر جديد بين من احتضنوا القرار العسكري في مواجهة المستعمرين، طارحين مثال غزة التي استمرت في نهج المقاومة العسكرية، وهي تدمر يومياً في معركة الاستعمار دون مستجيب.

ولكن ومع اشتداد معركة مختلفة من نزع المكان بطبيعته المقاومة إلا أن المخيم يشكل تيار فلسطنة مختلف، وذات متضامنة مختلفة بين أركان مخيم جنين أو المخيمات الفلسطينية الأخرى، ويحاول إنتاج التنظيم الذاتي لمواجهة أي عامل يحاول الإطاحة بهم. يقول أبو بسام عن فكرة الذكرى بالمعركة " صحيح لم يبقَ أي أثر من الهدم لا في البيوت ولا في الشوارع ولكن، إلي في بطنو عظام بعرفش ينام، وإحنا مستحيل ننسى شو صار فينا، من 1948 و حتى اليوم".

* مخيم جنين من علو حارة الجبريات 2015[268]



---

[267]- صايغ روزماري، تجسيدات الهوية لدى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، رؤية جديدة للمحلي والوطني، بديل/المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنين واللاجئين، بيت لحم، 2009، ص20.

[268]-أخذت الصورة من قبل الباحثة 2015.

5. فيما يشبه الخاتمة:

بدأت فكرة البحث من أجل محاولة إيجاد شواهد تدلل على آثار خلفتها الحرب الاستعمارية على معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني في فترة الانتفاضة الثانية. وكان مفهوم "مواراة الموت" الذي يتحرى عنه البحث متشكل من سياسة/خطاب يُبحث عنها داخل مشهدية معمارية تعكسه، وتعد هذه القراءة كمحاولة أولى مطولة للبحث في هذا الموضوع، الذي لا يمكن القول بأنه يخلو من النقص في مواضيع معينة داخله، ولكن يبقى الأمل في انه يضيء على مجموعة من الإشارات القابلة للبحث والتوسع المعرفي في محاولات أخرى مطولة وتفصيلية وشاملة.

تشكل البحث من ثلاث فصول حاولت تقصي المفهوم على تقاطع تجربة العمار في كل منها. تمثل الفصل الأول في تحليل المقاطعات في الضفة الغربية وأخذت أربع من المقاطعات كنموذج على "عمارة النموذج الأمني"، وهي "مقاطعة طولكرم، وجنين، ورام الله، ونابلس". نهضت المقاطعات بعد إعادة الاعمار تبعاً لتخصص عقلاني يواري الموت في إعلاء المفاهيم الدولاتية، وان كانت هذه المفاهيم قد تبعت لسلطة وهمية في ظل الواقع الاستعماري، الذي يعيد المستعَمَر إنتاج عمارته، ويقوم بفرض الرقابة والضبط على الفلسطينيين بشكل عمارة الرقابة والأسوار العالية، وهي بذاتها تقصي فعل وإرادة الفلسطينيين عن رؤية الرقابة والضبط المستعمري في الوعي، بفعل اختفائه عن المشهد البصري إلا في لحظة التنقل بين المدن ورؤية الحواجز وأبراج المراقبة. بينما أصبحت عمارة "الرقابة الفلسطينية" تتوسط المدن الفلسطينية، وترتفع أبنيتها المنفصلة والمتخصصة بوظائف أمنية مختلفة. إن وظائف المؤسسة وفرض "عقلانية الخطاب الدولاتي" جاءت مع الارتباط بسلطة السوق النيوليبرالي، وخطة الارتباط الجديدة مع المستعمِر بصورة شروط التمويل، التي أنتجت خطاباً سلمياً يبتعد عن المقاومة وأثرها. فتتسلح المقاطعات جميعها تحت شروط التمويل بكتلة من "الباطون المسلح" مدعيةً به مظهراً أمنياً عالياً ليحمي العمار من مجموعة القذائف العسكرية التي قد تصيب أجهزة الأمن وتدمر "مؤسسات الدولة". يرسخ التمويل هذا التخيل الفلسطيني الجديد ل"الدولة" وبنائها ويعزز من الهوة بين السياسي المقاوم، والسياسي العقلاني، لتتم

إعادة إنتاج حلقة ربط جديدة من الثقافة الأوسلوية التي أوجد "الباطون المسلح" لحمايتها وفي المقابل لموارة معركة تحول الوعي والانفصال عن أوسلو في بدايات ما يسمى بالانتفاضة الثانية.

اختص الفصل الثاني بدراسة البلدات القديمة وأخذت بلدة رام الله القديمة"رام الله التحتا"، وبلدة نابلس القديمة كنموذج حضري ذو عمارة تاريخية -تراثية- تعرض لممارسات التدمير الحضري من قبل المستعمِر الإسرائيلي من أجل إنهاء المكان وهويته في كومةٍ من التبريرات الاستعمارية لإسقاط المقاومة فيها. وتكمن ميزة التحول من ماضي المعركة إلى ذكرى الماضي في البلدات القديمة؛ هو أن الرمز للماضي تداخل مع الواقع وتآلف معه منتجاً سلطة جديدة وبنية ذاكراتية وارت الموت عن الوعي تحت أشكال "أماكن الذاكرة"، التي انتشرت في كل زقاق البلدة القديمة في نابلس بالتحديد. في هذه الحالة أضحت أماكن الذاكرة تحصر حدث المعركة بشكل النصب التذكارية أو الأضرحة أو المتاحف، تبعاً لإنتاج المؤسسة الرسمية، التي ترسم حيزاً محصوراً للذاكرة داخل الواقع، من خلال قصر الحدث المقاوم على حجر النصب التذكارية بكتابات تقدس الشهادة والمقاومة والشهيد والتأريخ، ويألفها المشهد البصري كجزء من المكان وليس كدخيل لتحريك الوعي نحو أهمية مقاومة الواقع الاستعماري الذي كان سبباً في الأحداث التي أرختها هذه الأماكن.

أما الفصل الثالث فكان يحلل مفهوم مواراة الموت من حيث علاقته بخطاب اللاعنف الذي رسمت به العمارة الجديدة بعد إعادة الاعمار، وبالتحديد للمقاطعات، ومخيم جنين. نتجت في مخيم جنين نوع من العمارة "غير العنيفة"؛ وذلك من حيث أن العمارة السابقة التي كان يمتاز بها مخيم جنين من تلاصق للبيوت وضيق الشوارع وعدم انكشاف المكان، ساعدت المجموعات العسكرية الفلسطينية التي كانت تقاوم داخل المخيم. فكانت خطتهم العسكرية بناءاً على خطة مضادة تستخدم العمارة كأداة عسكرية، كما فعل المستعمِر بنوع من التشابه والاختلاف. تشمل مناورة المستعمر وتحديهم له بعمارة المخيم، وتطويع المكان -المخيم- ببيوته وشوارعه وأزقته ليصبح كميناً ممتداً يسقط جنود المستعمِر خلال اقتحام جنين عام 2002. بينما كانت القوات الاستعمارية التي تشن حرباً على المخيم على درايةٍ بأن عمارة المخيم هي العقبة؛

ومن هنا كانت بداية النهاية للعمارة المقاومة في جنين؛ فقد بدأت الجرافات الاستعمارية بإطاحة منازل المخيم وشوارعه وتفريغ المشهد البصري للمخيم من معماريته. ومع حلول اليوم الأخير للمعركة فقد المخيم أحد عناصره المقاومة التي جعلت من يسكنه ومن يقاوم به مستسلماً في لحظة تفريغ المكان من عماره. أما إعادة الاعمار التي مُد بها المخيم سحبته نحو إفراغ وعمارةٍ من نوع آخر، فكانت إفراغاً لتجمع الوعي السياسي العسكري الفلسطيني، وإفراغاً لأدواته المساعدة كمعمارية المخيم. ومع التحول السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي حصل بعد إعادة الاعمار يلاحظ أن البيوت "الصفراء" الجديدة أدخلت سكان المخيم في متاهة "ماذا يشكل المخيم فلسطينياً"؛ وبدت الخطابات السياسية الرسمية تعلن حرباً أخرى في إقصاء المخيم وتدجين سكانه عن الفعل السياسي. ولكن ومع كل ذلك يتضح انه وبعد ثلاث عشرة أعوام من المعركة التي مُني بها المخيم بهزائم الأرواح والعمار والإفراغ السياسي العسكري، إلا انه قد خلق اجتماعياً نَفساً جديداً متضامناً وواعياً ورافضاً للانزياح عن مكانه المؤقت، أو الانزياح عن دلالات تواجد وكينونة المخيم في الأصل. بالرغم من كل العوامل التي تحاول التأثير على بنيته يجد المخيم ويصرح بالصمود وذكراه حتى لو تمت مواراة الموت عن معماريته وأقصيت عن المشهد البصري الذي يتلقاه فلسطينيوه.

بالتالي فقد نتج عن البحث وتبعاً للفرضيات المسبقة التي بحثت في الواقع أن هناك:

ثقافة جديدة تشكلت في المعمارية الفلسطينية تواري الموت عنها في الذاكرة الفلسطينية، وتعيد إنتاج الهيمنة الاستعمارية على الذات المستعمَرة. وتثبت بذلك الفرضية الأولى.

تمثل إعادة اعمار معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني جزءاً من عدم التسجيل التاريخي لقصة الحرب مع المستعمر الإسرائيلي في الوعي الفلسطيني. وتثبت بذلك الفرضية الثانية.

تتبع عمليات إعادة اعمار العمار المهدم في الانتفاضة استمراراً لممارسات المؤسسة الرسمية وخطابها الدولاتي بعد أوسلو والتي أخفت الممارسات الاستعمارية في الوعي واللاوعي الفلسطيني. وتثبت بذلك الفرضية الثالثة.

تنطوي عملية إعادة الاعمار في تمويلاتها على دعم مالي مصحوب بأجندة الممولين في إعادة إنتاج الهيمنة الاستعمارية. وتثبت بذلك الفرضية الرابعة.

* تختفي النصب التذكارية والرموز والصور التي تؤرخ حرب المعمار الفلسطيني مع الاستعمار في الهندسة المعمارية الجديدة، وتبقى مقتصرة على شخوص الأفراد ذات الطابع الحزبي أو جداريات ورموز سلمية. وتنفى بذلك الفرضية الخامسة لأن المؤسسة الرسمية رسّمت بعض أمكنة الحدث بالنصوب التذكارية ولكن تحت مفهوم "مكان الذاكرة".

يطغى الخطاب اللاعنفي السلمي على معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني كجزء من سلطة خطاب اللاعنف السياسي الذي تعيد إنتاجه مؤسسات المجتمع المدني في فلسطين في طمس العمار المهدم تحت رمادية الاسمنت الجديد المواري للموت. وتثبت بذلك الفرضية السادسة.

أما سؤال اليوم للفلسطيني الفاعل؛ ما هي آليات خلق سلطة مضادة للخطاب الاستعماري والخطاب الاقتصادي التابع للمنح المشروطة دولياً في رسم معمارية اجتماعية فلسطينية تعيد إحياء قوة الفعل المقاوم الفلسطيني، وترسم سياسات وطنية تنبع من الإجماع الفلسطيني الكامل بعيداً عن هيمنة الخطابات الاستعمارية باختلافها.

الملاحق:

ملحق رقم (1) صور التقطتها الباحثة أثناء معاينات النماذج المعمارية:

مقاطعة طولكرم:





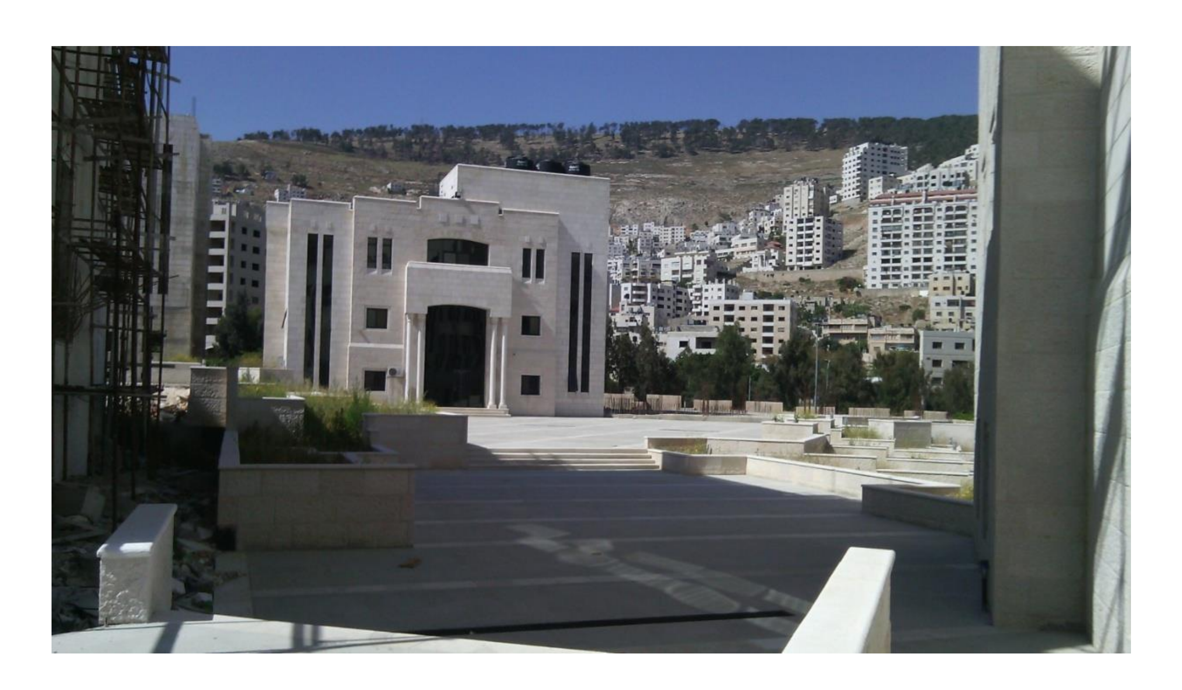




صور من مقاطعة نابلس:









صور من مقاطعة جنين:





صور من البلدة القديمة نابلس:







صور من مخيم جنين:




شركة القنيري للمقاولات
تتقدم
بالشكر والتقدير لدولة الامارات الشقيقة قيادة وشعبا
على رعايتها وتمويلها لمشروع اعادة اعمار مخيم جنين
وتهنيء اهالي المخيم بانهاء اعادة الاعمار
الممول دولة الامارات العربية المتحدة
المنفذ ـ وكالة الغوث الدولية ـ الأنروا
المقاول ـ شركة القنيري للمقاولات
لاصحابها ـ مصطفى القنيري واخوانه
وطني لو شُغلت بالخلد عنه نازعتني إليه بالخلد نفسي



ملحق رقم (2): أسماء المبحوثين التابعين للمؤسسات الرسمية وغير الرسمية:

1– ماجد عواد، مهندس معماري يعمل في رام الله .

2– هشام شكوكاني، دكتور في الهندسة المعمارية في مؤسسة بيج دار.

3– الرائد ياسر صوالحة، يعمل في أمن المقاطعات في مناطق شمال الضفة الغربية(جنين– نابلس– طولكرم)، تم إجراء المقابلة في شهر أيلول 2014.

4– يزيد الرفاعي، يحمل شهادة الدكتوراة في الهندسة المعمارية، ويعمل أستاذاً في دائرة الهندسة المعمارية في جامعة بيرزيت– فلسطين، أجريت المقابلة عام 2015.

5– غسان نينو، مدير مكتب نينو للاستشارات الهندسية، وهو المكتب الذي قام بتصميم المقاطعات في الضفة الغربية ما عدا مقاطعة رام الله.

6– خلدون بشارة، مهندس معماري فلسطيني و يعمل كمدير لمؤسسة رواق المختصة بإعادة ترميم وإحياء العمار.

7– المهندس موسى حديد، رئيس بلدية رام الله في شهر نيسان 2015.

8– رئيس بلدية نابلس المحامي غسان الشكعة في شهر نيسان 2015.

9– أحمد أبو لبن، مدير بلدية رام الله.

10– إياد الأعرج، مدير المنطقة الأمنية في مقاطعة طولكرم.

11– مديرية أشغال طولكرم.

أما باقي المقابلات فكانت أغلب الأسماء وهمية لأن المبحوثين رفضوا أن يقدموا أسمائهم الحقيقة، فحفاظاً على المصداقية والأمانة الأكاديمية وضعت أسماء وهمية لأغلب مقابلات متلقي العمارة.

ملحق رقم (3): من المقابلات التي أجريت للرسالة

مقابلة رقم 1: مقابلة خلدون بشارة

خلدون بشارة مدير مؤسسة رواق، مهندس معماري ومرمم وعالم انسان

في سنة 94 بلشنا بتسجيل كل المباني التاريخية في فلسطين، الهدف كان بعد تسجيل الموروث التاريخي كان الهدف التالي هو حمايته وتطويره، لأنه هناك علاقة جدلية بين الممتلكات الثقافية والهوية الوطنية بشكل عام، والوطن والوطنية موجودة في حيزات وهناك دلائل عليهم كالعمار، مثل بيوت الفلاحين وبيوت المدن، وبعكس حتى السلطة، فكل بلد تحاول أن تظهر آماكن الذاكرة التي تعكس توحد أو تجانس موحد لهذا الشعب، جماعة بشتركوا بذاكرة جمعية ليست عبثية ومتروكة وإنما موجودة في كل شي في الأكل أو اللباس أو طريقة البناء والمعمارية بالتالي البيوت القديمة بالنسبة لرواق هي لأنها حاضنة للذاكرة الجمعية.

هل تعتقد أن المستعمر الإسرائيلي يمارس التدمير الحضري على البلدات القديمة في فلسطين؟

إسرائيل لما احتلت فلسطين دمرت المئات من القرى، على استمرار سنين الاستعمار، وهذا ليس ادعاء، وإنما تاريخياً قاموا بتهديم هذه القرى، وذلك أدى إلى خسارة كل الناس للفضاء الذي يملكونهم، وخاصةً المرأة فعندما كانت في القرية كانت "تصول وتجول"، أما في المخيم فلم يعد لها هذا الفضاء التي تمتلكه وتفرض بعض من سلطتها عليه، وحصل في 67 عندما دمرت أحياء كاملة في القدس، وهذا حصل في ال 2002 كما حصل في البلدة القديمة في نابلس، عندما دمرت مجموعة من المصابن، ولكن إسرائيل لا يوجد لها أي سبب عسكري للقيام بالتدمير، لأن أهدافهم كان ممكن تحقيقها بدون تدمير، فالإسرائيليين دمروا إلي دمروه والذي لم يدمروه تم أخذه وترميمه وصناعته على انه هويتهم، في بيوت في 48 لم يقتنعوا أنها بيوت فلسطينية عثمانية!! أكيد هي بيوت من الزمن الصليبي، بحيث لا يمكن أن يكونوا الفلسطينيين قد وصلوا لهذه التقنيات في العمارة، وبالتالي ما تم أخذه تم اعتباره جزء من هويتهم وما بقي لنا اعتبروه شيء بدائي، وليس مهم،

وأصبحنا أنفسنا نعتبر ذلك، بنوع من تأثرنا بسلطتهم. ولا يمكن إنكار أن العمارة تم استخدامها من قبل السلطة الاستعمارية للمراقبة كالحواجز، فثلاث حواجز تفصل الضفة الغربية عن بعضها، ووضعوا أبراج المراقبة وأسوار عالية للفصل. وهم استخدموا للعمارة بعكس المعنى الايجابي لها، المعنى الإنساني الذي يقوم بعكس الهدم.

بماذا يختلف إعادة اعمار المعمار الذي تعرض للقصف عن العمار الذي تعرض للتلف تاريخياً؟

إحنا ما عنا التجربة الكبيرة عن إعادة الاعمار بعد القصف، هلأ المفروض أنو المستعمر ما يقصف هذه المناطق، ولكن بنفس الوقت على كل دولة مستعمَرة أن تحدد هذه المناطق ذات الأهمية وتشير إليها حتى لا يتم استهدافها، ولكن تاريخياً لم يحترم أحد هذا الأمر، هتلر بعد ما مات كانت بريطانيا بتدمر فرانكفورت، وكانوا يضربون مباني لا يوجد فيها مقاومة، وكان الهدف واضح وهو تدمير ثقافة النازية، والمباني التاريخية جزء منها، بحيث عندما تريد أن تضعف علاقة الناس بحيزهم بمنطقتهم فيجب أن تضرب رموزهم، مثل مبانيهم، قصورهم، سجونهم، مقرات السلطة، كان هناك دائما علاقة جدلية بين التراث والهوية، وأغلب الأحيان لا يوجد أهداف عسكرية عند التدمير، ولكن هذا جزء من إنهاء حضارة ما.

لما تم تدمير المصابن في نابلس، اتصلنا على نابلس، وقلنا أن صحيح أن نابلس قد تعرضت لمصيبة كبيرة، ولكن علينا أن نقلل من الخسائر، بالتالي نعرف أنه يجب إزالة الركام، وهم كانوا يريدون إزالة الركام في حال إذا كان تحت الركام أي جثث لدفنهم. ولكن يجب أن نزيل الحجارة بشكل منظم، بحيث يتم إزالة الركام بشكل شبكة بحيث يعرف إذا أردنا إعادة بناء البلدة القديمة نعرف أين كان الركام كمواد موجودة، ولكن قامت البلدية بجرف كل الركام وكبه في الوادي. ولكن يوجد العديد من الطرق في التعامل مع أبنية هدمت، وهناك مبررات عديدة مقبولة لإعادة البناء، ولكن في رواق ضد إعادة البناء المهدوم إلا إذا كان جزء الهدم وظائفي، هلأ المصبنة هدمت بطريقة استعمارية، وهناك أكثر من طريقة، مثل أن تبنى بطريقة متحفية، وتضع أساسها مثلاً والخط الأول لها كأن تمشي فيها على أنها آثار، أو تعمل تصوير بروجيكتر في الهواء، هذه طرق لإعادة الرمزيات، الآن هناك أشياء تمس حياة الناس اليومية، ولكن المصابن لم تكن كذلك، لان أصحاب

المصابن التي هدمت قاموا باستئجار محلات خارج البلدة القديمة لتصنيع الصابون فيها. في البندقية عندما هدم برج سان ماركو فقرروا إعادة بنائه لأن أهل البندقية لم يستطيعوا أن يروها بدون هذا البرج، فالمشهد البصري اتدمر، وأكثر ما أتذكره من إفساد للمشهد البصري، هو ما قامت به إسرائيل في ال2002 من تدمير أبراج الإرسال، ولم يكن أهداف عسكرية، ولا استطيع تخيل رام الله بدونه، وهو كان يحمل التحويل الإذاعي، الآن لو قالوا لي ماذا تفعل، أقول لنعيد بناؤه مرة أخرى حتى لو كان وظائفياً لم يعد مهم، ولكن رام الله ليست كما هي بدونه. كما سأشعر نفس الشيء لو ذهبت قبة الصخرة من المشهد.

لما تم تدمير المصابن في نابلس بعض الأشخاص قالوا الآن حصلنا على "بحبوحة" في البلدة القديمة، الآن كلمة بحبوحة نتجت عن حاجة الناس للساحات للفضاء العام، أو أن الخاص سيصبح عام، بحيث أن أرض أصحاب المصابن ستصبح عامة، وهذا كله كذب طبعاً فالملكية الخاصة إلها قداسة في بلادنا. وفي رواق ما كان في أيدينا اشي لأنو هدا كان قرار البلدية.

هل حاولت رواق ترميم مباني تعرضت للقصف؟

قصر القاسم حدثت فيه ثقوب فترة الانتفاضة الأولى كان الشبان يصنعون ثقوب في الجدران للهرب من الإسرائيليين، لما رجعنا رممناه عملنا إعادة بناء بالكامل واختفت الثقوب مع بعض علامات التصليح الباقية، ولكن بشكل عام أن الشباب عملوا الثقوب والإسرائيليين بلحقوهم، وما كنا بدنا تضل هاي القصة تكرر، لأنو بدنا نحافظ على موروثنا وتراثنا، فيجب أن يشعر كل شعب أن هناك مباني بحاجة للحماية ويجب تعليمها لحمايتها، فبدنا نكون صريحين السؤال هو إحنا بدنا نضل نقاوم في البلدة القديمة في نابلس؟

أنا برأيي انو إحنا بنقدر نحدد وين ممكن نقاوم

إسرائيل همجية بطريقة لا تطاق، ولكن بتمنى انو يكون في أمل في يوم من الأيام حدا من عندنا أو من عندهم يصحى ونلاقي حل لنعرف نعيش، وإسرائيل دائما تجرنا للعبة التي تلعبها، فبدعوا امتلاك الحمص بنصير نقاتل عالفلافل، فكلها ردود فعل، وما فيها استراتيجيات ولا وعي.

هلأ في رواق ما في عندنا قانون بحمي التراث، بنطلب من إسرائيل تحميه!! عنا الجرافات بتيجي وبتجرف كل اشي، والقانون الي بنستخدموا قانون بريطاني حقير، بالتالي يجب أن تحمي مبانيك التراثية قبل أن تطلب من المستعمر أن تحميه، فإسرائيل حشرتنا في مناطق a، بتحشرنا في غزة وكلها مباني وبتحكيلنا قاتلوا.

أي مشروع ترميم في رواق هو عبارة عن مشروع لإنتاج المعرفة، لكيف نرمم، وكيف كان الاشي زمان، وكيف كانت طبيعة العلاقات زمان من خلال عمارة من هذا النوع، ما طبيعة المجتمع في تلك الفترة وما هو النظام الاقتصادي الذي سمح بإنتاج عمارة من هذا النوع، ومن قام بعملية البناء ودق الحجر مثلاً، من هؤلاء الأشخاص الذين أنتجوا عمارة من هذا النوع. لان هذه الفضاءات كان إلها معاني ورمزيات مختلفة عما يحصل الآن من شقة تبقى شقة.

في كتير ناس بوافقوا على الترميم، وفي ناس كتير ما بترضى ترمم في عنا في فلسطين الملكية الفردية المشرذمة، قصر طوقان مثلاً ما في إجماع من عائلة طوقان على الموافقة، وللأسف كل مرة أزور فيها القصر، بكون في جزء جديد تالف أو مفقود.

هذا كنز وطني برأيي ومش مسموح التلاعب فيه أو تركه حتى لو المالكين لم يوافقوا، فإذا لم تكن العائلة تريد الترميم على البلد أن تتدخل، فيجب ترميم قصر كهذا.

كم يكلف الترميم؟

الترميم يكلف ثلث بناء جديد، دائماً نريد أن نقنع العالم بأن الترميم يكلف أقل، الترميم في فلسطين مشكلته انه كان بتم بناءاً على الطريقة الاستعمارية الإسرائيلية لذا كان يكلف أكثر، في إسرائيل متر الترميم بكلف 3000 دولار، عنا متر

الترميم بكلف من 250–300 دولار، قصر القاسم مثلاً 44 غرفة 1200 متر مربع، وساحات 500 متر مربع، كلفنا 53 ألف دولار، لما تحكي لحدا اشتري شقتين سعرهم 250 ألف دولار، بينما تحكي لشخص اشتري قصر من 44 غرفة، ومجهز حتى لمكان التدفئة. أنا برأيي المشكلة انو في محل بتنسرق المصاري، كل ما كنا نروح على محل مثل قصر الكايد في سبسطية أكثر من 30 غرفة وفندق يتسع لأكثر من 25 سرير، ترميم كلف 230 ألف دولار، هلأ لو برام الله بتحكيله بعطيك فندق ب 25 سرير بدفعلك اكتر من ربع مليون دولار إذا ما دفع مليون دولار، نفس الناس لما أجت السياحة والآثار حكولهم هذا بكلف مليون دولار، وراس كركر نفس الاشي، كلها أرقام بالملايين، كلمة ملايين أنا برأيي مسروق منهم مئات الألوف، هلأ كيف بضيعوا هذه المئات من الألوف، إما لأنك بتختار المواد الخطأ لأنك بدك تعمل معروف مع حدا، أو لأنك بتختار المهندس الخطأ الي يأخذ نسبة عالية، أو لانو بتم إعادة ترميم الشيء أكثر من ثلاث مرات، أنا برأيي هذا هو السبب.

لماذا تهتم رام الله بالذات لدفع ملايين من أجل الأماكن التاريخية؟

لان هناك سوق من العرض والطلب، أو حتى لا يوجد عرض كفاية، لأن هناك أشخاص يستطيعون مادياً أن يتكلفوا سعر فنجان القهوة 15 شيقل، وهذا قطاع رأسمالي بامتياز ويحدد نوعية الأشخاص الذي يريد منهم أن يدخلوا مطعمه مثل fuego، وهو الذي رممه على حسابه الخاص، احنا ما بنشتغل قطاع خاص حسب المانحين، يعني ما بمسحوا انه يتم ترميم منازل خاصة لأصحابها، هلأ بعض المانحين سمحوا لنا باستخدام برنامج المعونة بمساعدة أشخاص محتاجين جداً لترميم أو اصلاح منازلهم القديمة.

مقابلة رقم (2) : مقابلة رئيس بلدية رام الله: موسى حديد

تتدخل بلدية رام الله في الاستثمار في رام الله التحتا ونحدد بالتحديد معمارية رام الله التحتا والتي تمتاز بالطابع المعماري القديم، لأنها تراث وبتمثل أصل البلد"

لم يكن هناك خسائر كبيرة في البلدة القديمة في رام الله

آثار العدوان مش شيء معيب أو منظر معيب ليبقى موجود، بالعكس هذا أثر للعدوان الإسرائيلي، ولكن تم إزالتها بشكل عام، إذا فتحتي على النت وشفتي صور لرام الله من 2000 لهلأ ما رح تشوفي اشي لأنه تم إعادة تأهيل كل البنى التحتية، والشوارع وآثار الهدم،

ماذا تعكس رؤية المشهد البصري للمتلقي

ببساطة شعب بدنا نعيش، هاي بلادنا ما رح نضل عايشين في بلد مدمرة، والاحتلال دخل ودمر كل البنى التحية، وعمل نفس الشيء في الانتفاضة الأولى وان لم يكن بنفس المستوى، ولكن هذا الاشي الموجود، في النهاية عشان نستمر بالحياة، لازم نضل في عملية بناء متواصل.

كيف ترمز البلدية لفترة الاجتياح في الذاكرة

ذاكرتنا ما لازم نتعامل معها على أنها بلشت في 2000 وإنما منذ 1917، وهلأ في أرشيفنا موجودة كل المراحل، ولكن ما رح نحول لمعرض ذكريات"

خطأ كبير أن يضل المجتمع يعيش في التاريخ، صحيح مجموعة كبيرة من الشهداء والجرحى والأسرى ضحوا بأنفسهم من أجل البلد، كل هؤلاء لهم حق علينا، ولكن في مجموعة أخرى من الناس الي بدها تعيش، وعشان نقدر نوصل لمرحلة الاستقلال ما بنفع نضل نندب على الماضي، ما بدنا لما ييجي الاستقلال نكون إحدى دول العالم الرابع أو الخامس مش بس الثالث، لأنو وقف التاريخ فينا عند حد معين. يعني إذا بدنا نقنع حالنا انو إحنا تحت الاحتلال، طب ما إحنا عم نعمل رام الله smart city ، المدن العربية في كل الوطن العربي مش مدن smart city، مع إنها دول مستقلة. إحنا بنقول انو حتى لو احنا تحت احتلال لازم نضل ندور على بديل، ونستمر في النضال وبنفس الوقت مش لازم ننسى

الهدف الأساسي، وهو بناء مؤسسات لهذه الدولة إلي لازم تتحقق قريباً، ولازم نكون بمستوى معين قادرين على إكمال المسيرة.

في صرح للشهداء في البلدة القديمة، بغض النظر عن أسماء الشهداء، فهم باقين في القلوب

إحنا وصلنا لهالمرحلة بعد مسيرة كبيرة من التضحيات، وحتى ننقل كل هذه التضحيات يجب أن يكون هناك إشارة لذلك حتى تراه الأجيال القادمة

مجموعة المصادر والمراجع المستخدمة:

- اسمن، ايان، الذاكرة الحضارية، الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى، تر عبد الحليم رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003

- اغامبين، جورجيو، حالة الاستثناء، الانسان الحرام، تر ناصر إسماعيل، مدارات، القاهرة، 2015.

- أندرسون، بندكت، الجماعات المتخيلة"تأملات في أصل القومية وانتشارها"، تر ثائر ديب، شركة قدمس للتوزيع والنشر، بيروت، 2009.

- اينيك، نتالي، سوسيولوجيا الفن، تر حسين قبيسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2011.

- باشلار، غاستون، جدلية الزمن، تر خليل خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2010.

- البرغوثي، حسين، الضوء الأزرق، الرعاة للدراسات والنشر، رام الله، 2007.

- بشارة، عزمي، في الذاكرة والتاريخ، الكرمل، عدد50، 1997.

- بشارة، عزمي، المجتمع المدني، دراسة نقدية،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط6، 2012.

- بغورة، الزواوي، مدخل إلى فلسفة ميشيل فوكو، دار الطليعة، بيروت، 2013.

- بنكراد، سعيد، سيميائيات الصورة الاشهارية، الاشهار والتمثلات الثقافية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006.

- بن نبي مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، 2009.

- بودريار، جان، المصطنع والاصطناع، تر جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008.

- بورديو، بيير، السلطة والرمز، تر عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007.

- بورديو، بيير، بؤس العالم، دار كنعان، دمشق، الجزء2001،3.

- بيتي، أليساندرو واخرون، حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010.

- بيل اشكروفت واخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية ، القاهرة،2010.

- بيك، اولريش، السلطة والسلطة المضادة، في عصر العولمة، تر جورج كتورة واخرون، المكتبة الشرقية، بيروت، **2010**.

- الحلاق ندى، الكلونيالي في الشخصية المحلية في العمارة والعمران، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، مجلد**28**، ع**1**، **2012**.

- حلس عاهد، الدور السياسي للعمارة في إطار الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، جامعة الأقصى، غزة، **2010**.

- حمدان، ايات، المساعدات الخارجية وتشكيل الفضاء الفلسطيني، مركز بيسان للبحوث والتنمية، رام الله، **2010**.

- حنفي، ساري، طبر،ليندا، النخبة الفلسطينية الجديدة، مج مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد **17**، ع**67**، **2006**.

- حويل جمال، معركة مخيم جنين، التشكيل والاسطورة نيسان **2002**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، **2012**.

- الخالدي، محمد، تجليات الهوية، الواقع المعاش للاجئين الفلسطينيين في لبنان، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، **2010**.

- خضر، عودة ، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، عمان، **1997**.

- دريدا جاك، ما الآن؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب، دار الفارابي، الجزائر، **2011**.

- دوبري، ريجيس، حياة الصورة وموتها، تر فريد الزاهي، افريقيا للشرق، الدار البيضاء، **2013**.

- دولوز، جيل، الاختلاف والتكرار، تر وفاء شعبان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، **2009**.

- راسموسين، ستين، الاحساس بالعمارة، تر عماد الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، **1993**.

- ريكور، بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع، **2009**.

- زريق، ايليا، بناء الدولة من خلال أدوات المراقبة، المجلة البريطانية للدراسات الشرقية، **2001**.

- سعيد، ادوارد، الثقافة والمقاومة، حاوره دايفيد بارساميان، تر علاء أبو زينة، دار الاداب، بيروت، **2006**.

- السقا أباهر، عنف "اللاعنف" في الخطاب الفلسطيني الجديد، جدل، عدد **23**، مدى الكرمل **2015**.

- السقا، أباهر، قراءة في الاختمار الاجتماعي، موقع فلسطين، **2012**. **http://palestine.assafir.com/**

– سوكاح،زهير، مفهوم الذاكرة الجمعية عند موريس هالبواكس،الحوار المتمدن، عدد 2006،1755.

http://www.ahewar.org/

– شريعتي،علي، العودة إلى الذات، تر ابراهيم الدسوقي، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، 1986.

– صايغ روزماري، تجسيدات الهوية لدى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، رؤية جديدة للمحلي والوطني، بديل/المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنين واللاجئين، بيت لحم، 2009.

– صبيح، صبيح، مقاتلو التنمية، بين خرافة التطبيق وعقائدية الخطاب والتصوير، مركز بيسان للبحوث والانماء، رام الله، 2011.

– طبر، ليندا، عزة، علاء، المقاومة الشعبية الفلسطينية تحت الاحتلال، قراءة نقدية وتحليلية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رام الله، 2014.

– طبر، ليندا واخرون، نحو اقتصاد سياسي للتحرر، قراءات نقدية للتنمية في السياق الاستعماري، مركز دراسات التنمية، جامعة بيرزيت، رام الله، 2014.

– العابد، عبد المجيد، السيميائيات البصرية، قضايا العلامة والرسالة البصرية، النايا للنشر والتوزيع، دمشق، 2013.

– العاروري، جمال، حكاية حصار، جمال العاروري، 2008.

– عدوان لورا، صورة فلسطين في روايات اللاجئين الفلسطينيين، دراسة مقارنة بين مخيم قلنديا في فلسطين، ومخيم اليرموك في سوريا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، رام الله، 2009.

– علي، ناصر، دور منظمات المجتمع المدني في تعزيز المشاركة السياسية في فلسطين، المركز الفلسطيني للدراسات وحوار الحضارات، بيت ساحور، 2010.

– عماد، عبد الغني، منهجية البحث في علم الاجتماع، الإشكاليات، التقنيات، المقاربات، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2007.

– فوكو، ميشيل، المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، تر علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.

– فياض، رهيف، العمارة ووعي المكان، دار الفارابي، بيروت، 2004.

– ليكرك، جيرار، العولمة الثقافية، الحضارات على المحك، تر جورج كتورة، دار الكتاب الجدية المتحدة، بيروت، 2004.

– ماركس، كارل، انجلز، فريدريك، الأيدلوجيا الألمانية، تر جورج طرابيشي، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1965.

– مجموعة مو، بحث في العلامة المرئية، تر سمر سعد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012.

– الناشف، اسماعيل، معمارية الفقدان، سؤال الثقافة الفلسطينية المعاصرة، الفارابي، بيروت، 2012.

– الناشف، إسماعيل، العتبة في فتح الابستيم، مواطن، رام الله، 2010.

– نخلة، خليل، فلسطين وطن للبيع، روزا لوكسمبورغ وخليل نخلة، 2011.

– هارفي، ديفيد، حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثقافي، تر محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.

– هالبواك، موريس، المورفولوجيا الاجتماعية، تر. حسين حيدر، منشورات عويدات، باريس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

–Abujidi, Nurhan and Verchure, Han, Military occupation as Urbicide by construction and destruction the case of Nablus, Palestine, Katholieke University Leuven, Belgium,2006.

–Graham, Stephen, Bulldozers and Bombs, the latest Palestinian– Israeli conflict as asymmetric Urbicide, School of Archticture, Planing and landscape, Newcastle Univesity, UK, 2002.

-Svendsen .S, Living Memorials: Understanding the Social Meanings of Community Based Memorials to September 11, 2001, Sage Publications,2010.

– Perrin, Stephen, The performance of remembering Semiology of war memorials, Sage Publication, 2006.

– WeizmaN , Eyal ,Hollow Land: Israel's architecture of occupation, Verso, London, 2007.